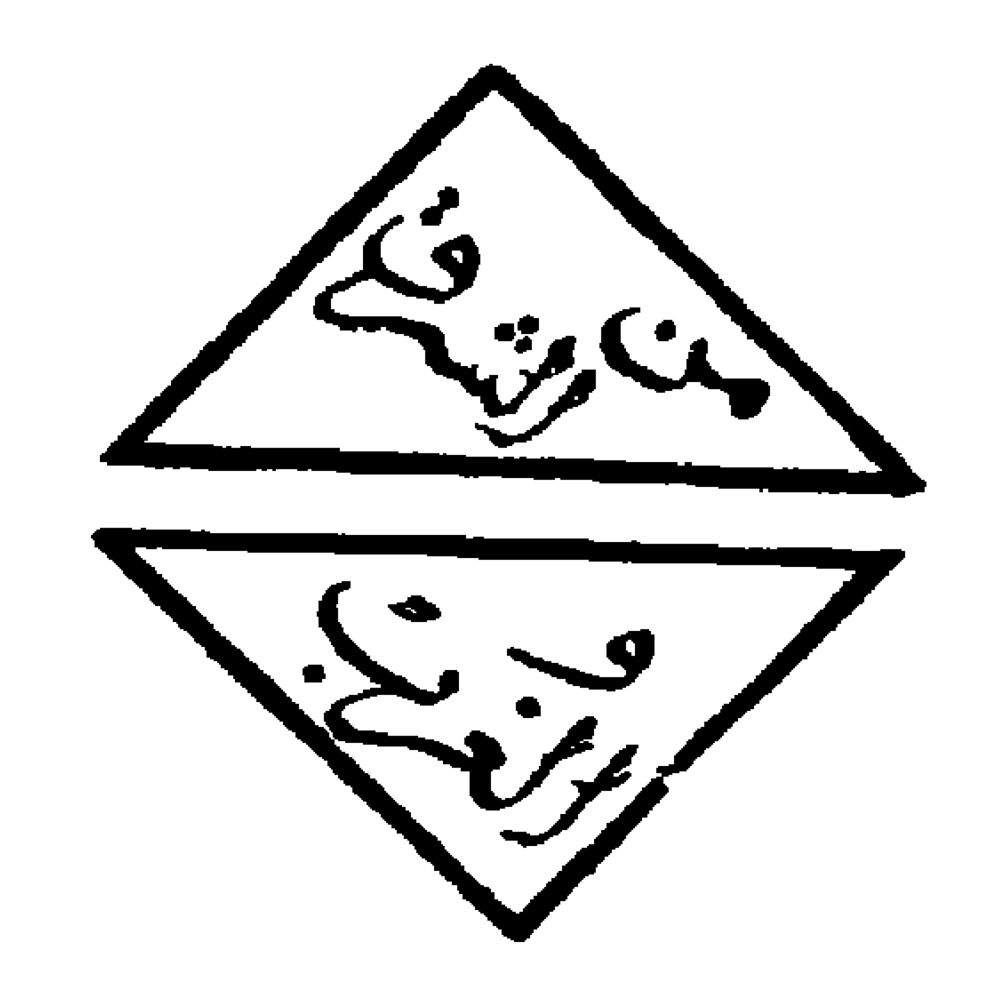

من الشرق والغرب
خير سني العمر
تأليف
والتر ب. بتكن
ترجمة
اللواء عبد المنصف محمود
أمين خيري الغندور
مراجعة
عبد الرحيم سرور

اهداءات ٢٠٠١

د. محمود دياب

راح بالمستشفي الملكي المصري



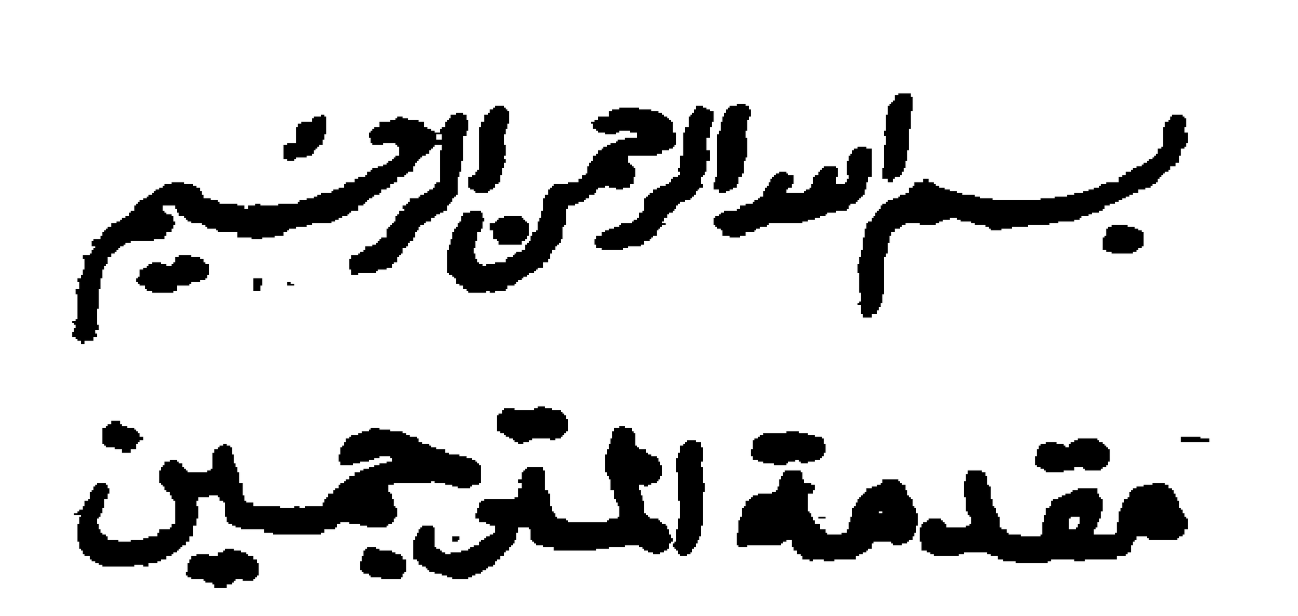
خير سني العمر

تأليف : والتر ب. بتكن

ترجمة : اللواء عبد المنصف محمود

أمينة خيرت الغندور

مراجعة: عبد الرحيم سرور



الحمد لله الذى أنعم علينـا بنعمة الحياة وسخر لنـا الارض وما عليها متاعا الى حين ، وميزنا على باقى مخلوقاته تعـالى بالعقـل لنهتدى الى الخير ونعمل لاسعاد حياتنا ، وبعد :

فاطالة العمر والتمتع باطايب الحياة هما أمنية كل انسان ، يرجوها لنفسه ، وينشدها لولده ، ويريدهـا لحبيبه · وهى مشـكلة قديمة مزت واستعصت على العلماء والمفكرين فى كل حين ، فحاولوا معالجتها جاهدين بشتى الوسائل حتى وقتنا هذا ·

فاذا طلع علينا « والتر ب. بتكن » بواسـع معلوماته وفيض أبحاثه فى كتابه هذا « خير سنى العمر » يبشر باطالة العمر ، وامتداد الأجـل وتحقيق هـذه الضـالة المنشـودة ، ثم يرشـد الى خـير السبل

للاستمتاع بحيـاة لا يظلها المرض ، ولا يقعـدها العجز ، ولا يثنيها عن العمل خوف الوهم ، فقد اهدى الينـا راحة البـال والطمأنينة فى كل صفحة بل فى كل سطر بالدليل والبرهان .

اغلب الظن ان القارىء لهذا الكتاب سوف يؤمن ، أو يعجب ، أو تغمره نشـوة السـعادة ، أو تمتـلىء روحه همـة بنظرية بتـكن السهلة الممتعة ، فيكاد لسان حاله يقول : « كيف غابت عنا ولم نفطن اليها وهى قريبة منا حتى كشفها ذلك الكاتب القدير ؟ » .

ما أحـوج الذين أشرفوا على الخمسـين أو جاوزوا السـتين أو تخطوا السبعين أو أكثر من ذلك الى الاطلاع على ما كتبه المستر ب . بتكن . انه يعتمد على الأدلة الملموسة والاحصائيات المرصودة ليبين أن متوسط عمر الانسان سوف يبلغ المائة سنة ويزيد عليها ، نتيجة لما أصابه العلم والعلماء من نجاح فى القضاء على أسباب الوفيات ، وتهوين أثر الأمراض الفتاكة ، وكذلك بازدهار الحضارة ، وانتشار الثقافة ، وتقارب الاقطار ، وسرعة الاتصال ، وارتفاع مستوى المعيشة الذى كان انخفاضه عاملا هداما لاطالة عمر الانسان وبالأحرى زمن الشباب .

ويقول بتكن : ان تطور المعيشة فى عصرنا هذا تطلب المزيد عن ذى قبل من التعليم والدراسة والتحصيل والتمرين والتدريب للنزول بها الى معترك الحيـاة لـكسب العيش ، وان ذلك يستغرق كل أيام الصـبا ومستهل زمن الشباب . واذن فالحياة تبدأ فى صورة واقعية فى نهاية العقد الثالث وهذا هو بداية العمر فى حقيقة الأمر . ولهذا كان حتما أن تستبدل الطبيعة نظرية الحيـاة القديمة بنظرية جديدة تتلاءم ومطالب حياة اليوم وجنى ثمارها بما يتفق وسنى العمر التى نقضيها للاستعداد والتأهيل ، فليس غريبا أن يطول عمر الانسان على مر الزمان لمسايرة سنن الطبيعة ونواموسها .

ان عصر الذرة غير وسيغير من معالم الكون الشىء الكثير وسيخلق أجيـالا تنظر الى ما نحن عليه الآن نظرة التعجب والحسرة على حياة قضيناها متحملين الجهل ، والصبر ، والالم ، والبطء ، والمرض ، لانهم سيالفون حياة اضاءها نور العلم والعرفان والاكتشافات والاختراعات الحديثة .

ان بتكن رجل واسع الافق منطقى يعرض نظريته « كيف يتمتع الشاب والشيخ بحياة طويلة هنيئة سـعيدة لا يشوبها ارهاق ولا

ينتابها مرض ولا عجز ولا قلق ؟ » وأكبر الظن أن هذا سيكون من حظ الاجيال القادمة فى القريب العاجل .

ويعرض بتكن فى كتابه هذا كيف يستطيع الشيخ والكهل ان يبسطا الحياة ويفيدا منها الى يوم يموت كل منهما متمتعا بلذتها بعيدا عن مساويها ؟ انه كتاب كتب خصيصا لكل من اعتزل العمل فى سن مبكرة او لبلوغه سن التقاعد ، وهو يجزم أن من أهم أسباب الموت الخطيرة هو ذلك الوهم الذى يتسلط على عقول معتزلى العمل بأنهم انما يعتزلون بذلك الحياة المألوفة لديهم فيتوارون وينزوون فى دورهم ويحسبون أنفسهم فى عداد الخارجين من ركب الدنيا ، الراحلين الى دار البقاء فيسارعون الى موتهم الادبى قبل موتهم الأبدى ، انه يبشرهم بأن عمرهم سيطول أكثر مما يتصورون لو انهم غيروا من طرق الحياة العادية المألوفة لديهم ، فادخلوا عليها بعض ما يناسبها من ظروف واحتياطات صحية مع استبقاء حيويتهم فى عمل يقدرون عليه وينفعون الناس به ، فان لهم من الخبرة والمران والحكمة كنزا يخرجون منه للناس تباعا مابقيت لهم الحياة فى صحة موفورة وعقول سليمة .

أمين خيرت الغندور ، عبد المنصف محمود

مقدمة المؤلف

قال لصاحبه وهو يحاوره :

« اننا مع الاسف لم نبحث من قبل السبيل الى تنظيم حياة الذين اعتزلوا العمل غير أننا مع ذلك نعرف رجلا حاول ان ينظم حياته . »

« هذا أمر هام ونحن فى حاجة الى سماع بياناتك عنه وان لم يكن لدينا ما نقدمه لك » .

« لقد سمعت عن أناس كثيرين اعتزلوا العمل ولكن لا أعلم ان احدا قام بتحرى شئونهم تحريا جديا » .

« ان كل ما تعرفه سيساعدنا فى ان نعالج بشىء من الكياسة شئون عمالنا الذين تقاعدوا عن العمل » .

على نسق هذا الحوار كان يكتب موظفو نحو مائة منظمة كبيرة تستخدم قرابة خمسة ملايين من العمال ، وعلى هذا النمط نفسه كان يكتب مثل هذا العدد من الاصدقاء الذين حملنا واسع خبرتهم على الظن بأنهم يعرفون شيئا عن الوسائل التى أعاد بها الرجال والنساء تنظيم حياتهم بعد التقاعد .

إهداء إلى بنجامين فرانكلين(1)

ذى العبقرية التى لم يفقها الا حسن ذوقه والتى لم يستخدمها فى خير مما استخدمها يوما فى أواسط حياته العملية المديدة حينما اعتزل العمل وعدل عن مجرد كسب العيش الى الفن الأعظم .. فن الحياة .

ففى سنيه الاثنتين والأربعين الاولى التى كان يكدح فيها فى طلب الخبز والزبد تعلم ان الانسان لا يعيش بالخبز وحده ولذا تخلى عن خطة الخبز وهو فى عنفوان سلطانه واتجه الى ما يجزى من الأشياء .

ولقد نسى الناس الشطر الأول من حياته ولكن العالم لن ينسى ابدا الشطر الآخر وسيبقى الى ماشاء الله المثل الأعلى الذى لا يمكننا أن نبلغه نحن معشر الأدنين من الناس الذين يجاهدون فى سبيل استخلاص أكبر فائدة من :

---

(1) BengaminFranklin (١٧٠٦ – ٩٤) سياسى امريكى وعالم كبير اخترع مانعة للصواعق .




اجمع الكل على أن هذه المسألة لم يدرسها احد كما أجمعوا على وجوب التعجيل ببحث الموضوع وكذلك اجمعوا على أن مجرد الكلام الملقى على عواهنه لا قيمة له اذ لابد أن تكون لدينا حقائق ملموسة .

لقد بحثت عن هـــذه الحقـــائق فوجدت الكثير منها وفاتنى ما هو أكثر . فأمامنا حاجز لا يعلم أحد عما وراءه شيئا كثيرا ، ويأتى الرحـــالة بقصص عجيبة وتروج عنه الخرافات . فما أيسر أن يضل الانسان فى الغابة من أن يهتدى الى الطريق السوى ! غير أن الشيء الوحيد الذى يجب عمله عند هذا الحاجز بل فى سائر الحواجز هو أن تتغلغل فى اعماق الغابة وأن تشق طريقك خـــلالها على خير ما تستطيع .

لم يزودنى أحد بالكثير ولكن كثيرين زودنى كل منهم بالقليل فاستحق الشكر منى عدد غفير بقدر ضئيل وعسى الا يحمل هذا على جحود الفضل فانى أزجى الحمد لجميع الأصدقاء ومن ربطتنى بهم وشائج التعارف على ما أسهموا به نقد جاد كل بما عنده وجهد المقل غير قليل .

والتر . ب . بيتكن

تحريرا فى سانتا بربارا بولاية كاليفورنيا



لم لا ؟

- ١ -



لم لا تتخلون عن العمل وتســـتمتعون بأوقات طيبة ؟
ها هو المال لا يعوزكم يا من جاوزتم الستين فأنتم تحرزون من كل دينار ثلاثة أخماسه اما بين أيديكم واما فى خزائنكم وان ستة من كل عشرة من بينكم فى يسر لا يحتاجون معه الى عون أحد ، ولذا ففى استطاعتكم من النـــاحية المالية أن تعتزلوا الاعمال اذا شئتم وفى امكانكم أن تستمتعوا أيضـا بوقت طيب اذا كنتم على قسط كاف من الذكاء والنشاط.

أجل،ذلك اذا كنتم على قسط كاف من الذكاء والنشاط ولكن هل أنتم كذلك ؟ هذا ما لا اعرفه الآن .

لقد عملتم وقتـــا طويلا وعجلتم بمزاولة العمل بعـد العشرين ومازلتم تكدحون حتى اليوم أى نحو خمسة وأربعين عاما ولم تعودوا تستطيعون ادارة عملـكم القديم بالنشاط الذى كان لكم من قبل ، فأنتم ترون بين الفينة والفينة ، وأنتم توقعون الصكوك المالية ، مروجا خضراء وجداول ماء يصيد فيها الصـــغار الاســـماك تحت ظلال الاشـجار فتعجبون وتعجبون .

لقد تعلمتم ما يكفى لأن تعرفوا أنكم فى حاجة الى زيادة معلوماتكم عن هذا العالم الفسيح لا من خلال العمل الصاخب الدائب ولكن من فوق سطح سفينة أو على متن طائرة أو فى عربة من عربات الريكشا (١) . وكل أولئك دون أن يوجد ما يستحث خطاكم .

أنتم على درجة كبيرة من صحة البدن وصدوركم سليمة وأطرافكم متينة وفى استطاعتكم أن تصعدوا أربع مجموعات من درجات السلم اذا اضـطررتم الى ذلك (ونرجو أن يكون المصعد غير متوقف) .

---

(١) الريكشا عربة خفيفة ذات عجلتين ولها مظلة ويجرها رجل أو أكثر وقد استخدمت فى اليابان لأول مرة سنة ١٨٧٠ وتكتب بالانجليزية على عدة صور Jiurikisha, Jinricksha, Rickshaw, Ricksha
وباللغة اليابانية Jin ومعناها رجل و Rikiمعناها قوة و Sha عربة تحركها القوى الآدمية

واخيرا فليس لديكم ما يشغلكم فقد شب الأطفال جميعا وغادروا المنزل وتوجه أصـــغرهم الى معهد العلم واكبرهم الى عمل حسن . وأصبحت أنت وزوجك تستطيعان أن تعلقــا الدار في الغـداة وأن تملآ خزانة السيارة القديمة وأن تضربا فى أرض الله الواســـعة . اما اين تكون وجهتكما فأمره لكما .

واذن فخبراني عنها .

ان من المهارة الفكاك من الاسر فهل لديكم هذه المهارة ؟ ومن الشجاعة أن ترجع الى نفسك وتستمتع بالحياة بعد كل هذه السنين التى قضيتها فى هذا الاسر فهل لديك هذه الشجاعة ؟

اذا كانت لديك فأرنيها .

وبينا أنت تعمل الفكر سأدلك على شيء يبدل من قرارك ولو قليلا وذلك بأن اظهرك على جديد لم يصل علمه الى الصحف لأن الصحف تنشر الحوادث وهذا ليس من بينها لانه اتجاه ، والاتجاه أشبه ما يكون بالبيضة التى مضى عليها أسبوع وهي دافئة فى المحضنة فأصبحت لا هى بيضة ولا هى فروجا ولكنه شيء سيتمخض عنه شيء آخر .

ان هذا الشيء فى سبيل التكوين اليــوم وهو في مرحلته الحاضرة يضارع في أهميته تفتيت الذرة فمـــا الذى سينجم عنه ؟ نعم ما الذى سيحدث لبيضة المحضنة ؟ هل ينقفها فروج أو يخرج منها أفعى تفح فينا ؟ أو هل تفسد البيضة؟ أو هل يسقطها أحد الناس؟ من يدرى؟ كل ما تستطيع قوله في الوقت الحاضر ان هو الا احتمالات يترنح منها الخيال.

انك في حاجة الى أن تهجر العمل وتستمتع بوقت طيب . حسنا تستطيع تحقيق أحلامك ، ولكن قـد يكون ذلك بطريقة لم تخطر لك على بال ، فأفكارك عند اعتزال العمل أفكار عتيقة ، ولايمكن أن تكون فتية لأنك قدمت الى هذا العالم منذ سنين عدة . أليس كذلك ؟ ولقد راقبت من هم أكبر منك سنا عندما كنت صغيرا أو استمعت الى ما كان يدور على المائدة من أحاديث عن الناس الذين اعتزلوا العمل فما تفكر فيه الآن عن تقاعدك هو ما بدأت تتعلمه منذ أربعين أو خمسين او ستين سنة مضت ، نعم ، انها أفكار قديمة موغلة فى القدم ولذا ستواجهك أشـــياء مفاجئة ولكنا نرجو أن تكون المفاجأة سارة .

تستطيع ان تغلق مكتبك وتقفز الى عربتك وأن تقودها الى المروج الخضراء ولكن ماذا بعد ذلك ؟ هذا ما ستتناوله قصتنا فيما يلي :

- ٢ -

خبر سار

ان هذا هو اول كتاب يكتب عن الوجه الخامس من أهم وجوه حياة الانسان وهو يوضح للناس كيف يجتازون الوجه الرابع الى الوجه الخامس؟ وكيف يجعلون من السنين التالية خير السنين جميعا ؟ .

أما الوجه الاول فهو الخروج الى الحياة الدنيا ، والثـاني النمو ، والثـالث التناسل ، والرابع التكسب ، والخامس الاستمتاع بالحياة . وطالما تجشم طلاب العلم المشـاق في دراسة الوجوه الاربعة الاولى ، أما كيف انهم غفلوا عن الوجه الخامس أو تجنبوه فستجد الجواب عنه في أثناء مطالعتك هذا الكتاب وهو جواب يجمع بين المتعة والتفقه ، كما أنه يكشف النقاب عن نبأ غاية في الغرابة .

للمرة الاولى فى ملايين السنين التى قضاها الانسان فى كفاحه فى سبيل البقاء أصبح من الميسور لملايين الناس أن يستمتعوا بلذة الحيـاة لا ليوم أو يومين ولكن لسنين تتلوها سنون فمنذ قرن من الزمان ما كان لمثل هذا الكتاب أن يصنف ولو صح أن ظهر لكان حديث خرافة . لقد اكتسب الانسان الهيمنة على أشياء قليلة وكانت هيمنته على نفسه أقلها جميعا وهو لم يخلق الحوادث ولكن الحوادث خلقته وان فكرة لنكولن(1) انعكس عليها عالم من الحقائق وان ملايين من أشكال الحياة الدنيا كانت تفتك بالجنين في الرحم ، وبالوليد في اللفائف وبالصبى العابث وبالفتى اللاهث ، وبالفتاة اللعوب وبالفلاح الكادح وبزوجه المرهقة بالعمل وبالتاجر الخاسر وبالكاتب الردىء الحظ وبالقاضى المريض بالنقرس وبالملك المخمور ومن نجا من البكتريا (الجراثيم) وقع في قبضة البلادة . وهكذا : ماكان يجب أن يكون فى منتصف الطريق أصبح فى خاتمة المطاف فلم تكن الجمهرة ترى خمسة وجوه للحياة بل كانت تراها أربعة يعقبها موت الفجاءة .

ثم ان السعى وراء الرزق ينهك قوى الناس رجالا ونساء فى سن مبكرة لانهم لا يملكون الا قليلا من القـوة اكثر مما تزودهم به عضلاتهم

---

(1) Lincoln, Abraham سياسي أمريكى عظيم وزعيم وطنى وقائد ملهم قضي على الفتنة وألغى الرق ، ولقد ولد في كوخ خشبى بولاية كنتكى Kentucky وكان أبوه فلاحا فقيرا غير أن شجاعة ابراهام وخلقه وكياسته بوأته مركزا رفيعا هـو منصب رياسة الجمهورية في الولايات المتحدة عام ١٨٦٠ ثم توفي مقتولا .

وهم لم يدركوا بعد كل الادراك كيف يسخرون الجوهر الفرد والذرة ولقد بدءوا بداية طيبة ومازال الكادحون يفتتون قواهم البدنية قبل أن يبلغوا الخمسين بزمن طويل وكان المترفون يعجزون عن العمل فى سن الخامسة والثلاثين واللاحون فى حوالى الأربعين . أما المعمرون فهم أولئك الذين لم يستخدموا قواهم العضلية فكانوا هم أساتذة الجامعات ووزراء وقضاة.

لم يصبح الوجه الخامس للحياة طويل المدى كثير الثمر الا منذ وقت قريب لذلك يستحق أن تؤلف الكتب عن مشاكله الجديدة فهو ميدان بكر للرواد وهو محشو بالمفاجآت وأكثرها سار ولكنه يستدعي تفكيرا عميقا وتعديلات جوهرية يجب أن يقوم بها كثير من الناس ، والذين يتوقون الى أن يكونوا على الدوام فى سن الحادية والعشرين يحتاجون الى شجاعة تفوق أعمارهم والذين يثقون بأن القنبلة الذرية قضت على كل شيء وعليهم أن يبدءوا حياة جديدة فان « خير سنى العمر » ليست فى جزء الحياة الذى يبدأ من عهد الأجنة الى سن الحادية والعشرين وليست نهاية الحياة فى الغد القريب .

تأتى « خير السنين » بعد الخمسين وهى خيرها بالمعنى الأعم لا المعنى الضيق فالرجل الذى لا يفهم الا أهون أنواع الخير رجل عاثر الجد لم يرتفع عن الوليد من لدن ولادته وقد يكون مديرا لأحد المصارف المالية ويبلغ من العمر الرابعة والاربعين لكنه لايزال طفلا فيكون مصيره على الغالب مصير أمثاله فينتقل من تمتمة الطفولة الى خرف الشيخوخة فى غمضة عين يوم يعتزل منصبه الرئيسى ، ولما كان طفلا فلن يستطيع أن يستمتع بالحياة ولذا فسيتوقف عن الحياة وستكون جنازته يوم الخميس ونرجو من المشيعين ألا يستحضروا معهم طاقات الزهر !

كثير من المجاهدين فى سبيل العيش يخضعون أنفسهم للعبودية نصف قرن يكدسون فيه ودائعهم ومستثمراتهم المالية ويزيدون فى قصورهم جناحا لغرفة بليارد جديدة ويضع غرف نوم للضيوف لكى يتوقفوا يوما عن العمل ليستمتعوا بالحياة كما يحبون أن يقولوا لاصدقائهم، ثم يذوى كثير منهم ويجف وتذروه الرياح قبل أن يتم النقاشون زخرفة حجرة البليارد .

فهؤلاء الناس يرتكبون أخطاء جمة لانهم أساءوا فهم فن الحياة ، ولكن لا تلمهم لانهم نشئوا فى عالم لم يفهم الوجه الخامس للحياة . وكلما تقدمت بهم السن قل فهمهم وكلما كانوا فى مقتبل العمر سهل وضع

الصفحات التالية تحت انظارهم ، غير أنا سنستثنى من هــذه القاعدة العــامة بين وقت وآخر بعض الاستثناءات لأننا نجد حقا بين الطاعنين فى السن من أوتوا حظ الاستمتاع بالحياة ســـــنوات عدة كما نجد أيضا كثيرين من الشبان غرهم الشباب واستذلهم حتى تسرب الى أفئدتهم ان الحياة المثلى على الدوام انما هى فى سن الحادية والعشرين .

هل هرمت وخرفت وهل عز عليك الآن أن تتعلم ؟ ان صح هذا فلم يوضع هذا الكتاب لك .

أما زلت فى عنفوان الشباب نزقا فى تصرفاتك ؟ وهل تثق بأن البنين والبنات زهرة البشرية وأن الحياة بعــد سني الدراسة ليست الا هبوطا وانيا حزينا نحو التراب والرماد : ان صح هذا فقف فى مطالعتك عند هذا الحد .

واذا أوتيت حظا من الكياسة حتى لتأوى الى المنزل اذا ما نزل المطر او تتقيه بالمظلة (الممطرة) ، واذا ما ســايرت الزمن ففرقت بين الثرى والثريا وميزت الاورانيوم من زهر الجيرانيوم كان لك اذن أن تضيف الى حياتك بعد أن تكون قد نجحت فى طلب الرزق حقبة من الزمن بين عشرين سنة وأربعين تحياها حياة طيبة هنيئة .

فاذا كنت من هذا الطراز كان نصيبك من الخير أوفر كلما صغرت سنك ، وكان بودى أن أصنف هذا الكتاب للقراء الذين تختلف أسنانهم بين السادسة والرابعة عشرة ولكنى لا أستطيع أن أرسم اشكالا هزلية ولا أن أحيل النص الى عناوين مضحكة ، وسيأتى يوم يستطيع فيه أناس أشد منى ذكاء أن يلقنوا الأطفال الدروس التى أودعتها كتابى هذا . وحين ذاك سنكون قد اتخذنا سبيلنا نحو الحياة المجيدة لأن فن الوجه الخامس يبدأ فى مرحلة الوجه الثانى فالأحداث يجب أن يفهموا بأسرع مايمكن فن الأسن منهم وعليهم أن ينظروا الى الحياة بمنظارها الحقيقى وعليهم ألا يظنوا أن غايتها تلتمس فى أول غرام أو أول طفل أو أول عمل ، فكل أولئــك حوادث فى قصة لم تتم فصولها .

ولقد وصل الحكيم (بن فرانكلين) الى لباب الامر حينما كتب يقول:

«ان الشاب الذى له خبرة الشيوخ سيكون شيخا له أهمية الشباب»

ويقول لى الكثيرون : انهم لا يفقهون هذا القول ولست أجيبهم بأنهم ينمون بهذا عن عدم نضجهم ، وانى أربأ بنفسى عن أن أقول لهم ان هــذا

الكتاب محاولة لتعليم الناس كيف يحيون حياة طويلة دون أن يهرموا وهذا القول فى نظرهم مجرد هراء ولكنه لم يكن كذلك فى نظر «**جوناثان سويفت** (١) » الذى كان أول من قال : أن كل انسان يود أن تطول حياته ولكن ما من انسان يود أن يهرم . فما احسن أن يعيش المرء قرنا من الزمن ! وما أحسن ألا ينتابه ألم أو وجع ! وما أحلى أن يبصر بعينين حديديتين وأن يسمع بأذنين مرهفتين وأن يتناول كعكته بيديه ويقضمها بأسنانه !

لقد حان الوقت الذى تستطيع فيه ، بشكل ما ، أن تتناول كعكتك وأن تأكلها أيضا وتستطيع أن تحيا حياة طويلة دون أن تهرم ، ولكن لا تحاول أن تحمل هذا الوعد على محمل لا يمكن أن يؤديه ، خذه على ألا يعنى الا ما يعنيه : أى أن فى استطاعتك أن تجعل ما بعد الخمسين من السنوات خير عمرك لو انك أحسنت الافادة مما تقدمه لك دنيا اليوم ، وسنريك كيف تفعل هذا .

(١) ولد عام ١٦٦٧ وتوفي عام ١٧٤٥ وهو من أعظم الكتاب الانجليز ومن أشهر مؤلفاته « رحلات جلفر » .

- ٣ -

ماهى خير سنى العمر ؟

اني لأسمع ضحكات السخرية تنبعث من فم فتى يقفز قفزة الضفدعة فوق ظهور رفاقه الركع ومن فم الشباب وهو يمارس أول عمل له ، ومن فم الرجل فى ربيع الحياة وقد كسب عشرات الالوف من الجنيهات من بيعه حمولة سفينتين من الدراجات البخارية المستعملة الى شرطة باراجواى وأسمعهم وهم يقولون « **أيها النصاب الكبير** : أتقول لنا : ان خير سنى العمر تأتى بعد الخمسين ؟ أغرب عنا وبع فى الطريق الآخر ما تحمل من سقط المتاع ! » .

وانك لتجد بعد الخمسين مثل هؤلاء النقاد على حقيقتهم فتبتسم لذلك ، فما الذى يستطيع الفتيان أن يعرفوه عن الحياة فى السن المتأخرة ؟ انهم لا يعلمون شيئا الا عن السنوات القلائل الاولى ، وما يعلمونه عنها غير دقيق لان مواهبهم لتفهم الاشياء ما زالت ضعيفة ، وما الذى يستطيع أن يعرفه الشبان ؟ ان الميول الجنسية لتحرق أجسامهم وهم لا ينظرون الى الاشياء الا نظرة المستولد المستنبت ؟ وما الذى يستطيع أن يعرفه رجل الاعمال وهو يحبو الى الخمسين ؟ حقا انه يعرف أكثر مما يعرف الشاب وما يعرفه الشاب غير كثير فان عقله منصرف الى تلك الارباح التى ربحها فى (باراجواى) وانه ليظن أن الحياة هى فى القدرة على كسب العيش ، وهو يحدثنا أن الحياة الطيبة هى الصفقة الرابحة أى أن خير سنى العمر فى رأيه لابد أن تكون السنين التى يجنى فيها أكبر قدر من الارباح المالية (ويدفع فيها أقل قدر من ضرائب الدخل) .

وليس لدينا لكل هؤلاء النقدة الا جواب واحد يتخذ صيغة السؤال الآتى : ما الخير فى خير سنى العمر ؟ .

هل هو لكسب مباراة فى القفز الى الماء ؟ لا !

هل هو لكسب مباراة فى المصارعة من عشرين جولة ؟ لا !

هل هو للغناء فى احدى مسرحيات الاوبرا ؟ لا !

هل هو للرقص فى الباليه ؟ لا !

هل هو لتربية الاطفال ؟ لا !

هل هو لادارة متاجر الحلى النسائية ؟ لا !

هل هو لتولى وظيفة كبير الجراحين فى احد المستشفيات ؟ لا !

هل هو لادارة أحد المصانع ؟ لا !

اذن فما هو ؟ !

هو ما ذكرناه من قبل وهو أن تعيش العيشة التى تهواها وتستمتع بحياتك لا بنصف حياة ولا بحياة مستعارة ، ولكن ما تلك الحياة ؟ اغلب الظن انك لا تعرفها لأنه لا يعرفها بيننا الا القليل ، ولم يكن ذلك الا منذ عهد قريب ، على أنها كانت بشكل من الاشكال هى تلك الحياة التى كمنت فيك خلال أهم تسعة أشهر فى عمرك كله قبل أن تنفصل عن أمك ، وكانت هى أيضا الحياة التى انبثق بعضها من تطاحن الظروف خلال فترة نموك فى سنواتك الاولى التى تبلغ عشرا أو تزيد ولم تكن بكل تأكيد حياتك كمصدر للنسل أو حياتك كشخص يعمل للغير سدا لمطالب العيش، فليس من الحياة أن يكون لك أولاد أو أن يكون لك مصدر رزق : انهما من وظائف الحياة وانهما على أحسن الفروض لا يمثلان الا جزأين ضئيلين من حياة رحبة متعددة الجنبات ، وعلى أسوأ الفروض لا يمثلان شيئا .

واذا كنت تعدنى بألا تحاسبنى على كل حرف أتفوه به فانى سأشرح لك معنى دعابتى القديمة التى عفى عليها الزمن ، وهى مع ذلك ليست دعابة هزلية : ان الحياة معظمها حرارة وقوة وضوء : حرارة فى الشباب وقوة فى عنفوان الرجولة ، وضوء فى السنوات التى تلى سن الخمسين ، والحرارة تهدى للخيال والبسالة والحب، والقوة للعزة وذيوع الصيت، أما الضوء فيكشف الأشياء على حقيقتها . وتأتى أول ما تأتى السنوات المملوءة بالحرارة ، تتلوها سنوات القوة وفى نهاية الجميع سنوات الضوء ، وعلى هدى سنوات الضوء نقيس الشئون الكونية .

ولكى تفيد أكبر فائدة من خير سنى العمر عليك أولا أن تسلط الضوء على نفسك لتعرف من أنت ؟ وما الذى ينبثق من نفسك الاصلية التى تولدت معك وأنت جنين ؟ وكيف تشق طريقك بين الاكداس المكدسة من العادات التى اكتسبتها وأنت تعول أسرتك وتكافح فى سبيل الحصول على المال الكافى لكسوة الأطفال ؟ وكيف وجدت نفسك فى سفح جرف الجليد ؟

استعار الكثيرون منا حياة فترة من الزمن بلغت من الطـــول حداً لم نعد نستطيع معه أن نخترقه لنصل الى نفوسنا الحقيقية غير أنه يجب علينا أن نتعلم فن الحياة الجديد وانا لنستطيع ذلك اذا ما حزمنا أمرنا عليه ولكن كيف السبيل لاقناع الناس للهيمنة على مثل هذه المشكلات ؟ انى أظن أنه يجب علينا أولا أن نقنعهم بأنهم سيبذلون جهدا أقل ويجنون ربحا أوفر مما أتيح لآبائهم وأجدادهم أو أجداد آبائهم ٠

والآن فلنلق نظرة على العصر الذرى ٠

- ٤ -
الحلم يتحقق



انى أوثر أن تكون سنى اليوم سبعين سنة على ان أكون شابا فى شرخ الصبا فى عصر سابق من عصور الدنيا وأوثر أن أكون الآن كسيحا أصم على أن أكون السيبيادس(١) الامرد فى أثينا على عهــد بركليس(٢) وان العصر الذرى وفجره يبزغ الآن يحقق من الاحلام أكثر مما حققته الوف الاجيال التى تقدمته ، وقد يكون أبهى حلم بينها جميعا هو الذى نرى فيه سنى ما بعد الخمسين وهى تتحفنا بالمزيد من البهجة والمزيد من الطرب والمزيد من الحذق والمزيد من جديد التجارب بما يفوق ما تزودنا به سائر أيام الحياة ٠

أتقول : ان هذا القول هذيان وهذر ؟ اذن تعال معى نطلع على سجل الحقائق .

منذ أربع عشرة ســـنة فقط حينما قلت ان الحياة تبدأ فى سن الأربعين (٣) قلت وأعدت القول ان هذا كان حين ذاك للـكثير من الناس مجرد حلم ، وللقلة التى حباها الله بثاقب النظر حقيقة للموسة ، وتكهنت أيضا أن تتجه جميع البحوث الى معاونة الناس باطراد على أن يجعلوا من الحلم حقيقة ، وقد بدا لى فى ذلك الوقت أن أكثر الناس قد يجدون بعد أربعين سنة أو خمسين خير سنيهم بعد الأربعين .

ولكن الاحداث سبقت ما تكهنت به ٠

فمنــذ أربع عشرة ســنة كان يتوقع للوليد ساعة يولد أن تمتد به الحياة خمسا وخمسين سنة أما اليوم فقد ارتفع مدى الحياة المتوقع الى نحو سبعين سنة وأخــذت الآن شركات التامين على الحيــاة فى مراجعة جداولها وستتضخم صفوف المواطنين الذين جاوزوا الســبعين من ستة ملايين ونصف المليون الى عشرة ملايين فى خمس العشرة ســنة القادمة ثم الى خمسة عشر مليونا فى الوقت الذى يبلغ فيه أبناء الثلاثين حد السن الوارد فى الانجيل ٠

---

(١) السيبيادس Alcibiades ٤٥٠ ـ ٤٠٤ ق٠م٠) قائد وسياسي يونانى من أثينا.
(٢) بركليس Pericles (٤٩٩ ـ ٤٢٩ ق٠م٠) اشهر سياسي بأثينا .
(٣) للمؤلف كتاب اسمه « الحياة تبدأ فى سن الأربعين » Life Begins at Forty.

فما أغرب أن يضاف فى غضون أربع عشرة سنة فقط خمس عشرة الى مدى الحياة المتوقع ، على أنها هى الدنيا كل يوم تتغير وتتبدل .

منذ أربع عشرة سنة كانت الكثرة الكاثرة من العمال كادحين (١) مدقعين (٢) فأعمال المزارع مابرحت ثلاثة اخماسها تنفذ باليد ومافتىء الناس يرصون اللبنات بالأسلوب الذى اتبعه أسلافهم حينما شادوا روما القديمة وكان النجارون ينشرون الألواح ويدقون الدسر كما كانوا يفعلون منذ الوف السنين ولم يجهز من المصانع بالآلات المريحة من عناء العمل الا خمسها . أما فى سائر العالم فكان يستوى فى نظر رجل العصر الحجرى كل موضع يحل فيه : فثم داره .

ولكن ما الحال الآن ؟ يقول المتشائمون : ان عمال المصانع ينتجون فى الساعة نصف ماكانوا ينتجون من قبل ويقول المتفائلون : انهم ينتجون أكثر من ضعفيه وان عددا قليلا من المهندسين الذين يقولون انهم يعرفون اثر الحرب فى كفاية العامل ليجرءون على الافتراض بأننا حينما نعلم ما وقع منذ ١٩٣٩ سنجد زيادة كبيرة جدا فى مقدار ماينتجه العامل فى الساعة ، ولكن ليس لنا أن نعول على مثل هذه الأمانى وحسبنا ما وقع قبل الحرب ففيه ما يكفى لاثارة العجب .

واليوم يحصل الزارع العصرى على انتاج فى الساعة يزيد بمقدار خمسين فى المائة أو ستين على ماكان يحصل عليه منذ أربع عشرة سنة ، على أن بعض الزارعين الذين اختصوا بزراعة نباتات معينة جنوا أكثر من الضعفين ، ومع أن الكفاية سارت بسرعة البرق الخاطف فان نتاج المحصولات الزراعية لم يزد الا بكل تؤدة ورفق وأخذ عدد العمال يقل يوما عن يوم ، وأخذ ماينتجون من الأغذية يزيد يوما عن يوم ويعلم كل مهندس زراعى حق العلم أن فى استطاعة أى زارع أن يضاعف انتاجه اذا استخدم خير الآلات والمعدات بخير الطرق .

واليوم يستطيع الانسان أن يحصل فى عشرات الميادين على انتاج فى أسبوع ذى عشرين ساعة يضارع ماكان يحصل عليه فى أسبوع ذى ثلاثين ساعة منذ أربع عشرة سنة فقط ولذا نرانا قطعنا شوطا كبيرا نحو بلوغ عهد يساوى فيه العمل نصف الوقت ، العمل طوال الوقت وهنا يتوقف ذوو الحصافة ليتساءلوا : لم نعنى انفسنا بتقصير يوم

---

(١) الكدح عامة الكسب وقيل هو السعى فى مشقة .

(٢) الادقاع والدقاعة سوء الكسبة .

العمل ؟ وكيف ننتفع بالفراغ ؟ ولقد كنا على وشك أن نعالج هـذا الأمر حينما دوى نذير حرب عالمية فى آذاننا وحسم كل نقاش .

منذ اربع عشرة سنة كان الناس يتساءلون عما يحملنا على محاولة اطالة الحياة ويقولون ان العمل والأسقام التى تبرى جسد الهرم وتدنفه مع مافية من وهن لتجعل من سنواته الاخيرة أسوأ سنى حياته فلم تطيلون الحيـاة ولو يوما بعـد أن امتنعت عليهـا للذة ؟ ولم يعر الأطبـاء جوابا عن هذه الأسئلة لأنهم لا يعرفون كيف يدخلون البهجة على السنوات الاخيرة ؟ .

وما الحال الآن ؟ انى لا أستطيع أن أنهى اليكم جميع الأخبـار السارة لكثرتها وانتشارها فى مئات ميادين الأبحاث التى يشقى فيهـا العلماء بعيدين عن الانظار : فمن ذا الذى سمع بعقار السلفا منذ أربع عشرة سنة ؟ لم يسمع به الا رجل أو رجلان ثم لم يعملا بهذا العقـار شيئا أما اليوم فالسلفا من الأشياء المألوفة الدارجة ، وكم من ألوف من الناس لولا السلفا لقضوا نحبهم وهم الآن ينعمون بالحياة .

منذ أربع عشرة سنة لم يسمع أحد بالبنسلين ولكنه اليوم ينتج على نطاق واسع ويحوم الكيماويون على شفا اختراع عظيم يمكن المصانع من تحضير بنسلين صناعى . وقد أنقذ هذا الطحلب حتى اليوم عشرات الألوف من الموت المبكر وقد يضيف الى حياة الملايين سنوات لا تقل عن عشر وقد تبلغ أربعين .

ومن ذا الذى سمع منذ أربع عشرة سنة بعقار ستربتوميسين ، أو عقار جراميسيدين أو كورار أو أى من مئات المواد الكيماوية الأخرى التى أحدثت ثورة فى ميادين الطب ؟ لم يسمع بها أحد وهى اليوم ذائعة الاستعمال يعمل كل منها على انقاذ الأرواح زرافات زرافات .

ومنذ أربع عشرة سنة هل أصاب أحد نجاحا فى علاج الرثية (١) هذا المرض المؤلم الذى يصيب الانسان فى شيخوخته ؟ كلا : أما اليوم فيقرر الروسـيون أنهم شفوا بمصـل جديد عشرات الألوف من هؤلاء المتوجعين شفاء تاما . وهذا المصل موضع الفحص والاختبار ــ وأنا أخط هذه السطور ــ فى كثير من معالمنا الكيماوية وعياداتنا الطبية .

ومنذ أربع عشرة سنة كان الانسان يكاد يكون واثقا بأنه سيلتزم الفراش أسبوعين بعد استئصال الزائدة الدودية دون انفجارها أما اليوم

---

(١) الرثية الوجع فى المفاصل واليدين والرجلين وهى « الروماتزم »

فهو يغادر الفراش فى اليوم التالى بل ان بعض المرضى يغادرون المستشفى فى اليـوم الأول ـ وان كان قليـــلا ـ ثم انه تم فى الأربع عشرة ســـنة الماضية ادخال تحسينات فنية مدهشة جردت مائة فرع من الجراحات الكبرى من مخاطرها وستصبح المستشفيات فى الغد نوعا من الحوانيت، فلقد صرح أحـد الجراحين أن الانســان يوشـك أن يدخل المستشفى لتستأصل زائدته الدودية كما يدخل عيادة طبيب الأسنان ليحشو له سنا نخرة .

منذ أربع عشرة سنة لم يدر بخلد أحد وجود حقن للانفلونزا أما الآن فان هذا العقار يستخدمه على نطاق واسع الأطباء والمستشفيات كعلاج مألوف ؛ وثلاثة ارباع الأشخاص الذين يعالجون به يكتسبون مناعة تامة ضد هذا المرض المزعج والباقون يصابون به بشكل خفيف ٠

منذ أربع عشرة سنة كان الذى يصاب بالالتهاب الرئوى لا تكون له الا فرصة ضئيلة للتمتع بخير سنى حياته ولكن ما الحال اليوم ؟ صرح أحد الاخصائيين البارزين من وقت قريب أنه اتصل تليفونيا بأسرة أحد المرضى وقال لهم : لا بأس ليس الأمـر خطيرا فان كل ما به التهاب رئوى ٠

منذ أربع عشرة سنة لم يقف أحد على طريقة علاج القرح المعوية بغير عقاقير أو جراحة فى معظم الحالات أما اليوم فان علاجها أصبح أمرا مألوفا ٠

منذ أربع عشرة سنة صرح بعض العلماء المتعجلين بأنهم على وشك أن يتقنوا صنع المواد الكيماوية ويجيدوا طرق العلاج لكى ينتجوا ــ على حسب الطلب ــ أى طراز من الجنس البشرى واليوم وان لم يحقق الانسان هذا الغرض ــ فقد أصبح أقرب اليه مما كان يجرؤ الكثيرون منا على الحدس به والتطلع اليه ، حقا انه أحرز نجاح قرن من الزمان فى مدى عشر سنين وليس الوقت ببعيد حينما تستطيع بعض جماعات العلماء أن تخرج طرازا بشريا جديدا فيـذهلوا الدنيا أكثر ممـا أذهلها محطمو الذرة وقد يحدث هذا وأنت على قيد الحياة ٠

منذ أربع عشرة سنة لم يسمع أحد بالرادار أو بالأجهزة التى تفوق سرعتها سرعة الصوت الا قلة من علماء الطبيعة فى معاملهم المجهولة ولم يسمع أحد بأكثر من نوعين أو ثلاثة من اللدائن الا الكيميائيين الذين كانوا يجرون التجارب على هذه المواد ولم يعمل أحد، الا ثلاثة أو أربعة ، من علماء الطبيعة ، أكثر من أن يحلم بتفجير الذرة فى يوم بعيد ، وانى لأذكر منذ

عشر سنوات كيف أن اثنين من ألمع علماء الطبيعة أكدا أنه اذا ما فجر الانسان الذرة في يوم ما فلن يتم ذلك قبل مرور قرن أو قرنين ، وأنصت الى أحد العلماء الممتازين وهو يحدثني بأنهم وفقوا الى اعداد آلة للأشعة السينية تبلغ قوتها ١٫٠٠٠٫٠٠٠ فولت ٠

وما الحال الآن؟ ان القنابل الذرية تستطيع أن تذيب الجليد المتجمد على جرينلند وانه اذا ما ذهب مرة فلا رجعة له كما يقول جميع علماء طبيعة الأرض وعندئذ تصطلى انجلترا بشمس اشبيليه على حين يتخلى الاسكتلنديون عن طحين القرطم ويستبدلون به عصير البرتقال الذى سوف يصنع فى أراضيهم ، ولن يحصل هذا الا اذا توقفنا عن تفتيت الجليد في جرينلند وتجنبنا فى تحمسنا للمشروع أن تجرفنا مياهه ولو اننا أذبنا ثلج المحيط المتجمد الشمالى أيضا لمحونا من الوجود لندن ونيويورك وشنغهاى وبومباى وكلكتا وألوفا من الموانى الأخرى لأن مياه الثلوج المذابة ستغطى هذه المدن بطبقة من مياه البحر الزرقاء عمقها أكثر من مائة وخمسين قدما وقد يؤثر هذا فى شئون الملكية العقارية ٠

منذ أربع عشرة سنة لم يكن المستقبل يبشر بخير كبير لمرضى السرطان فما الحال اليوم ؟ ان كثيرا من حالات هذا المرض يمكن شفاؤها شفاء تاما أو تحسينها جوهريا لو أنها عولجت فى وقت مبكر ، والفرصة الآن سانحة لتنمية الأبحاث الذرية فى غضون السنوات القليلة المقبلة الى درجة هذا المرض ، وهو أسوأ الأمراض ، سيمكن التغلب عليه ، وفى الوقت ذاته فان أسوأ وجوهه أصبح اليوم فى خبر كان ٠ ومنذ أن شرعت فى كتابة هذا الكتاب أتم أحد جراحى المخ جراحة وضعت حدا لجميع الآلام الصعبة الاحتمال حتى فى أسوأ الحالات ، واستغنى بذلك عن الطريقة القديمة طريقة استخدام المورفين ٠

وسيكون أدنى الى التحقيق وأشد أهمية لرجال هذا العصر تلك الخطوات الواسعة فى سبيل السيطرة على السرطان وربما على بعض الأمراض الأخرى الناهكة للجسم فى مراحل الحياة الأخيرة وذلك باستخدام أشعة ذات قوة هائلة تكون كلها محكومة بأنواع جديدة من المفاتيح لتسليطها على الأنسجة المريضة ، وتغدق فى الوقت الحاضر الملايين من الأموال على معامل الأبحاث الطبية لاستخدام المعلومات الجديدة عن النشاط الذرى وسيؤتى استثمار هذه الأموال على هذا الوجه ثمرته عاجلا ٠

انى لأرى الرجل الطاعن فى السن يهز رأسه وتلمع فى عينيه الحزينة قطرة من الدموع ٠

ويقول : « هذا حديث طلي بل جد طلي أيها الشاب المرح الظريف ولكنه لن يغني عني أو عنك شيئا فانه أمر لن يتحقق في أيامنا ! نعم لن يتحقق في أيامنا فانه سوف يستغرق سنوات وسنوات حتى تثمر الأبحاث وتعم الناس جميعا » ·

لقد كنت على هذا الرأى في وقت ما أما اليوم فقد عدلت عنه فما الذى دعاني الى تغيير رأيي ؟

أولا : السرعة المذهلة التي صاحبت التحسينات في عالم الطيران ·

وثانيا : تقدم الصناعة الذى لا يستطيع رجل الشارع أن يفهم معظمه ·

منذ احدى عشرة سنة فقط جرى بعضنا نحن معشر الثرثارين الى الكتابة والخطابة متكهنين بطائرات تطير بسرعة خمسمائة ميل في الساعة في الجيل المقبل فحذرنا الأصدقاء هذا القول لأن الحكومة تعتقل الناس الذين يختل منهم مافوق الأذنين !

ولكن لم تمض سنة بعد الحرب حتى كانت الطائرات تطير بسرعة تزيد على ستمائة ميل في الساعة وأحب الناس هذه السرعة وقد علمنا أن أحد الطائرين زاد في بعض مراحل الطيران سرعة طائرته الى سبعمائة ميل ، والآن يتوقع كل مهندس أن توجد في خلال عشر سنوات أو عشرين سنة طائرات عملاقة تسبح فيما وراء الطبقة الهوائية المحيطة بالأرض بسرعة ثابتة تبلغ خمسمائة ميل في الساعة في طوافها حول الأرض · وستبلغ سرعة الطائرات الحربية ألف ميل في الساعة قبل أن نفاجأ بنشوب الحرب التالية ، واليوم لا يعد الخبير ثرثارا ولا متشدقا ما لم يكن يعمل في صنع طائرة لرحلة يصل بها الى القمر ويعود منه في ذات الليلة ·

منذ أربع عشرة سنة كانت الطائرة تستطيع أن تصل الى أية بقعة على الأرض في مدة خمس وثمانين ساعة اذا أمكنها أن تحمل وقودا كافيا أو تتزود بالوقود خلال رحلتها ولما كان كلا الأمرين متعذرا فقد استعصى عليها الطواف حول العالم · وكانت الرحلات محدودة ببضعة آلاف من الأميال مع توقف في بعض المحطات المناسبة ، ومنذ خمس سنوات أظهر بعض الخبراء شجاعة اذ نشروا أن طائراتهم تستطيع أن تطير من أية بقعة في العالم وتصل الى أية بقعة أخرى فيه في مدة لا تزيد على اثنتين وخمسين ساعة · وقد زاد عجبنا من هذا الأمر ولكن أليس العالم مليئا بالعجب العجاب ؟

فما الحال الآن ٠٠ ؟

ان لدينا طائرات جبارة تستطيع الوصول الى ابعد ركن فى هـذا العالم الصغير فى غضـون ثلاثين ساعة تقريبا ، ولدينا طائرات يمكنها بوساطة محطة وقود أو محطتين على طول خط السير أن تصل الى أبعد الأماكن فى مدة اثنتين وعشرين ساعة تقريبا مع غض النظر عن ساعتين للتزود بالوقود واختبار الطائرة ٠ وفى الوقت الذى تطالع فيه هـذه الصفحة يحتمل أن تكون قد خرجت احدى الطائرات فى تجربة للطواف حول العالم فوق خط الاستواء فى خمس وثلاثين ساعة أو نصف هـذا الطريق فى نصف ذلك الزمن ٠

وبينا أكتب هـذا السطر تدرس واشنجتون طلبا قدمته احـدى شركات الطيران لتسير خطا جويا بطائرة الهليكوبتر بناحية لوس أنجيليز ، وسيصبح عن قريب انتقال رجال المال والتجارة من دورهم الى مكاتبهم فى نحو ربع الزمن الذى كان يستغرقه القطار أو السيارة ، وستمتد حدود مدينة لوس انجيليز الى بفنلاند شمالا وبناما جنوبا ٠ وحديثـا شحن أحد الزراع الفرنسيين طنين من الخس الطازج الى لندن فى طائرة بضائع وباعهما بأعلى الأسعار . والآن نرى جماعة من الطيارين القدامى يشتغلون بتأجير طائرات لتسييرها عبر القارة حاملة أى متاع مهما ضؤل الى اى مكان مهما بعد .

والآن فلنتناول الغامض من الأمور التى أسلفنا ذكرها :

لم أستطع أن أدرك فى معظمها شيئا أكثر من ظن سقيم من أن الناس أحدثوا ثورة فى مئات الصناعات ومازال أكثرها طى الكتمان ولم تنشر أغلبها الا تقارير مقتضبة ولكن حتى مجرد الاشارة الى طبيعتها يثير النشوة فى كل انسان له خيال ٠

ومنـذ بدأ النـاس يبحثـون طرق تحطيم الذرة فى « أوك ريدج » Oak Rigde فى ولاية تنيسى (١) استوفوا نحـو خمسـة آلاف من المنتجات والأسـاليب الجـديدة التى تفيـد بدرجات متفـاوتة فى مئـات من الصناعات التى لا يسـتخدم كثير منها الذرة المحطمة . وكانت تلك التحسينات فى الأجهزة الخاصة بتنظيم درجات الحرارة ومنع حدوث مسام فى أوعية الغازات وتنظيم الفولتاج العالى وهلم جرا .. وقد

(١) Tennessee ولاية من الولايات المتحدة الامريكية محصورة بين ولايتى كنتكى شمالا والاباما جنوبا ٭

أحدث عدد قليل من الاختراعات أساليب واجهزة جديدة كل الجدة أدت فعلا الى تغييرات عميقة فى صناعات كبرى ويسمى احدها «بالاشعاع الغازى» وهو أسلوب لادخال الغاز عنوة فى الأشياء الصلبة لفصل عناصرها كل عن الآخر . وفى « أوك ريدج » استخدم هذا الأسلوب لفصل الوحدة المرموز لها برقم ٢٣٥ من الأورانيوم ، وهناك اسلوب آخر شديد الصلة بالأول يحيل المواد الصلبة الى غازات بوساطة الكيميائيات بدلا من الأفران الكهربية، وما عرف العلماء عن امتزاج الفلورين بالهيدروجين فى هذا الأسلوب قد قلب معلوماتنا عن تآكل المعادن رأسا على عقب ، ويقرر المهندسون أن هذه المعلومات ستؤدى فى القريب الى أن يقتصد رجال الصناعات ملايين الجنيهات سنويا .

ان الطلمبات ذات الضغط العالى قد أخذت هى الأخرى تتطور تطورا كليا ويتكهن المهندسون فى هذا الصدد خاصة بان الفوائد التى ستعود على الصناعة من استعمال مضخات أرخص ثمنا وأكثر أمنا وأسرع عملا ستعوض وحدها فى مدى عشرين سنة جميع ماتكلفته أبحاث القنبلة الذرية . فحاول أن تزدرد هذه اللقمة دفعة واحدة . ولكن هذا ليس أسهل على التصديق مما يؤكده الكثيرون من المهندسين البارزين : فهم يحدثوننا الآن أن صناعة البترول بحذافيرها يجب اعادة بنائها حتى اذا ماتم ذلك حصلنا على جازولين(١) وشحوم وعشرات من المنتجات الفرعية بأثمان زهيدة . ويجرى الآن اعادة بناء صناعة التبريد على نفس الأسلوب وتسايرها صناعة المواد المبردة التى تمتص الحرارة غير المرغوب فيها مع الهواء أو الماء أو الكيميائيات وهكذا الحال مع صناع الصهاريج والمراجل ومع صناع الأدوية من الكيميائيين وغيرهم .

فهل تستطيع أن تتخيل الآثار المجتمعة التى تنجم عن استعمال خمسة آلاف جهاز حديث . لا ! حتى ولا اينشتين(٢) . فلن يستطيع ذلك العقل الضئيل الذى فى جسم الانسان الضئيل أن يتناول خمسة آلاف اداة دفعة واحدة بل انه ليعجز عن أن يحل ، بغير تدريب دقيق ، التشكيلات التى تتألف من تغيير مواضع ثلاثة أرقام مختلفة لا تربط بينها صلة ما ، وحتى مع التدريب لا تتسع قواه لمعالجة خمسة أرقام ، فما بالك اذا كان علينا أن نتناول خمسة آلاف رقم ؟

وانما هناك أمر واحد يمكننا أن نؤكده كل التاكيد وهو أن كل

---

(١) الجازولين بترول مكرر طيار قابل للاشتعال ويستخرج بتقطير البترول .

(٢) البرت اينشتين ولد سنة ١٨٧٩ وهو عالم سويسرى يهودى اشتهر بنظرية النسبية التى وضعها سنة ١٩٠٥ .

شهر في المستقبل سيضع تحت تصرف الكافة ـ اما لخيرهم واما لشرهم ـ أدوات جديدة غريبة ووجوها لاستخدامها أشد غرابة ولكن منها آثار متسلسلة يأخذ بعضها برقاب بعض ولم تكن تخطر ببال على الاطلاق وستصبح الحياة مغامرة جنونية وسيستأصل كل عام جزءا من الدنيا القديمة ، وعلى أنقاض هذه الدنيا تظهر عادات جديدة واتجاهات جديدة وآراء جديدة ٠

ومن هم أول من يجنون فائدة هذا كله ؟ لا شك أنهم هم الذين لهم من حدة الذكاء ما يدركون به قيمة الأشياء الجديدة ولهم من النشاط واليقظة ما يمكنهم من الافادة منها خير افادة ، ولهم من الثراء ما يستطيعون به شراءها ، وبعبارة اخرى هم الرجال والنساء الذين بلغوا الخمسين من العمر او جاوزوها والذين هم بين الثلث الأول من أصحاب الدخل الذين قضوا نصف القرن الأول من حياتهم يرقبون ويفكرون ويدخرون ويعملون ، ثم يرقبون ويفكرون ويدخرون ويعملون. وسيسيرون على هذه الوتيرة ولو مع شيء من الهوادة ، ولهذا كادوا يجمعون بين أيديهم المال والعقار والمناصب الرئيسية في جميع الشركات الكبرى تقريبا ، كما أنهم يتمتعون بخير النصائح والآراء . فلماذا اذن لا يكونون أول من يحصد ثمار العصر الذرى ؟

لقد زاد في الأربع عشرة سنة الماضية تقدم هؤلاء المسنين في كل ميدان زيادة أكثر مما احرزه أى شخص في القرن الماضي ٠ ومنذ ذلك الوقت وهم يورثون أولادهم وحفدتهم مزايا ماحصلوه ٠ وتحيا ذراريهم حياة أطول وأحسن من أى جيل سابق في أية بقعة من الأرض ٠

واذا رجعنا الى عام ١٩٣٢ وجدنا أنه كانت تتاح فرصة واحدة لفرد واحد من بين كل مائة فرد لكي يبدأ حياته بالمعنى المنشود في سن الأربعين ٠ واليوم يحتمل ان تسنح الفرصة لواحد من بين كل عشرة اشخاص على الأقل ، وسيأتى يوم تصل فيه النسبة الى واحد من بين كل خمسة ٠ وعندئذ يقف هذا التسلسل كما هو سنة الحياة لأن البرغوث لا ينمو حتى يصبح كالفيل ولا الفيل ينمو حتى يبلغ الجبال وليس الانسان مهما طال عمره بمخلد على الدهر ٠

ولكي يفوز اللاعب بما تجمع على المائدة الخضراء من مال يجب أن يعلن قيمة مابيده من أوراق فاوراق اللعب كلها موزعة على الجميع والعالم ملك لكم ولكن مازال عليكم أن تنهضوا وأن تسعوا وأن تاخذوه فمايزال الانسان مهددا بالموت جوعا مالم يكن راغبا في أن يرفع الى فمه الملعقة ٠ وها هو ذا الخوان قد أعد لكم فاقعدوا واطعموا ٠

ان خير سني العمر لا يتمتع بها الا من يرونها على حقيقتها ويستخدمون ما يعلمون للافادة على قدر الامكان مما يملكون • وعلينا أن نعترف مع الأسف بأن الرجال والنساء الذين جاوزوا الخمسين لا يستخدمون فيالوقت الحاضر أكثر منواحد فى المائة مما يملكون، وهذا الجزء من المائة لايستخدمه بنوع خاص الا أكثرهم ثراء واقدرهم تمرسا وهم لا يجاوزون جزءا من مائة جزء من الناس • أما جموع الشعب فتتسكع فى هذا العالم المظلم الصاخب العربيد عالم الحيوان الضاحك ذى الساقين (الانسان) •

أما زلت تشك فى أن السنوات التى تلى سن الخمسين هى خير سنى حياتك ؟ لا أستطيع الا أن أقول : انك غير قادر على أن تدرك عالم الفرص الذى يحيط بك فان الافادة من هذا العالم لا تكفيها الحرارة والقوة . انها تحتاج الى كثير من الضوء أيضا .

فهل ينقصك الضوء ؟ لابد اذن أن تكون شيئا صغيرا يبلغ من العمر ثلاثين سنة أو نحوها ولكن صبرا فان الضوء قد ينبعث ، وقبل أن تبلغ الخمسين بزمن طويل سينتج الناس فى يوم العمل الذى مداه أربع ساعات سلعا أكثر واحسن مما ينتجه اليوم أى شخص فى ثمانى ساعات، وستنتهى النساء من الحمل بين سن العشرين والثلاثين وسيتعلم الأطفال أن يكدحوا لأنفسهم حوالى السادسة عشرة ، وسيستقل الوالدان بشئونهما عقب الأربعين توا ويعيشان على مواردهما وأمامهما الدنيا الفسيحة الرحبة يذهبان فيها حيث يشاءان وسيعملان في المنزل ساعة أو ساعتين فى اليوم لادارة شئونه ويأكلان المانجو المثلجة فى وجبة الافطار وضلع الغزال فى الغذاء ويتخذان فاكهة الخبز(١) بدلا من الشاى، وسيستنفد الناس مافى العالم من غذاء والشيء الوحيد الذى يعز عليهم أن يتمتعوا به هو أن يتساقط من أغصان الأشجار الى أفواههم تفاح مخبوز بالقشدة !

وسيدفع الناس ضرائب هينة للاحتفاظ بالشرطة العالمية ولن يكون فى العالم أى جيش • أما الأساطيل البحرية الحربية فلن يكون منها الا القليل للرقابة والحماية وحمل الطائرات • وأما الأرباح الناجمة عن المخترعات المدارة بالذرة المحطمة والمملوكة للحكومة فستدفع منها أكثر تكاليف الحياة • وسيكون من النادر وجود رجل يشقى أكثر من ألف

(١) فاكهة الخبز : هى ثمرة شجرة كبيرة تنبت في جزر البحر الجنوبى وحجمها كحجم البطيخة واذا شوى لبها كان مثل الخبز .

ساعة فى السنة الا فى الهوايات والمباحث العلمية التي يختارها طوعا ، وسيبلغ هـذه الدرجة من النـدورة وجود المريض المزمن أو ذى العـاهة المصاب فى حادث ما ، وسيكون من العبارات البالية أن تقول : « انى لم اضع بسبب المرض خلال السنوات الخمسين الماضية الا أربعة ايام » .

كيف أجسر على أن أقول هذا القول ؟

لأنه فى غضون السـنوات القليلة الماضية ولأول مـرة فى تاريخ البشرية استطاع الأذكياء من الناس أن يدركوا على حين فجاة مايكمن فيهم من قوى : فهم يعلمون الآن أنهم يستطيعون أن يعملوا أى شيء تقريبا الا أن يخلقوا فى خمس دقائق طفلا يبلغ من العمر أسبوعا • فلهم سيطرة كاملة على الطبيعة وهم يقتربون بسرعة من السيطرة على الطبيعة البشرية بمثل تلك القوة وبعد سنوات قليلة سيجد النساء والرجال الذين جاوزوا الخمسين ــ فى دهشة سارة ــ أنهم كجماعة حسنة التنظيم يستطيعون ادارة أى نظام تضعه الحكومة لجعل خير سنى العمر مملوءة بالخيرات ، وبين مواطنينا عدد كبير جاوزوا الخمسين • فلو أن ربع هذا العدد الضخم اتحد وأنذر الاحزاب السياسية بأن عدة ملايين من الناخبين سيؤيدون أول مرشح يعد علانية أن يعطيهم مايريدون فأى مرشح مجرب يجرؤ على أن يتجاهل هذا العرض ؟ ان أى انتخاب فى أمريكا يمكن أن يغير اتجاهه بانتقال أصوات تبلغ مليونين وقد تصل الى أربعة ملايين من مرشح الى آخر ، وهذه عدة ملايين من الأصوات وانها لكفيلة بأن تضمن انتخاب المرشح المفضل •

ليس هذا كل شيء لأن أغلب الثروة فى أيدى الناس الذين جاوزوا الخمسين فلو أنهم جمعوا جزءا ضئيلا من أموالهم للقيام بكفاح قـومى لتحقيق نظام جديد لاسـتطاعوا أن يشـقوا طريقهـم بأموالهم هـذه الى « يوتوبيا » (١) • فى وسائل نقل من طراز بولمان (٢) ولست أعلم طريقة أتحقق بها من الدخل الحقيقى لجميع من جاوزوا الخمسين ، ولكننى أعلم أنهم خلال سـنة ١٩٤٦ حصلوا على نسـبة كبيرة من ثروة هـذه البلاد • وانه ليظهر اذا ما تلفت الانسان الى من حوله من الناس أن المراكز المربحة فى

---

(١) Utopia اسم لقصة كتبها توماس مور باللغة اللاتينية ظهرت للمرة الاولى سنة ١٥١٦ وهى تدور حول جزيرة بهذا الاسم كانت حكومتها وكل شيء فيها بالغا حد الكمال :

(٢) Pullman جورج مورتيمور ولد سنة ١٨٣١ وتوفي سنة ١٨٦٧ وهـو مخترع امريكى ادخل فى عربات السكك الحديدية نظام القاعات الفسيحة الفاخرة وحجرات الطعام وغيرها من التحسينات :

محيط الأساتذة والمحامين ونظائرهم وفى الوظائف الرفيعة فى طوائف التجار والصناع يشغلها فى الغالب أناس فى هـذه السن ٠ فتصور هـذه القوة المنظمة التى تستطيع بأموالها أن تخلق دنيا تكون خير سنى العمر هى خير ما بها ٠

ولكن الثروة والنشاط السياسى لا يستطيعان أن يأتيا بهذا العصر العظيم بأسرع مما يستطيعه أكبر مفاخر جيلك : خياله ومهارته فان أكثر العجـــائب التى كنا نلمحها أخـيرا نبتت من أذهان أناس جاوزوا الآن الخمسين ، واذا أضفت من توفاهم الله منذ عشر سنوات أو عشرين سنة والذين كانوا من رفاق الكثيرين من الأحياء العاملين ظهر لك أن كل شىء حديث يكاد يكون من صنع وتفكير الجيل الذى ولد منذ سنة ١٨٦٠ وهم أقوى مجموعة من الأذهان فى كل الأزمان فهم العمالقة الذين اكتشـفوا النشاط الاشعاعى والذين اخترعوا الآلات ذات الاحتراق الداخلى وخلقوا الطائرات والغواصـــات وحسنوا أجهزة الرؤية عن بعد والآلات الناطقة وانتزعوا النيتروجين من الهواء والبرومين من البحر ، وطبخوا اللدائن واحدة اثر أخرى فى أول الأمر ثم بالعشرات فيما بعـــد ، وفكروا فى الأجهزة التى تفوق سرعتهـا سرعة الصــوت وفى الأجهزة الالكترونية وأوجدوها فى عالم المحسوسات حتى وصلوا فى نهاية الشوط الى أعظم ما حققته الايام من نجاح وهو تحطيم الذرات والقضـاء قضـاء تاما على الانسان القديم وعلى كل طرقه التى تشبه طرق القردة وعلى تقاليده القبيحة التى كان يمجدها كل التمجيد ٠

لدينا الآن سلالة تستطيع أن تجنى أكبر فائدة من خير سنى العمر وهؤلاء الناس لن يجلسوا مكتوفى الأيدى يتطلعون الى الشفق الأرجوانى وينتظرون خاتمة الأبحاث ٠ فاترك هذا المسلك الهزيل لرجال ما قبل الذرة فان الحياة بعد الخمسين ستكون خير حياة وجدت على الأرض والا كان على هؤلاء الناس الوزر ٠

وهم حينما يطلبون المساعدة تلبى النداء وستحصل على نتائج لأنك أسمى من رجل الشارع بالامس سمو هؤلاء الجبابرة على الجبابرة الأسبقين٠ حقا اننا دخلنا فى عصر الرجل الفذ وان لدينا ملايين من الناس يرتفعون عن الرجل العادى بالأمس ارتفاعه عن القرد ٠

واليوم نرى رجل الستين العادى أنضر عودا من جد أبيه عندما كان فى سن الأربعين وأن رجل الأربعين فى جملته أشد قوة من فتى العشرين اليوم لا لأنه يملك القـوة البهيمية فهو لا يمكنه أبدا أن يصارع الفتى

النامي الجسم في الجرى أو القفز أو المصارعة ، الا أن أحسن ملاكم في سن العشرين لا يمكن أن يصارع غوريلا صغيرة السن (وقد استعرنا هذا التعبير من مستر أرثر برسبين(١) الذى اعتاد أن يستعمله في الأيام المطيرة التي لا يجد فيها شيئا يكتبه خيرا من هذا) ٠

وحينما يجمع التاريخ الكامل للحرب العالمية الثانية سنجد أن كل من اشترك فيها يعرف الآن أن جميع الأعمال الثقيلة المملة قام بها الأحداث وان جميع الأعمال الفكرية الفاصلة وادارة الحرب ادارة فنية جريئة صدرت عن أناس أقرب ما يكونون الى السبعين منهم الى العشرين ، وأن كثيرا من أعمال العبقرية الثائرة والمخابرات والاستعلامات كان يصدر عن رجال جاوزوا السبعين بقليل ، وسيتضح أيضا كما اتضح في الحرب العالمية الأولى أن المحاربين الكبار السن أثبتوا أنهم خير من الشبان في ساعات اليأس فالمحاربون الذين اشتعلت رءوسهم شيبا كانوا يصدون الفزع وكانوا للشبان المفزوعين مركز التجمع واسترداد الثقة ٠ وأثبت متوسطو الأعمار مرة أخرى كل مايعرفه علماء النفس من أن الحكم على الأشياء في برود وثبات ونضج له قوة هائلة في استقرار الأمور اذا ما بدأت تسير من سيىء الى أسوأ ٠

ولما كانت الآلات والأساليب تبسط الأعمال فان المتقدمين في السن من الرجال والنساء يستطيعون الاضطلاع بأعمال تستغرق كل الوقت زمنا أطول مما كانوا يستطيعونه من قبل ولهذا السبب نفسه يجدون العمل المألوف الذى يستغرق نصف الوقت أمرا سهلا ولهذا يجدون من المناسب أن ينتقلوا من العمل كل الوقت الى العمل نصف الوقت ، وفيما بعد قد ينتقلون الى عمل يتطلب مجهودا عضليا أقل ، ولكنه يتطلب في الوقت نفسه زيادة في التقدير والتبعة ٠

وعلى أية حال فهم يتمتعون بالحياة كلها على نحو لم يدركه أى من أسلافهم وهم يقدمون للعالم خيرا لأنهم يعملون بعدة أفضل وبعلم أغزر ، وهم بهذا يدخلون خير سنى العمر بروح منتعش لا كحطام يضعه – بعد قليل – الجيل الناشيء فوق رف مترب في ركن مهجور من أركان المنزل.

تبعث هذه الثورة الارتباك في نفوس كثير من الناس الذين كانوا يعتزمون أن يعتزلوا أعمالهم منذ ثلاثين سنة أو تزيد ويجب الآن فحص هذا الموقف الخاطيء نحو اعتزال العمل فحصا دقيقا ٠

---

(١) Arthur Brisbane محرر باب الحوادث في بعض صحف الاخبار التى يملكها وليام راندولف هيرست (المولود سنة ١٨٦٣) وهو من اشهر الصحفيين الامريكيين ومن بين الصحف التى يملكها صحيفة نيويورك امريكان New York American

- ٥ -

« ماذا تقول ؟ أأعتزل العمل ؟ كلا !

قال الصديق وهو يهز يد الرجل الكبير : « أبلغت الخامسة والستين حقا ؟ ومتى تعتزم أن تعتزل العمل » ؟ ٠

فينتفض الرجل الكبير ويحملق في الصديق ويقول :

« ماذا تقول ؟ أأعتزل العمل ؟ أعتزله ؟ أنا ؟ انى لم أكن فى يوم من الأيام أصح منى الآن ! كلا ! انى أحب عملى واحب العمال وأحب بيتى وفى الواقع أحب كل شيء كما هو الآن فلماذا أعتزل العمل ؟ انى أصلح للعمل مائة سنة أخرى ٠ تفضل خذ سيجارا » ٠

يسمع الصديق ضحكة عالية ونقاشا غاضبا وقرعا عنيفا على المكتب ولا يقول ان زميله أكثر من الاحتجاج ، ولكنه يظن ذلك ، ولهذا لا يهتم عندما يسترعى الرجل الكبير نظره الى كأس فضية فاز بها أخيرا فى مباراة « الجولف » ٠

ما الذى يدور خلف هذا الزهو الصاخب ؟ ٠

ما الذى يخيف المهرة من اعتزال العمل والتمتع بخير سنى عمرهم ؟ ٠

هو المثل السيىء ٠ واعتقد أنك رأيته مئات المرات ولقد شاهدته أنا بنفسى الف مرة ومن بين عشرين نوعا مختلفا منه تبرز أربعة أنواع تستوى كثرة ذيوعها مع شدة قبحها ٠

فالنوع الأول : هو الخادم الطيب الأمين التابع لشركة الفول الغازى ، فهو بعد قضائه سبعا وأربعين سنة فى العمل يتشقق فجأة ثم يجمع شقافة جسمه بالمكنسة ويضعها في صندوق القمامة ٠

والنوع الثانى : هو الخادم الطيب الأمين (التابع لشركة عربات الخيل ليمتد) فهو على الرغم من الثلاث والخمسين سنة التى قضاها فى الكدح لم يستطع أن يدخر ما يكفيه لليوم المطر وينتهى به المطاف الى أن يبقى فى رذاذ مستمر وبغير معطف ولا واق من الأوحال كأنه لاجىء مهذب غارق فى تفكيره ٠

والنوع الثالث : هو ذو الذهن اللامع النجاح فى ناحية واحدة

(نائب رئيس شركة أحسن مروخ (١) لحب الشباب) الذى يعرف أكثر من أى شخص آخر على وجه الأرض عن الرءوس السوداء (٢) ومع ذلك يعتزل العمل بمعاش سمين • حقيرا كرأس الدبوس لا أمل فيـه ولا يهتم بأمر من أمور الدنيا الا بالرءوس السوداء •

والنوع الرابع : هو الأنانى الناجح الذى وصل الى السلطة والثروة بالمهارة العظيمة فى التعالى على الكتبة وفى التزلف للرؤساء • وفى نهاية حياته العملية يلجأ الى عالم لا يستطيع فيه أن يتزلف الى أحد لأنه لا شىء ثم ان غضبه الكامن فى نفسه على هبـوط منزلته يذبل أزهار حديقة روحه •

والآن أقول : ان هذه الأنواع الأربعة هى النتـاج الخاص لمدنية هذا العصر وان الحاجة الى هذه الأنواع ليست أكثر من الحاجة الى أخمص سادس ، وان الاهمال المحض ساهم فى انتاجها أكثر من أى عامل آخر وان اعتزال العمل يجب ألا يلوث بأى من مساويها •

فالنوع الأول يتفتت نتيجة للاهمال الذاتى فى تسـع حالات من عشر فهو يسرف فى العمـل أو فى الغذاء أو فى الشراب أو فى حمـل الهموم غير معنى بالقلب أو الرئتين أو الرأس أو القدمين أو الطحال •

والنوع الثـانى ينتهى بالعـدم والاملاق لا لشىء الا لأنه لم يتعـلم بتاتا أبسط قواعد الادخار أو لم يمارس بعضها على الأقل وان العامل الوضـيع ليستطيع ، اذا كان لديه حسن التقـدير ، أن يدخر لخير سنى العمر •

والنوع الثالث قد سمح لعمله أن يحصره فى دائرة ضـيقة من التخصص التافه الذى لا خطر له مطلقا فى هذه الدنيا الواسعة التى يعتزل اليها وقد أتى به تعليمه السيىء فى فجر حياته الى هذه الحالة المحزنة •

ان المنـاطق الزراعية عنـدنا أنتجت عشرات الآلاف من الرجال والنساء أغلبهم من النوع الثـالث ، ولـكنهم ينقسمون الى أقسام ريفية ، وسأذكر حالة رجل طالبنى بألا أذكر اسمه ولست ألومه على التخفى خلف هذا الستار السميك من التنكر •

هـذا المحامى الريفى الـذى يبلغ الآن الخامسـة والسـبعين قد قضى

(١) مرخ جسده دهنه بالمروخ وهو ما يمرخ به البدن من دهن وغيره •
(٢) حب الشباب •

كل أيامه في أودية يوركشير ومرابعها وحضر في عشرات القرى منازعات ريفية من كل نوع ولكنه احتفظ بروحه المعنوية فياله من رجل !

وانى مورد كلامه بنصه وفصه :

في هذه البلاد تضمر عقول الرجال المسنين الذين اعتزلوا العمل أو تتحلل بأسرع منها عند الذين يستمرون في عملهم النشيط ٠ وعندما يجد الزارعون النشيطون ذوو السعة أن أولادهم جميعا رحلوا عنهم وأن عليهم أن يعتمدوا على عمال يستأجرونهم يشعرون بالضيق فيؤجرون المزرعة أو يبيعونها ويلجئون الى المدينة حيث يصبحون مصدر متاعب كبيرة أو صغيرة وهم يتناقشون في الشئون الخاصة بالمجارى والانارة واستهلاك الغاز وهلم جرا . وهم يطالبون بتخفيض ضرائب المدن، وهم في سن الخامسة والستين قد فقدوا الاهتمام بادارة المجالس البلدية أو مواجهة ما طرأ اليوم من تغيير على ظروف الحياة .

وفي المدن الكبرى نرى أن كثيرا من هؤلاء الفلاحين الذين اعتزلوا الأعمال لا يلبثون بعد نحو ستة أشهر أن يتضايقوا من حياة المدن وهم لا يجدون من يمد اليهم يد العطف فيسرفون في الأكل ويضطرون الى استشارة الطبيب ولا يبالون بنصيحته ويظلون يأكلون الطعام كما تأكل الرحا وعادة يقضي عليهم بعد خمس سنوات أو سبع وقد يبحث بعضهم عن وظيفة حارس منزل ٠

ان هؤلاء الفلاحين قد أبيدوا جميعا وهم يتصفحون الصحف اليومية فلا يجدون بها أنباء عمن يعرفون من أناس أو شئون ولم يدربوا من قبل على التفكير في شئون البلاد ففي الأيام الخوالي التي قضوها بالريف كان أهل القرى يتطلعون اليهم ويحترمون آراءهم ٠ أما في المدن فلا يحتاج أحد الى أن يسمع رأيهم في أي أمر وسرعان ما تستحوذ على مشاعرهم الضرائب العالية وتكاليف الحياة ٠

وكثيرا ما ذهبت اليهم في ضياعهم وناقشتهم في شئون الفلاحة والمخصبات والمواشي وضرائب الأراضي وتآكل الأرض وأمور كثيرة أخرى فكانوا في هذه الموضوعات يتكلمون عن معرفة وخبرة ٠ فلما ذهبت اليهم ثانية في دورهم بالمدن حيث يستضيئون بالكهربا لم يحروا جوابا عن أسئلتى التي وجهتها اليهم عن شئون الوطن الأكبر ٠ وكثير منهم لا يجد ما يعمله الا الجلوس والتفكير في ممتلكاته التي سيخلفها لأولاده وأصدقائه من بعده ٠

ان قلة النشاط والعمل تؤدى الى فقدان المواهب والكفاية ولكنها يجب ألا تؤدى الى الانحلال والهلاك ٠

وهؤلاء التعسون كثيرا ما يكونون أمشاجا من النوعين الثانى والثالث وهم لضعف تربيتهم قضوا حياتهم يتحايلون على زرع القمح وتنمية البطاطس وتربية الخنازير لأنهم لم تغمرهم الغفلة بل تعلموا الكثير عن القمح والبطاطس والخنازير وكل ما فى الأمر أنهم أناس محدودو التفكير لا يتجاوز تفكيرهم أثر المحراث فى الأرض لأن معيشة العزلة التى عاشوها فى مزارع سحيقة ضيقت من آفاق تفكيرهم تضييقا خطيرا ، ولذا اذا ما توقفوا عن العمل فى زمن معين فكل ما يعملونه هو انتظار الموت فعلينا أن نرسم الخطط لنمنع هذا المصير ٠

أما النوع الرابع : فهو يختلف اختلافا كبيرا عن ثلاثة الأنواع الأخرى ، انه انسان فيه بذور الاختلال العقلى ، بذور حب العظمة وربما لا تنبت هذه البذور هتلر صغيرا أخضر العود ولكنها مع ذلك لا تزال سامة قاتلة ٠ والى شركاء هذا الرجل فى العمل يرجع جزء من اللوم على ما اكتسب من وسائل التحكم والتسلط وعلى اعتزازه بنفسه ولو كان نظام المجتمع خيرا مما كان لعرف هذا الرجل قدره ولزم مكانه ٠

والآن نجد هذه الأنواع الأربعة سابقة على الثورة وقد ازدهرت أو ذبلت ـ اذا فضلت هذه اللفظة ـ فى الأيام التى سبقت عصر الذرة وظروف الحياة والعمل والتربية قبل سنة ١٩٤٦ هى التى خلقتها ولذا سيكون بين أيدينا عشرات الألوف من الرجال (وقليل من النساء) فى سنواتهم الأخيرة يبثون الذعر فى نفوس المراقبين الصغار ٠ ما أقسى المصير ! والسقوط الى هذا الدرك خير منه الموت ٠ واذا كان اعتزال العمل يزج بنا الى هذا المأزق فلنتجنب اذن اعتزال العمل ٠ وهكذا تتسلسل الافكار ٠

وفى الحق أيضا أن أيام ما قبل الذرة أفرخت جماعة كريهة من عجائز وشيوخ فقدوا عقولهم وراحوا يئنون ويتمتمون ويرتعشون ويجأرون بالشكوى وأنت ترى المتخلفين من رجالنا لا يزالون يختلفون الى الميادين والحدائق وكثير منهم فوق كراسى ذات عجل وما من رجل له مسكة من العقل يود أن تنتهى حياته بمثل هذه النهاية ٠

فالى الرجل الكبير الذى يتبجح بأنه لن يعتزل العمل فى خلال مائة السنة القادمة الى هذا الرجل نوجه القول :

« أنت فتى عفى عليك الزمن يا هرولد • وما برحت تعيش فى الأيام العزيزة الغـابرة فى عهد ملكتنـا الطيبة فكتوريا • أدرك الزمن وسير عربتك بالذرة . أنت تظن أنه من الآن فصاعدا سـيعود الزمن سيرته : أى أن الرجل اذا اعتزل العمل كان عليه أن يقف بلا حراك فلا يعمل شيئا على الاطلاق ويفقد كل قواه وسيطرته ويتجاهله الشبان • أنت تظن انه يجب أن تعتزل العمل لتأنس بذكرياتك . أنت تظن أن حياتك تتوقف • هذا هراء فان فى اسـتطاعتك أن تكثر من العمـل أو تقلل منه كما تشاء ، وتستطيع أن تعمل ما تحب أيضا • تستطيع أن تعود الى نفسك أكثر مما استطعت فى أى وقت منذ حداثة العمر » •

وهذا هو الحق الصراح ولكن هرولد لم يكن قد تعلمه من قبل فهو كأغلب رجال الأعمال النشيطين يتخلف عن العالم بجيل ، ولكنه فتى المعى يستطيع أن يدرك ما فاته • أتيح له الفرصة ، وعندما يرى الضياء يصيح ويمسك بقبعته وينصرف جاريا ويتوارى فى غمرة سرعته بما يثيره من غبار •

فى قدرة الناس الآن أن يعملوا بالمادة كل شىء فقد أرسلوا اشارات الى القمر وقاسوا ارتفاعات جباله وغمسوا بوساطة الرادار مقياس حرارة فى جوف الشمس وقرءوا درجة حرارتها وعينوا مواقع كواكب غير مرئية على بعد آلاف من الأميال وهى تسبح فى الفضاء المظلم وحولوا الصلب بوساطة القنابل الى غاز وخلقوا بذلك درجات من الحرارة لا يمكن تصورها غير ان كل هذا ليس الا مجرد لعب حول اطراف البحار المجهولة ، ونحن نسير فى أول الطريق متجهين نحو اليوم الذى يصنع فيه الناس كل شىء فى يسر بثمن بخس حتى يستطيع أفقر متسول أن يشتريه ، وفى ذلك اليوم يستطيع العامل بما يتكسب من أجر أن يحصـل على ما يريد ، ولن يكون ما يدفع شيئا مذكورا ، وسيستطيع رجل واحد أن يعمـل ما يكفى ألفا غيره •

وحينئذ لن يعنى المـال شـيئا أكثر من صرير الجرذان وأما من يعرضون ثرواتهم للمباهاة فلن يكونوا الا اضحوكة للناس ، وسيكون أكثر منهم عرضة للسخرية أولئك الذين يندبون حظهم من الفقر وسيكون معنا فقراء ولكنهم لن يكونوا الا الأغرار البله لأن حبة من حسن التصرف تنتج جبلا من الثروة • ثم يبدأ العصر الذى لا يستغرق فيه العمـل الا بعض الوقت القصـير •

نتطاحن اليوم على أسبوع العمل الذى يتألف من أربعين سـاعة

وعلى الأسبوع ذى خمسة الأيام . وأما فى الغد فسنتطاحن على الأسبوع ذى الثلاثين ساعة وعلى اليوم ذى أربع الساعات وعلى أثر التقدم فى تحطيم الذرة سنتطاحن على الاسـبوع ذى العشرين سـاعة واليوم ذى ثلاث الساعات ، وتساير هذه المعركة معارك حرب العصابات والقناصة فى غاراتهم على ما استتب من النظم العتيقة وستدور احدى المعارك على سن التقاعد وطريقته .

وسينقرض النوع الأول من أمثلتنا غير السارة كما انقرض أمثاله وسيجتنب الاجهاد والهم بمجرد الاستغناء عن جميع الأعمال الشاقة وعن التفكير فى الثروة والمصـير . ففى أيامنا الحاضرة ينتج الزارع الواحد كل ما يحتاج اليه عشرون آكلا وبعد سنوات سينتج ما يكفى مائة آكل ، ثم ماذا بعد ذلك ؟ لماذا نزيد زراعة الاغذية فلنقعد عند مدخل الباب الخلفى ولنلعب الشطرنج فكل انسان سيحصل على ما يريد من طعام من زارعى العصر الذرى الذين سيقل عددهم عن مليونين وربما قلوا الى نصف مليون (ولا تظن أن هذا لن يتم قبل ألف سنة لا بل فى خلال حياة الأطفال الذين يصرخون الآن ويطلبون زجاجات الرضاعة) وفى خلال الحرب ضاعف أحد صناع الصلب دون أجهزة تدار بالنشاط الذرى مقدار ما ينتجه ، فاذا استخدم الذرة فقد يستطيع أن يضاعفه مرة أخرى فى السنوات القليلة القادمة ثم يضاعفه بعد ذلك مرة ثانية فثالثة، وقبل زمن طويل سيصبح كل ثلاثة من بين كل أربعة من صناع الصلب وليس لديهم ما يصنعون لأن الرجل الرابع سيمد المشترين جميعهم بما كانوا يشترونه من الاربعة . ثم ماذا بعد ذلك ؟ .

ان الشىء الواضح الذى يهون صدمة التعطل الفجائى هو التبكير فى الاقلال التدريجى من العمل والتبكير فى اعتزاله ، ويبدو اليوم هذا الرأى للرجعيين كأنه فكرة غـير مقبولة ، ولكنهم سيتقبلونه غدا على كراهية كما تقبلوا جدول الضرب . ونحن اليوم نظن أن سن الخامسة والستين هى خير سن لاعتزال العمل ،وفى الغد سننظر الى الستين هذه النظرة وبعد زمن أطول سـنطالب كل انسـان أن يعتزل العمل وأن يستمتع بالحياة فى سن الخامسة والخمسين ثم نواصل سيرنا لنجعل سن الاعتزال فى الخمسـين وهذا أمر محقق تمـاما لأن جميع ما يبذل فى صناعة السلع وفى تقديم الخدمات العامة سيضطلع به قريبا نصف القوة العاملة فى الوقت الحاضر ان لم يكن ربعها .

فأى اسكاف يود أن يصنع أحذية اذا كان مصيرها الالقاء بها من النافذة لأنه لا يوجد من يرغب فى شرائها ؟ ومن ذا الذى يعنيه أن يصنع

سيارات لا يوجد من يقودها لأن السيارات القديمة ما زالت صالحة كأنها حديدة ؟ ومن ذا الذي يعمل معاطف من أجود أنواع الصوف ويلقى بها فى سلال المهملات لأن كل انسان لديه من الملابس كل ما يحتاج اليه في مدى السنوات العشر القادمة ؟ .

سيصبح العمل في مرحلة معينة نوعا من الحمق ولا يشقى الناس طويلا على غير طائل .

سيختفى النوع الثانى من الأمثلة السيئة بمجرد أن يزول الفقر ، وسيأتى وشيكا الوقت الذى لا يبقى فيه الا ذوو العقول المريضة لتعنى بهم الدولة .

أما النوع الثالث فسينقرض بتحسين طرق الصناعة ونظم التعليم فالعقل ذو الناحية الواحدة يشـــغل الآن بال بعض التربويين وهم يدرسون ما به من خطر . وبعد وقت قصير لن نرى هذا البائس الذى يكاد يعرف كل شيء عن لا شيء ، وسيخرج تلاميذ المدارس الى الحياة مزودين بخبرة فى عشرات النواحى .

والنوع الرابع سيكون آخر من يختفى لأنه أشدهم استتارا وأصلبهم انقيادا ولاســـيما فى المجتمعات الديموقراطية فالرجال الذين يصابون بجنون السلطة سيصبحون فى العصر الذرى أول من يثير قلقنا . وقد ينسفنا جميعا أحدهم نحن والارض بل والقمر ، ولحسن الحظ ندرك الخطر الذى يحيق بنا وسنواصل تحررنا حتى لا يظهر هتلر آخر لأنه أن ظهر فسيظهر فى هـذه المرة مسلحا بقنبلة ذرية ذات آثار يأخذ بعضها برقاب بعض حتى لتنسف المحيطات .

والرجل الكبير الذى يصر على الجلوس الى مكتبه وعلى ادارة عمله فى السنوات المـــائة التالية سرعان ما يؤخذ ويشـد فوق كتفيه قميص المجاذيب المهتاجين حتى يصحو من غفلته وينصت الى أنشودة الذرة فهل تذكرون هذه المكتشفات والمخترعات الجديدة التى تبلغ خمسة آلاف عدا والتى نبتت من الأبحاث الذرية وأعدت للاستعمال فى زمن السلم ؟ انها ستذهل هذا الأنانى العظيم . انه عبد عاداته مثله فى ذلك مثلك ومثلى ولقد اقتنى ثروته من خبرته فى تجارة الجلود بحسن تخير الجلود والآلات والأساليب ولكن كل مايعلمه يصبح فجأة عديم القيمة فاحدى اللدائن تحل محل الجلد والنيـلون يزيح الـكتان والقطن من الطريق ولا تسـعف طرق تشغيل الجلد القديمة وتتبدل حال الأسواق . ما هذا الذى نسمعه عن

شخص في أثيوبيا يصب مادة في قالب ثم يستخرج منه بعد ثلاث دقائق حذاء لطيفا ؟ اخسأ لست أصدق ماتقول : وما الذى تبغيه ياسيدى ؟ هل أنت ممن يخفون أموال المفلسين بالتدليس ؟ النجدة يارجال البوليس ٠

وما يحصل فى الجلود يحصل مثله فى المنسوجات وفى الأدوات الأليومينية والثلاجات الكهربية ومعاجين الأسنان والفرغرات وكرات السلة وكعكات السمك والمثلجات والقشدة الباردة والفازلين ولقيمات ساندوتش ، فكل الجهاز الاقتصادى يدور ويدور ونحن اليوم فى غمار ذهول مما سيقع فى غضون مائة السنة القادمة .

فلكل اناني يصيح بملء فيه : هأنذا ، ننشر فى هذا الكتاب نصيحتنا له بالتعجيل بالخروج طالما كان الخروج مستحبا وهو اليوم لم يتخلف عن الزمن الا سنة أو اثنتين وفى الغد سيكون تخلفه بمقدار خمس سنوات وبعد الغد سيتخلف بمقدار عشر سنوات وحين ذاك سيحملق فى تقرير المهندس ولا يفهم مما فيه الا جملة من كل عشر جمل ، والجملة التى يدركها ستكون ان الشركة كان يمكن أن تجنى قليلا من الربح هذا العام لولا التحلل المؤسف الذى أصاب الأجهزة العليا من رأس مديرنا ٠

اخرج فالخروج الآن مازال مستحبا .

هل يعارض فى الخروج ؟ هل يقبض بيديه على حافة مكتبه ويصرخ فى وجوهنا ؟ حسنا يا أولادى ٠ سلموه الأعمال ، نحن لا نود الاضرار به . انه شاب ظريف من بعض نواحيه ولكنا الآن لابد أن نصدمه بالحقيقة التى تؤلم .

أبلغ الشخص العنيد أن الناس الذين ليس لهم مايعيشون من أجله يتشبثون بالحياة فى عناد ويتشبثون بأعمالهم القديمة وانت تعلم أن « بن فرانكلين » اعتزل العمل فى سن الثانية والأربعين لكى يعيش كما يشتهى ٠ وما أسعد هذه الحياة التى عاشها وهو لم يقبض على طرف مكتبه بيديه ويصيح بأن جميع الطباعين والناشرين لا يستغنون عن خدمته . كلا ان لديه ما هو خير من ذلك ، هو نشر مواهبه الكامنة . هو انقاذ عالم جديد من بين مظالم العالم القديم وسخافاته .

اذا كان بن فرانكلين قد استطاع أن يعتزل العمل وهو مسرور فى سن الثانية والأربعين ، فلاشك انه ينبغى لك أن تعمل مثله وانت فى حوالى

الستين أتقول : لا ؟ اذن انك تنشر ببساطة على كل العالم تفاهتك المروعة ٠ وفى مكتبك وأنت تسيطر على من حولك من الموظفين تتقلد المركز الرئيسى وفى نادى موظفى ادارتك أنت شيء لا بأس به وفى أسرتك أنت المتعهـد الأكبر أيها الوالد ولكن حينما تعتـــزل العمل وتنصرف فريدا فأنت تتلاشى لأنك اليوم لا شيء . وكل مايظهر أنك اقتنيته هو هذا النسيج السخيف من الحياة الذى تسميه عملك ، ولكى تضفى على نفسـك اهمية تصر على أن العمل مهم ٠

أيتها الممرضة نحيه عنا ٠

- ٦ -
وطن نفسك على اعتزال العمل

ابدأ يوم عيد ميلادك السادس بأن تغرس في نفسك حب التقاعد وحافظ عليه مدة خمسين سنة وحينئذ يصعب عليك أن تلحظ أثر الانسحاب من العمل والتقاعد بعد الستين ٠

خصص لنفسك جزءا من الزمن واخل بها قليلا واقض ساعة كل يوم بعيدا عن والديك ورفاق الصبا وتعلم أن ترتب مهادك واطه غذاءك ونظف حجرتك واصقل حذاءك ودبر أمرك بصفة عامة٠ وفوق كل شيء فكر لنفسك وتراخ ومارس الهدوء وتجنب أن يكيد لك المتعجرفون أو يضايقك المتظاهرون والدساسون ٠ واستغن عن الناس ما استطعت وعندئذ تمتع بخير سني حياتك حتى الثمالة ٠

ومع الأسف ان قراء هذا الكتاب ممن هم في سن السادسة قليلون ولكن دعنا نستخلص من الأمر خير ما فيه فان كنت في الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين فكيف تغرس في نفسك الميل الى اعتزال العمل ؟ ٠

ان الميل الى اعتزال العمل يشبه من احدى نواحيه العظمة: فبعض الناس يولد بها وبعضهم يصطنعها وبعضهم تطرح عليه : فالمولودون بها هم اسعد الناس حظا وأمامهم فرصة طيبة في أن يحيوا مائة عام وأن يستعملون مجموعة ثالثة من أسنان صناعية بيضاء سليمة ولديهم نشاط غريزى ضخم ومواهب قوية أخذت تبرز منذ الطفولة وهم يتجهون في لهفة الى أعمال لا ترهق عقولهم ولا أجسامهم ، وعملهم يأخذ عليهم كل تفكيرهم ويستطيعون أن يقولوا بحق « ان عملنا اليومى هو عملنا طوال الحياة» ولم تنفتح بينهم ثغرة تفرق بين العمل الذى يعملونه وبين هوايتهم ، فليس مايبعث فيهم اللهفة على انفسهم ، واغلب الظن انهم تنقصهم الدوافع التى تدفع الآخرين الى حيث تسلط عليهم الأضواء وتزج بهم الى ميادين النزال ومجالى الفروسية وعروش الملك ، ولذلك فهم لا يحرقون انفسهم بنار الشهرة الكاذبة بل يواصلون سيرهم وادعين مرحين لعدة سنوات بعد أن يتحول مشاهير معاصريهم الى تماثيل مرمرية ٠ وأما الذين يصطنعون الميل الى اعتزال العمل فيستحقون الأنواط والذكر الحسن ٠

أما الذين تطرح عليهم هذه الفضيلة فيستحقون أن يكونوا موضع دراسة عميقة ٠

والمعمرون يولدون معمرين ولا يصنعون معمرين (أو على الأقل أنهم لا يصنعون قبل أن يتم الروسيون صنع المصل المطيل للحياة) ونحن لا نتعلم منهم الا القليل ولذا نغفلهم بين وقت وآخر ، أما الفريقان الآخران من معتزلى العمل فجديرون منا بكل وقت يمكننا أن نخصصه لدراستهم . ولنبدا بالطراز الثالث أولا حتى لا يبقى على مناضد التحليل الا أولئك الذين يصطنعون فضيلة اعتزال العمل .

والناس الذين أصيبوا اصابة خطرة من حادث أو مرض غالبا ما يضطرون الى اعتزال العمل عدة أشهر أو عدة سنوات ، وخلال هذا الوقت يتعلم أقدرهم كيف يبتعد عن العمل وأن يفيد من الراحة المفروضة عليه مع بذل مجهود ضئيل ، وفى استطاعتى أن أذكر هنا حالة عشرة أو أكثر من الأصدقاء أصيبوا فى مستهل حياتهم بذات الرئة ، واضطروا أن يلزموا الفراش بلا حراك تحت الشمس فترات تختلف بين سنتين وعشر سنوات وبرئوا من مرضهم تماما وعادوا الى عملهم وهم يحملون معهم الميل الجديد لاعتزال العمل لأنهم تعلموا أسلوبا جديدا من الحياة واستمراوه .

وليس يجدى سرد حكاياتهم لانك لا تفيد منها الا اذا اضطررت الى ترك العمل واذا كنت اضطررت الى ذلك فأنت تعلم عن الاعتزال أكثر مما أستطيع أن أخبرك به . وهانحن قد أخلينا المناضد وعلى ذلك نستطيع الآن أن نناقش حالة الأشخاص الذين اصطنعوا الميل الى اعتزال العمل .

ولنبدأ بأكثر الاصناف شيوعا وهو الصنف المؤلف من الذكور كله وسأفرض أنك من هذا الصنف وربما لا تكون مائة فى مائة من بعض النواحى ولكن قد تكونه من حيث الشكل على الأقل فما هو هذا الشكل ؟

عندما كنت شابا حدثا استسغت بعض وجوه النشاط الصبيانية واعتقدت أن العمل هو أكبر الفضائل حتى اذا انتخبت لنفسك نوعا منه حسبت أن عليك واجبا يقتضيك القيام بأعمال كبيرة فى ميادين النشاط وكلما تقدمت فى سيرك قابلتك منافسات أشد مرارة وأكثر خبثا ولكنك لم تضعف وأدخلت على نفسك الطمأنينة بما تاولته من أن المنافسة حافز قوى ، واذا وجدت هذا الهراء سخيفا قلت ان فى المنافسة يعود الربح للاصلح .

والآن عليك ان تقنع نفسك بأن الحافز الذى حفزك كان حافزا طيبا والا كنت حقيقة الرجل الأصلح لأنك نجحت، وهكذا حدثت نفسك مرة

اخرى أن مكافحة الخصوم فى بيع بعض السلع عمل شريف ويستحق المكافحة ، لانها هى السبيل الوحيد للمحافظة على العمل الحر وهذا العمل الحر كما يعرف كل انسان هو الآساس الثابت لكل الرجال الاحرار – هذا هو حديث نفسك .

عد الى البداية مرة أخرى : حينما كنت شبابا تعلمت فى مقتبل الحياة ما للقوة من مذاق قاتل وكلما زاد ما تكسبه منها زاد ظمؤك الى الاستزادة منها وفى هذا الوقت لم تدرك ان شهوة القوة اسوأ شيء فى طبيعة الانسان فهى تدفع الشبان الى أن يقودوا بسرعة فى شوارع المدن السيارات التى تبلغ قوتها مائة حصان، وهى تحمل (قيصر) على أن يدعى الألوهية ، وهتلر على أن يخرب أوربا جمعاء ، وتحمل أيضا كثيرا من رجال الأعمال على أن يواصلوا العمل ليقتنوا المليون الثانى من الثروة بعد أن يكونوا قد تعاهدوا – وما أسوأ عهود الشبان – على أن يتركوا العمل حينما يجمعون مائة الألف الاولى ، ثم انها هى التى تدفع نفس هذا الرجل المجنون بحب القوة الى أن يكافح فى سبيل الحصول على المليون الثالث فالرابع وهلم جرا الى أن يحين فتح وصيته فيجد الورثة أنهم اقتنوا كل هذه الأموال التى يسمع صريرها فى جيوبهم ولكن الرجل العظيم ، العظيم حقا – أين هو ؟ نعم أين هو ؟ والى أين تولت قوته ؟

والآن فان هذا الجهاد العنيف الذى يستنفد نشاط الانسان ليشبع رغبته بالقوة وان استمرار هذه الحالة سنة بعد سنة سرعان ما يكسب الانسان عادات هى عادات العمل ، عادات الترؤس على العمال ، عادات العجرفة ، عادات التحايل ، عادات النزول الى المكتب قبل أى انسان بساعة والبقاء به بعد الميعاد ساعة كلما دعت الحال ، عادات التبلغ ببعض لقيمات ساندوتش على حين تكون سماعة التليفون ملصقة بالاذن وأنت تدون بعض الأسعار عادات ، وعادات ، وعادات ، وهى تحيل فى النهاية الحياة الغضة الى حياة مستعارة ، فالتربية تهزم الطبيعة بنسبة عشرة الى واحد ورجل الأعمال الناجح يستولى نظام العمل على تسعين فى المائة من نفسه ولا يترك له منها الا عشرة فى المائة .

حينما تسمع رجلا يقول : « انى لن أعتزل العمل فى الشهر القادم حقا انى سأبلغ فيه الخامسة والستين ولكن الشركة فى حاجة الى لأنى الرجل الوحيد الذى يفهم المشاكل الصعبة التى تظهر فى كل يوم ، وأنا الرجل الوحيد الذى يعرف الملفات أيضا » اذن أعرف أنك تستمع الى مدير من أسوأ المديرين .

واحسن دلالة على المدير المتين هى السهولة التى يستطيع أن يختفى بها فى أى وقت دون أن يلحظ اختفاءه أحد ، ودون أن يحدث أى اضطراب فى العمل . والدلالة السوداء على المدير السيء هى أن ترتبك الادارة كلها كلما فاته قطار الصباح فهو لا غناء عنه وهو ولهذا يحسن الظن بنفسه مع أنه فى الواقع ليس الا كتلة من الوحل .

واذا وجدت بين موظفيك رجلا لا يستغنى عنه فافصله على الفور ، وعامل نفسك هذه المعاملة عينها ودرب الآخرين على أن يعرفوا كل ماتعرفه وأن يعملوا كل ماتستطيع عمله وفى هذه الحالة يسير العمل على أساليب تعاونية بين الجميع .

لست أحمل على رجال الأعمال ولكنى أتخذ منهم أمثلة سهلة وما قلته عنهم أقوله عن الأمهات ، فالأم التى تقول ان أطفالها لا يستغنون عنها أم غير صالحة أساءت تنشئة أطفالها . ويجب أن يستدعى لها رجل البوليس أو طبيب الامراض العقلية ، والاب الذى يخبرك أن عليه أن يواصل العمل لان أسرته محتاجة الى مايأتى به من دخل رجل سيء الادارة مالم يكن منكود الطالع منذ زمن طويل ولو أنه كان يعرف واجبه لبدأ بتدريب زوجه وولده منذ اللحظة الأولى على أن يشقوا طريقهم فى الحياة بدونه ، والمدرس الذى يظن أن مدرسته لا يمكن أن تسير بدونه أكبر غفلة من الآخرين ، وهكذا الحال فى جميع الوجبات البشرية بل ان المرضعات يجب عليهن أن يعودن الاطفال الاستغناء عنهن فى وقت مبكر .

تعلم ما يأتى : ان جميع العادات اذا ما استقرت مرة حاولت أن تبرر وجودها وأن يتقبلها العقل حتى لو كانت تحتل مناطق للعقل عليها سلطان مشروع . وتصبح كل عادة فيها صاحبة السلطان الأعلى على حسب قوة حجتها فتدعى لنفسها حقوقا ثابتة لا تتغير وتدعى أنها فوق كل شيء وأن الانسان خلق لها ولم تخلق هى له .

وتضطر العادة العقل أن يقول لكل عادة معادية حلت فعلا أو اقترح حلولها فقط « هذا محال » وهكذا استطاعت (الملكة الحمراء) أن تفوق كل الجنس البشرى بعقلها حينما تعهدت بالتفكير فى ستة أشياء ممتنعة الحصول قبل تناولها طعام الافطار وكان وليم جيمس (١) أكثر تعقلا من

---

(١) James, William (١٨٤٢ — ١٩١٠) فيلسوف وعالم نفسانى امريكى .

جلالتها حينما وضع قاعدة من مقتضاها أن يعمل شيئا كل يوم يكون مناهضا لجميع ما ألفه من عادات ، وقد تصرخ العادات وتقول « محال » أجيالا بعد أجيال طالما أنت تفكر فى أشياء لا تتفق معها ولكن اذا شرعت فى أن تقوم بأشياء غير مألوفة أو مناهضة للمألوف فان صرخات العادة ستخفت بعد قليل وتزول معها العادة نفسها ثم تنبثق عادات جديدة وتنشر ضياءها .

ولنطبق هذا على شخصك فاذا كنت ـ والادب يحملنى على اعتقاد صحة دعواى ـ سليما فى عقلك معافى فى بدنك لكان لك مجموعة كبيرة منوعة من العادات استطاعت كل منها بدهائها أن تجعل عقلك يعتقد أن سلوك أى مسلك مغاير لها متعذر بل مدعاة للسخرية وضار بعيد عما يرضى الضمير ومجاف للذوق السليم ومخالف للدستور بل عمل قذر ، فنحن جميعا نشبه اليابانيين حسنى التربية الذين يمتقع لونهم ثم يخفون وجوههم تقززا من منظر شـــخصين يقبل أحدهما الآخر على الشـاشة فى دار الخيـالة ولا تدعونا تربيتنـا الى اعتبـار التقبيل عمـلا فاضحا ، ولـكنا ربينا على أن نـكره أو نخشى أو نمقت أعمـالا أخرى يعد أغلب الناس على وجه الارض أن لا قيمة للكثير منها لا من ناحية الخير ولا من ناحية الشر واذا كنت فى شك من ذلك فتوجه الى هوليود ولاحظ مراقبى الشاشة وهم يعملون ثم استغرق فى الضحك الى النهاية .

فجلنا ميسر للعمل وللنجاح فيه والتزامه الى ما شاء الله ، غير اننا لسوء الحظ متزمتون فى معاناة العمل بطرقنا السخيفة وربما لا يكون بأس من العمل ولكن البأس والضير هو التشبث بنوع العمل والاستمرار عليه ونحن نشبه الى حد ما الملاكمين الاكفاء الذين يصارعون حبـا فى الحصول على المال وسيأتى علينا زمن يتحتم فيه علينا مغادرة الحلبة والا حاقت بنا الهزيمة العاجلة . والملاكم القدير سرعان مايجد لنفسه عملا آخر يؤديه وقد يكون هذا العمل مرهقا ولكنه يغاير عمله الأول ، وسابين بعد قليل كيف أن الجسم البشرى له مقدرة غريبة على تنظيم خطوه وأنه يحاول أن يحتفظ به ما سمح له بذلك نشاطه فالاندفاع فى سبيل العمل هو الحياة نفسها ولا يمكن تعويقه دون خطر غير أن الاندفاع فى سبيل العمـل بحكم عادات خاصـة شىء آخـر فالانسان عليه أن يكيف نفســه باســتمرار وفق مختلف الظروف التى تطرأ وأن يغـير عاداته كلما تنقـل بين حلقات العمر لأن العالم يتغير ويجب أن يتغير معه الانسان .

للعادة قوة دفع هائلة فاذا أوقفتها فجاءة فجعلت الحيـاة بيديك ركاما وحطاما فلا تحاول أبدا أن تقود سيارتك بأقصى سرعة نحو جدار حجرى فهذا أمر ضار بسيارتك وقد يكون ضارا بك فاذا ما شرعت فى ان توطن نفسك على اكتساب روح التقاعد عن العمل فاتبع الاسلوب نفسـه وتدرج فى الأمر وترفق بالكابحة (١) ولا تبلغ فى أية حـال من الأحوال يوم الاعتزال وأنت تجرى بأقصى سرعة بل ابدأ باراحة نفسك قبل حلول هذا اليوم بعدة سنوات فاذا لم تبدأ ذلك حوالى السنة السادسة من عمرك فليكن ذلك حوالى السنة العشرين واذا ما فاتك أن تبدأ فى سن العشرين فابدأ فى سن الثلاثين فالمهم أن تحسن الابتداء قبل أن تقف بوقت طويل .

فمن الطرق التى تبدأ باتباعهـا مهاجمة الأقيسـة العقلية التى ارتضيتها وكن محامى شيطانك فهو خبير باستخراج الشر من الخير .

أنت تعرف الأقيسة التى ارتضاها عقلك أما أنا فلا اعرفها فاعمل قائمة بجميع الحجج التى تحاج بها أصدقاءك الذين يشيرون عليك فى رقة بأن تعتزل عملك وتخلد للراحة واجمع ما استطعت جمعه لدحض كل حجة واطلب العون فى ذلك من ألد أعدائك .

انك لن توطن نفسك على اعتزال العمل فى نهـاية هذه المرحلة فالرجل الذى يقتنع مرغما يظل على رأيه الأول والأسوأ من ذلك أن يظل محتفظا بعاداته القديمة غير أن هذا هو الخطوة الأولى . أما خطوتك التالية فهى اتبـاع قاعدة « وليم جيمس » فخـالف كل يوم عادة على الاقـل من عاداتك المحببة وابدأ بمخالفة العادات البسيطة وانى لأعرف امرأة ذكية فى منتصف العقد الخامس حاولت هذا الأمر فبدأت بقيادة سيارتها على طريق جديد كل صباح بغض النظر عن طول الطرق وصعوبة المرور بها ثم غيرت المطاعم وتناولت كمية كبيرة من الطعام الذى تكرهه وأكلتها ثم أخذت تقرأ مقـالات جورج اليوت (٢) كل مساء حتى يصيبها الغيثـان ثم تطالع بعض الكتب الروحية حتى يصيبها الدوار ثم حاولت أن ترتدى مرة كل أسبوع ملابس مختلفة كل الاختلاف عما كانت ترتديه فى الأسبوع السابق ثم أخذت تشـعر بالكراهية لزى هذه الملابس كمـا كرهتها أيضا

---

(١) كبح الدابة جذب لجامها لتقف وفلانا رده ، وهذه الكلمة تصلح بدلا من «الفرملة» العامية ترجمة لكلمة Brakes الانجليزية Freins الفرنسية .

(٢) Eliot, George ١٨١٩ وهو الاسم المسـتعار للقصصية الانجليزية الموهوبة مارى آن ايفانز Mary Ann Evans والتى عرفت بعد زواجها باسم مسز كروس Mrs. Cross

لانمانها ولـكنها أصرت عليها وبعد قليـل من السنوات نالت الشفاء التام من حياتها المستعارة ووصلت الى مرحلة من الاستقلال الجرىء تخلت فيها عن عمل مجز وبدأت تمارس لحسابها الخاص عملا تجاريا وفى غضون خمس سنوات قبـل اعتزالها العمـل أحرزت من الثروة أكثر مما أحرزت من قبل . ولكن حذار من أن تستخلص هنا نتائج غير صحيحة .

جرب أساليب الأمثلة المقيتة فتعمق فى دراسة النساء والرجال الذين ارتكبوا جميع انواع السيئات وادرس بامعان احوال اولئك الذين افنوا انفسهم الى غير نتيجة قبل اعتزالهم العمل وانظر ماذا تركوا من أنفسهم .

فلو أنك بدأت فى سن السادسة لوطنت نفسك على اعتزال العمل بما كنت تحصل عليه من مئات الألوف من أيام العطلة خلال حيـاتك المديدة السعيدة ولكن لما كنت الآن أكبر سنا فلا أستطيع الا أن احضك على أن تحصل على أكبر عدد من العطلات تسمح به سنك .

ولعلك لم تنس أن العطلة مشتقة من التعطل وهو الفراغ (1) وقد يطلب رب الدار تعطيلها على الفور اذا امتنع المستأجر من أداء كرائها ، وتطلب الطبيعة تعطيل الاعصاب والعضلات على الفور أيضا اذا اساء شاغلها استخدام امتيازاته فيها فأجهد معداتها .

وأنت عند تعطل مصنعك تنام ولا يدور فيه شيء لأنه مصنع عاطل خال . والاطفـال ينامون أكثر وقتهـم لان مصـانعهم آخذة فى التوسع والتزين والتجهز بالآلات الجديدة ولذلك يكون على الاطفال فى هذه الحالة أن يبتعدوا عنها فى هذه الفترة ، أليس الامر كذلك ؟ أما اذا أصبح المصنع على أهبة العمل فان الصـبية لا يعطلونه الا فى القليل النادر — لأنهم يكونون قد شبوا عن الطوق — وبعد أربعين سنة أو أكثر يحتاج العمال الى تعطيل العمل على فترات متقاربة ولم لا ؟ ان الامر كله مرده الى العادة ولا شيء غير العادة .

ينبغي للرجل اذ طالت حياته وامتدت الى خمس وسبعين سنة مثلا أن يكون قد عطل متجره نحو مائة ألف مرة وهذا رقم تقريبى تطرأ عليه تغييرات كبيرة بحسب التنوع الـكبير للمخلوقات البشرية وكلما علت

(1) يقال عطلوا ديارهم تركوها خالية ودار معطلة . وتعطل فلان بقى بلا عمل وهو يشكو العطلة . وعطلت المرأة وتعطلت فقدت الحلى وعطلها صاحبها وهى عاطل وعطل .

بالانسان السن كثر اضطراره الى التعطل ففي خلال سنواته العشرين الاولى قد لايتعطل بمثل الكثرة التي يتعطل بها في السن المتقدمة غير أنه يجب عليه أن يتعطل عددا من المرات يجعله عنده في حكم العادة ٠

بعد العشرين يكون من الحكمة أن يتعطل أربع مرات يوميا تستغرق كلها نحو عشر ساعات ـ وهذا معدل تقريبي ايضا ، ثم عليه أن يتعطل تعطلا كاملا سبع ساعات وليخصص كل دقيقة منها للنوم العميق وليفعل مايشاء بعطلاته الثلاث الباقية فقد لا يهتم بالتوجه فيها الى الفراش وقد يؤثر الاسترخاء على الشاطيء أو تحت شجرة ظليلة أو في مخزن البيت أو خلف البيدر أو أمام كتل الخشب الحمراء وهي تصلصل في المدفأة أو على سطح قارب وقد يؤثر ان يسترخي أمام الباب الخارجي في كرسيه المريح وأن يرقب الناس وهي تمر به ، وقد يخرج للتنزه أو يلعب بالبلياردو أو يكتفي بالانتقال مما كان يفعله الى شيء مغاير له تمام المغايرة وبذا يستخدم مجموعة من العضلات غير المجموعة السابقة : هذا اذا كان يقنع بأتفه أنواع العطلة ٠

وكلما تعطلت تعطلا كاملا كانت الراحة أوفى وكنت أكثر استعدادا لدورة جديدة في مكافحة الحياة وكلما زاد عدد مرات التعطل حتى تبلغ في بعض الاحيان ست ساعات كان ذلك أكثر عودا بالخير ، وحذار أن تطول عطلتك أكثر من يوم أو يومين والا ساءت العاقبة ، وأسوأ مكافح عرفته هو الرجل الذي يعمل أربعين سنة كأنه أسير دون أن يحصل على عطلات صحيحة أو يحصل على قليل منها ويقتني الثروة ثم يقف بعد ذلك بلا حراك حتى يدركه الأجل وهو يسمي هذا تقاعدا ٠ أما الموظف المنوط به فحص حالة الوفيات فيسميه انتحارا ٠

لم يكن ميسورا أن تنبت منذ خمسين سنة فكرة العطلات مائة الألف لأن الناس لم يكونوا قد عرفوا حين ذاك السرعة التي يرتد بها الجسد ولو كان مجهدا ولم يكونوا قد قدروا أضرار الراحات الطويلة والجهود الطويلة أما الآن فهم يقدرونها .

ان الراحات الطويلة ولا سيما في الفراش تحدث اضطرابات خطيرة فكم من رجل كان يمكن أن ينهض معافى ويباشر اعماله بعد قضاء بضعة أيام في مستشفى قد قصر حياته بالاخلاد الى الكسل وترك الممرضات يقمن بكل شيء له لا شيء الا لانه يرتاح اليه وهذه قصة طويلة دلل على صحتها الوف الحالات التي حققت أخيرا ٠

ان كثيرا من الراحات القصيرة يكاد يكون خيرا لكل فرد تقريبا الا قليلا من المرضى وبخاصة المرضى بذات الرئه • جرب هذا على نفسك فاجر واحتطب واصعد التل حتى تلهث ثم اقعد واسترخ فان كنت دون الاربعين فستنتعش بعد عشرين دقيقة وان كنت فوق الاربعين واهن العظم لاحتجت الى نصف ساعة أو أكثر ، وما لم تكن مريضا بمرض ما فستستعيد تسعة أعشار نشاطك فى سبع دقائق أو ثمان •

حقا انه كلما تقدمت بك السن تأخر انتعاشك غير أن هذه القاعدة تنطبق بشدة على الجهود الكبيرة المفاجئة فان أغلب الطاعنين فى السن يستطيعون ان يسيروا على الاقدام طول اليوم كما يفعل ابناء العشرين غير انهم اذا ركضوا مسافة قصيرة قضي عليهم لان الرئتين لاتستطيعان التقاط الاوكسجين بسرعة تتفق مع ما يستلزمه المجهود العنيف المباغت ولكنهما تستطيعان أن تلتقطا ما يكفى للخطو الوئيد ولو استغرق اليوم كله •

ان مزاج التقاعد هو ميل للتوقف التام عن الحركة فى فترات متعددة وهو ان لم يكن غريزة وجب أن يكون عادة لانه يقينا جميعا من شر التوقف المفاجيء لنشاطنا بعد السير المتدارك سنوات عدة فالصدمة الناشئة عن هذا التوقف هي الموت فخفف الضغط على الكابحة (الفرملة) حتى لاتستهلكها أو تنزلق بك العربة •

عندما تشرع تتوجه الى المدرسة ستتعلم من أول مدرس لك مئات الالوف من العطلات فهو خبير بها أو سيكون خبيرا بها بعد قليل فهو وصناعته أقرب مايكونان الى المثالية من أى شيء آخر فراقبه واستفد من الاقتداء به •

يتطلع الى التقاعد بعين الرضا مدرسان من بين كل الثلاثة وهذه نسبة كبيرة تسترعى النظر فكيف كان ذلك ؟ انى أظن أن السبب هو أن المدرسين اقرب من اية طائفة أخرى من طوائف العمال الى الحياة المثالية ذات مائة الالف العطلة التى أؤيدها كقاعدة مثالية فهم اكتسبوا عادة اعتزال العمل منذ زمن طويل • قبل أن تشغل العطلة كل وقتهم •

فمنذ البداية يخصص للمدرس ساعات قصيرة للتدريس وهى ست فى كثير من المدارس ولم أجد مدرسة زادت على سبع وكانت أيام العمل فى الاسبوع دائما خمسة أيام وفى الصيف تمنح دائما عطلة هائلة اطول كثيرا مما يستطيعه اثرى الاثرياء ثم يحصلون على عطلة حوالى آخر

العام تستغرق أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ، فجملة ما يحصلون عليه فى العام تختلف من خمسة عشر اسبوعا الى ثمانية عشر • وعلى هذا اذا بدأ المدرس عمله فى سن العشرين وانتهى منه فى سن الستين فيكون قد تمتع على الاقل بستمائة أسبوع أو ربما سبعمائة وعشرين أسبوعا من الوقت الطليق أو قل بين اثنتى عشرة سنة وازبع عشرة من العطلات فلا عجب اذا أصبح التعطل للمدرس عادة فهو يبدأ فى التحلل من العمل منذ اليوم الاول الذى يمارسه وبطبيعة الحال سيكون له أن يتمتع بخير سنى حياته لانه كان يعد نفسه لها طول حياته •

قم وافعل مثله •

وكثير من النساء لايفترقن الا قليلا عن مرتبة المدرسين ولكنهن يفقن كثيرا من الرجال فى تنظيم حياتهن قبل الستين وبذا يستطعن أن يكتسبن مزاج التقاعد على نحو كريم • وحقا ان حاجتهن الى هذاالكتاب أقل من حاجة الرجال اليه •

ان الطبيعة فعلت لهن ما أحاول انا هنا أن أنصح للرجال باتباعه فكثير من النساء لايتركن أعمالهن فجأة ، ومهما تقدمت بهن السن فانهن يواصلن القيام بالعمل على النسق السابق تقريبا ، فهن فى نظر الرجال لايتقاعدن لانهن ينسحبن من العمل فى غاية من الرفق .

فى البيوت المتوسطة تقضى الزوجة ساعاتها حانية على الاطفال وعلى بالوعة المطبخ ، وذلك فى غضون سنواتها العشرين الاولى وبعد أن يعتزل زوجها العمل تقضى أوقاتها فى تمريضة وفى العناية ببالوعة المطبخ • أما فى الأسر الثرية فتخرج الزوجة الى السوق لشراء حاجاتها وتلعب الورق وتتحدث الى الاصدقاء وتلهو فى كثير من نهايات الاسبوع وبذا تقطع سنوات عمرها الى ألوف من العطلات الصغيرة على النحو الذى كنا ننصح به ، وبذا تقبل على خير سنوات حياتها وهى أحسن عدة من زوجها لاعتزال العمل •

ومن حسن التوفيق لها أيضا أنها عانت ألم فقدان السيطرة حينما شب أطفالها عن الطوق وغادروا دار الاسرة • أما الزوج فلم تنل منه هذه الصدمة الا قليلا ، وأما الزوجة فقد نالت منها بالتدريج ويشعر الزوج بها فجأة حين يغلق مكتبه للمرة الاخيرة ولا يصدر أمرا بعده الى احد . وتكون الزوجة فى هذا الوقت قد اعتادت حياة خالية من السلطة واحبتها •

للزوجة واجب واحد كبير يختلف كثيرا عما يواجه زوجها عند اعتزال العمل فهي مسئولة عن معاونته على التخلص من عادات النشاط والدخول في حياة التحلل الجديدة مع تجنبه أكثر ما يمكن من الاضطراب غير أن المرأة غير المتزوجة التي قضت معظم حياتها في العمل فيواجهها ما يواجه الرجل من مشكلات وان كانت اخف درجة اذ المحتمل أن تكون قد ادارت منزلا بطريقتها المبسطة لنفسها ان لم يكن لامها أو اختها ،فلها عادات معينة متأصلة في نفسها تسيرها طيلة اليوم بحالة أيسر مما يستطيعه الرجل ولهذا يكون تنحيها عن العمل أكثر بساطة ٠

نعم ان النساء مجدودات فلنتركهن وحظهن السعيد وكلما أحسن استخدامه أعلناه على رءوس الاشهاد ٠ أما اذا لم يكن مجدودات وكان عليهن أن يعملن كما يعمل الرجال في دنيا الرجال فليقرأن ما نقوله عن الرجال فهو ينطبق عليهن أيضا ٠

- ٧ -

استسهل الصعب

نشأنا أنا «وتشوتل» معا وهو يكبرنى بأربع سنوات ، وكنت كلما كسبت فلسا فى نصف القرن الماضى كان يكسب هذا الشيخ الطيب دينارا ، ولما كان على قسط وافر من الذكاء فلم يكن يضيعه الا انه أضاع الكثير فى الازمات المالية العديدة وفى الحروب ، وقد اعتزل العمل فى سن الستين ولديه أكثر مما يحتاج اليه ليعيش عيشة راضية وقد عاش هذه العيشة ولكن فى طريق شاق .

توقف عن السير ثم قعد فى بقعة دافئة وأخذ يتطلع منها الى الخلف ويكتب الرسائل الى كل من تعرف اليهم منذ كان فى العاشرة وتبادل معهم الصور الفوتوغرافية وتوجه الى حفلات كل مدرسة وكلية ولو اقتضاه ذلك أن يعبر قارة أوروبة ليصل الى مكان الحفلة ويدعو زميله القديم ويشرب نخب اصدقائه الراحلين ويهتف بهتاف فصله المدرسى ثم يعود ادراجه الى داره وقد ران على قلبه شىء من الأسى لم يدر كنهه . الا يمكن أن تكون تلك الكئوس الاربعة عشرة هى السبب .

يقول : انه يقطع فى أسفاره أكثر من ألف ميل كل عام ليشهد الاجتماعات والحفلات حيث يستعيد حياته الماضية ولديه ست مجموعات من الصور الفوتوغرافية التى تمثل تشوتل وهو فى المدرسة وتشوتل وهو يجرى فى سباق الميل وهو ثالث المتسابقين فى سنة ١٨٩٩ وتشوتل فى ملابس السهرة السوداء فى نادى جلى(١) وتشوتل وحبيبته يشاهدان مباراة كبيرة لكرة القدم وتشوتل واخوته الثلاثة الصغار فى اجتماع أهلى خطير ، وتشوتل ، وتشوتل وتشوتل فى مدى خمسين عاما وأرجوك أن تظهر السرور يامستر تشوتل .

كان كلما اقترب احد اصدقاء تشوتل القدامى من مكانه يكون تشوتل مختفيا فى دهليز داره ويختطف هذا الزائر ويلهيه عن عمله ليتحدث معه عن الايام الخوالى . وبعد دقائق قليلة يكتشف هذا الشيخ أن عجلة الزمن قد وقفت فى اليوم نفسه الذى اعتزل فيه تشوتل العمل وكل ما وقع منذ ذلك الحين ليس الا ثوانى ودقائق ، فقد عاد تشوتل الى الايام الماضية تلك الايام الوحيدة التى تعيش من أجله .

---

(١) Glee Club

فكل اجتماع غير منتظر كهذا الاجتماع يتيح لتشوتل فرصة طيبة ليولم وليمة فاخرة لصديقه القديم وليتخم نفسه بالطعام والشراب ولهذا يزيد وزن تشوتل عن وزني باثنين واربعين رطلا برغم اني أطول منه قامة ومن جراء اغفال تشوتل للمادة الرمادية التي فوق اذنيه أصبح لايجد ما يقوله وان وجد فيقوله ببلاهة وهذا ما يدعو للأسى لانه كان فيما مضى حاضر النكتة سريع البديهة ٠

وزاد الطين بلة أن فقدانه عقله كلفه كثيرا في العام الماضي اذ كان عليه أن يدير عملا تجاريا ضخما لشقيقته الطاعنة في السن فخسر من المال أكثر مما خسرت طول حياتي ، وكل هذا في غمضة عين ، ومع ذلك فلا يزال يحتفظ بسيارة فخمة ، ومنزل رحب وعضوية في ستة أندية ، وضريبة دخل ضخمة . وهو ينفق على الاندية أكثر مما أنفق على معيشتي السوداء الكئيبة كما انه ينسى دفع المطالبات ولم يعد يستطيع تذكر الاسماء .

نعم ان تشوتل قضى نحبه منذ سنوات ولكنه لم يعلم ذلك بعد لانه لم يستطع أن يتقبل القاعدة الاولى اللازمة لاكتساب مزاج التقاعد فكان عليه أن يجري مع القطيع دائما ولم يكن في استطاعته أن ينفرد بنفسه حتى أتى الوقت الذي دهمه فيه القطيع فأصبح أثرا بعد عين ٠

خذها صريحة : ان ما قلته لم يكن القطيع الذي أشرنا اليه بل كان القطيع القديم الذي كان تشوتل فيه وكان الزحام القديم نفسه والطرائق القديمة عينها وكان القطيع هو النظام الذي اعتاده تشوتل لانه حينما بلغ الستين بذل جهده لكي يعيش عيشة العشرين والثلاثين والاربعين والخمسين من جديد فأقام حياة استعارها من أصدقائه وخلطائه ولم يعد هو تشوتل وتناسى حاضره .

لقد قضى سنواته الاخيرة وهو يعيش في الماضي وانت لا تستطيع أن تحذو حذوه دون أن يصيبك مكروه لان الحياة تتحرك في اتجاه واحد وهو دائما الاتجاه الى الامام فالحياة طريق لا يسلك الا من ناحية واحدة ولم يفقه تشوتل المسكين هذه الحقيقة . انه كان يظن ان الخير كل الخير في الماضي فما أفحش خطأه ! ان الخير فيما هو قادم ٠ انه ظن أن الأشياء المرغوب فيها دون غيرها هي ما اعتاد أن يتمتع به فما أفحش خطاه ! ان جون ديوي (John Dewey) كان يستطيع أن يلقنه درسا احسن ٠

فمنذ عدة سنوات كان ديوي يقول : « ان الشوق الى الازهار يأتي

بعد التمتع بها » وهذا مايحصل دائما . ان التجربة هى التى تؤكد الرغبة ، ان تشوتل وألوف من أمثاله ، وقعوا فريسة الخطأ القاتل . ذلك الخطأ الذي يفترض ان الخير كل الخير يكمن فى الماضى ، وحجتهم فى هذا السخف انهم وجدوا فى الماضى كل أشيائهم الطيبة ، وهذا صحيح، ولكن ما سعة هذا الجزء من عالم الاشياء الطيبة التى تحيط به تجارب الانسان ؟ اكتب على ورقة علامة عشرية ثم ضع على يمينها مليون صفر ثم اكتب اى رقم تشاء وستكون النتيجة مبالغة فى الجواب .

والآن وقد حل عصر الذرة وأخذ الانسان يرسل الاشارات الى القمر فلنحذر أكثر من أى وقت مضى جميع الاشياء الطيبة القديمة ولنبحث عن مباهج جديدة فى عالم جديد واتبع نصيحة مارجريت ديلاند (١) التى تقول : « اذا بلغت من السن درجة لا تستطيع فيها أن تأتى عملا فافعله اذن » .

واذكر عندما تحاول ذلك ، الجدة موزز ، فهى أقوى من مبدأ ديوى، لانها أثبتت ان الرغبات التى يعثر عليها أخيرا قد تتفتح عن قوى غريبة مثيرة .

لقد سمعت حقا بهذه الفنانة المدهشة فقد ذكرت الصحف قصتها ففى سنة ١٩٣٧ حينما بلغت انا موزز (٢) الثامنة والسبعين خرجت تصطاد فى مزرعتها فى ايجل بريدج وعثرت على علب متروكة من دهان المنازل علتها طبقة صفراء سميكة من زيت بذر الكتان الجاف ولم تكن قد حاولت فى حياتها أن ترسم صورة ، وفى الوقت الذى يبلغ فيه المرء سن الثامنة والسبعين تصبح تصرفاته بعيدة عن المعقول غير ان الجدة موزز لم تكن كذلك فقد وجدت قطعة قديمة من القنب فبسطتها على لوحة ودهنتها على سبيل التسلية لانها كانت تشكو منذ زمن طويل تصلب شرايين يديها .

كان هذا منذ تسع سنوات تحبو الى العاشرة وانا أسطر هذه الكلمات وقد باعت حتى الآن ١٠٨٦ لوحة من رسومها وتستطيع تقدير ثمن كل منها وقد علق معهد كرنيجى (٣) بعضها ، فى معرضه واستنسخ

---

(١) Deland, Margaret ولدت سنة ١٨٥٧ وهى قصصية امريكية ومن تواليفها كتاب جون وارد الواعظ . John Ward, Preacher

(٢) Moses Anno

(٣) كرنيجى اندرو Carnegie Andrew (١٩٣٥ – ١٩١٩) كان اسكتلنديا مشهورا بصهر الحديد او بعطفه على الانسانية وقد هاجر الى الولايات المتحدة الامريكية حيث تولى رياسة اتحاد صناعات الصلب بالولايات المتحدة ونال ثروة ضخمة انفقها على انشاء دور الكتب وكثير من المشروعات الانسانية .

من احدى رسومها الجميلة ثمانية ملايين نسخة وعمت لوحاتها انحاء المعمورة وهى تعرض فى الأروقة وقد خلبت لب الناقدين ، وكانت الفنانة على سجيتها الى حد لايصدق ، وكيف كان ذلك ؟ انها لم تكن تتظاهر بغير حقيقتها ولم تكن تميز طرازا من الرسم من طراز . ولم تطلع على كثير من أعمال عظماء الرسامين العالميين ولا تميز بيكاسو من غيره واذا أرادت رسم صورة تغمض عينيها وتتأملها حتى يلوح لهـا المنظر . وعندئذ ترسم ما قد رأته ومواضع الضعف فى رسمها تزيده مسحة من القـوة لانها قوة الحق المجرد .

والآن وقد بلغت الجدة موزز السادسة والثمانين فهى تفكر فى أن تحترف المعمار وفن بناء المساكن . لماذا ؟ لأنها تحب البيوت ، اذ كانت سيدة بيت دائما وتعلم ما يجب أن يكون عليه المطبخ وخير مكان تحتـله الحمامات .

هل كانت فى فجر حياتها فنانة فاشلة ؟ الجواب لا فان الفن لم يتطرق أبدا الى حياتها لانها نشأت امراة مزارعة ولم تحتج الى عمل شىء آخر غير صنع الزبد والاتجار فى البان البقر وتدبير المنزل ، ولكن كيف أصبحت الآن فى هذه السن المتقدمة رسامة ذات شهرة عالمية ؟

والجواب يظهر فى الحكمة العالمية الآتية :

سأل رجل ذات مرة :

« كيف لا تنظر عينى داخل اذنى ؟

ولو انى صممت عليها .

فى قرارة نفسى .

لفزت حقا بما كنت ارجو .

فأنت لا تستطيع أن تجزم بشىء حتى تجربه » .

هذا هو أساس العلم كله وأساس حسن الذوق فهنا من الحكمـة اكثر مما انطوت عليه دفتا سفر التكوين وآخر سطر فى وثيقة حقوق الانسان .

ليكن هذا شارة الجميع الذين ينظرون الى الوراء مثل «تشوتل» المسكين الهرم فيجدون فى الماضى جميع الاشياء الطيبـة . أن هـذا العصر عصر المحال وأرجو ان تأتى قبل الافطار بستة منها فاذا لم تنته بأن ترسم ١٠٨٦ لوحة وتبيعها بأسعار غالية فقد توفق الى ماهو خير .

- ٧ -

لا تخصص كل وقتك لعمل واحد

ان الرجل الحكيم الذى قال لاول مرة ان فى التنوع أفاويه الحياة لم يعرف الحياة لأن التنوع هو قوام الحياة ويشهد بصحة هذا جميع علماء الاحياء وجميع علماء التاريخ وجميع علماء النفس وكل مديرى المصانع ٠

اذا قضيت « خير سنى العمر » فى عمل شىء واحد حفرت قبرك بيديك فخير زمن لنشاط واحد هو أن تقتطع له بعض وقتك فالتغيير سنة النهار بل سنة الليل كما يعلم ذلك الطلاب الذين درسوا ظاهرة النوم فان أعمق الناس نوما يتقلبون فى فراشهم مرة كل سبع دقائق أو ثمان وقد أخذ الأطباء يقلقون على من ينامون كأنهم خشب مسندة ٠

مهما كان سؤال من يسالنى عما يفعل بعد الستين كان جوابى دائما قبل كل شىء : « عدة أشياء » ثم تتناول هذه الأشياء العدة فهو يتطلع الى جميع نواحى النشاط ويتخير عشرة يؤثرها من بينهـــا فأقول له حينئذ خصص جزءا من الوقت لكل واحدة منها. هذا اذا كان لديه القوة على ذلك والثمن المطلوب ٠

هل تود أن تفر منهـــا جميعا ؟ حســنا ٠ قم برحلات ٠ العب الشـــطرنج طالع الكتب التحق بالنوادى والجمعيات التى تلقى فيهـا المحاضرات والمناظرات والعب الكرة والصولجان ولكن خصص لكل بعض وقتك على ألا يزيد هذا البعض على ما تسعه قواك دون ارهاق ٠

هل تود ان تتفرج على العالم ؟ حسنا ارحل الى أبعد ما تتمنى وتفرج على كل ماتشتهى ولكن لا تنفق كل دقيقة من سنواتك العشرين التالية وانت تطوف بالبلاد ».

كنت دائما تمنى النفس بأن تمارس عملا صغيرا لحسابك الخاص ٠ حسنا. اذا كنت واثقا بأنك تعرف ماتدفع نفسك اليه من الحرج والمشقة ولكن لا تقض سحابة يومك فى حانوت أو مكتب حتى لو كان لك ٠

هــل أنت فى حاجة الى مال تدعم به دخلك الضــئيل ؟ هــل يتحتم عليك ان تحترف عملا ما ؟ حسنا ». ليكن ذلك ولكن ليكن عملا لايستغرق الا جزءا من وقتك ٠

هل كنت تتوق دائما الى تأييد مسألة من أمهات المســـائل ؟ هل كنت تود أن تحسن اضــــاءة الطرق أو تعالج مدمنى الخمر أو تحسن

الصمغ الموضوع على طوابع البريد أو حالة الحزب أو مجارى المدينة ؟ حسنا. هلم اليه وحرك اعلامك والق خطاباتك وعين مندوبك فى شئون المجارى وليكن ذلك كله على أساس الا يشغل كل الا بعض وقتك .

خصص بعض وقتك لهذا العمل وبعض الوقت لذاك . وسيكون هذا هو المبدأ الذى يتردد فى صفحات هذا الكتاب ويتكرر حتى تصرخ وتحشو أذنيك بالقطن وسأظل أعزفها على قيثارتى لأنها الحق الثابت الذى أيده عشرات الألوف من العلماء الذين درسوا حالات مئات الألوف من الناس .

اذا أويت الى فراشك فاذكر لنفسك وكرر العبارة الآتية :

« اذا أردت أن احيا حياة كاملة على ان اقوم بعدة اشياء لا يستغرق كل منها الا جزءا من وقتى » .

ثم استيقظ وانت تتمتم بها ثم نفذ مقتضاها واذا وجدت صعوبة فى ذلك فاخرج وزر ملايين الناس الذين ماتوا ضحية الملل الذى جلبته لهم الحياة الرتيبة الناشئة عن عمل شيء واحد مثنى وثلاث ورباع وخماس فان الشخص الذى يكرر شيئا واحدا عدة مرات غالبا ما يفقد اللذة فيه، ولذلك يفقد الحافز الطبيعى على القيام به ثم يصبح التكرار شيئا مفزعا يؤثر الموت عليه على هذه الحال فيقضى نحبه .

ففى حياتك الجديدة ذات الوقت الكامل التى تبدأ بعد الستين خصص جزءا من الوقت للعب . أما مقداره فيتوقف عليك فان كنت مثلى فستخصص له فى العام أربع ساعات أو خمسا وان كنت مثل عصابة (الكرة والصولجان) فى النادى الذى انتمى اليه فستخصص له مع المتعة نصف عام ولست أنا الا مثلا حقيرا لأنى استخرج متعتى من عدة اشياء أخرى غير اللعب ولذلك دعنى أعرض عليك بضعة نماذج أفضل منه ولست أحضك على أن تتبع شيئا لأنك ستعرف أصلح الأشياء لك .

ان عصابة الكرة والصولجان عصابة ذات مبادىء وتدابير لا تقبلها الا العقول الجبارة المثقفة وقد يسميها البعض رفيعة وقد انضممت اليها منذ ثلاثين عاما ففى أحد أيام الآحاد الحارة فى شهر يوليو أرسل الى أحد الأصدقاء سيارته فقطعت بها فى الريف خمسة وسبعين ميلا وكانت الدار محجوبة عن الطريق بما أحاط بها من سامق الشجر ومكتظة حتى لتخفى عن أكثر العيون حدة وكانت تقع على بعد ربع ميل على ربوة تشرف على روضة فسيحة يتوسطها مضمار سبق .

وكان يجلس في المدخل الرحب سبعة رجال وامرأتان خلف كئوس شراب كبيرة وفهمت من الحديث ان هذه الكئوس دارت عليهم ثلاث دورات من قبل أو أربعا وكان سوبى سمث أو سمث المتملق Soapy يقول : « والظلم من شيم النفوس » وكانت الواز Eloise تقول : ان هذه العبارة واردة فى الانجيل لانها سمعت احد القسس يقولها وهو يتناول الشراب فى حانتها المنزلية .

أستميحكم العفو : ولنذهب للاجتماع بهؤلاء الناس فان الواز مضيفتنا اعتادت أن تدير محلا عاما بين أحضان الغابة وقد تزوجت من أكبر رؤساء المعسكرات وأمهرهم ثم جمعا فيما بعد عدة ملايين من العثور على فلذات فى أرض اشترياها بسعر الفدان خمسة شلنات وتستطيع أن تتصور الباقى أما الزوج هيزن Hazen فقد مات قبيل السبعين اذ بقر بطنه احد الثيران التى نالت جائزة فى بعض المعارض ولولا ذلك لامتدت به السن الى التسعين واستمرت الواز تزاول العمل ولكن كيف ؟ انها على درجة كبيرة من المهارة . كانت تقسو على من لا يعنيها امرهم كثيرا وتتعجرف تعجرف الأميرة على أصدقائها وعلى رقيقى الحال ، وكانت تدير شئون أملاكها لحسابها الخاص حتى السنة التى وقع فيها هذا الاجتماع ثم أحالت أشق الأعمال على رجال القانون واخذت تمتطى بشغف متون الجياد وتقامر بألعاب الحظ وتقامر فى سوق الأوراق المالية وتكتب اغانى التعدين القديمة كلما تذكرتها وتتعلم الرسم (وما أجهلها به) .

وكان الاسم الحقيقى لسمث المتملق هو سوبى سمث وكان يشترى الماشية أيام كانت المراعى مباحة للجميع ثم أصبح مالكا لأحد هذه المراعى ثم معدنا للذهب ثم أشياء أخرى يحسن عدم ذكرها هنا وقالت عنه الواز: انه الرجل الوحيد الذى قابلته فى حياتها والذى يستطيع ان يشرب أربعة لترات من الشمبانيا الساخنة يتجرعها من قنينتها رأسا قبل تناول الافطار ثم يستطيع الحياة بعدها حتى يتناول غداءه .

وكان سائر أفراد الجماعة يشبهون تقريبا الواز والمتملق بل انهم أدنى اليه وكان أصغرهم سنا يبلغ الحادية والسبعين وأكبرهم سنا الثالثة والثمانين وكانوا فى عصر الخشب والماشية وكان « هرمان » من أصدق الاصدقاء رجلا ملاكما يبيع الجعة وكان «مات» Mat نزيل السجون وكان حظه من الظرف واللطف كحظ الضبع منهما وقد دخل فى روعى أن الواز لم تطلب انضمامه الى الجماعة ولكنه التحق بها بشكل من الاشكال

وكان فرانكلين محاميا فى احدى القرى المتأخرة ولو صدقت حكاياته ليكونن قد كون نفسه من القيام عن الاثرياء بادارة أراضيهم ، ولكن دعنا من هذا ٠

عندما اقترب موعد الغداء كان المتملق و « مات » قد وصلا الى حد انهما افرغا أربع زجاجات من الجن (١) فى بئر على أرض النادى المزروعة ابتغاء تحسين طعم الماء وأثناء الغداء تناولت الطعام على حين كانت العصابة تشرب وتشرب وتشرب وكنت ايضا آكل وهم يغنون وبعد الغداء اتخذت مقعدى فى الظل الرطب لشجرة بلوط عظيمة فى حين توجه الجميع الى الاسطبلات وأخرجوا الجياد وتراهنوا فيما بينهم على ركائبهم وعلى ذواتهم فامتطوا صهوات الخيل واصطفوا ثم انطلقوا يعدون حينما أطلقت الواز صرخة من حلقها وكانت قد اتخذت لها موقفا بعيدا عنهم ، ثم عادوا الى المدخل ليجرعوا كأسا جديدة من الشراب ، وبعد ذلك أخذت الواز وثلاثة آخرون فى لعب البوكر بالمال على حين أخذ النعاس بمعاقد أجفان الآخرين فنام كل منهم حيثما غلبه النعاس ٠

وركبت السيارة أبتغى العودة الى البيت وأنا أفكر فى الملاحظة التى أبداها بعض من يجوز أن يصبح فى المفكرين وهى أن الانسان يقدر عمره بعمر مثله العليا ٠ فاذا ما شرع فى ترك مثل الشباب فقد بدأ يدخل فى طور الشيخوخة وقد تذكر الألفاظ نفسها اذا كنت رأيتها على اللوحة الموجودة دائما على مكتب « جنرال دجلاس ماك ارثر » أما المثل العليا لالواز فهى خاصرتا الحية وأسنان الدجاجة والتضاريس الحادة للدائرة الكاملة ٠ وأما سائر أفراد العصابة فمثلهم العليا أقل عيوبا فهل تقول : ان الجماعة لم تتقدم بعد فى السن ؟

لم يكن على هؤلاء الناس أن يعودوا الى الصبا لانهم احتفظوا حتى اليوم بصباهم لأنهم كانوا دائما يراعون الا تستغرق الاعمال وقتهم كله ، فمهما كان عملهم شاقا ، وقد كان شاقا فى بعض الأحيان ، فلم يكونوا يسمحون بأن يمضى يوم دون أن يكون فيه شىء من الترفيه والتنويع فالتجربة خير معلم والعادة خير مدرب على النظام ٠

من الحمق الظن بأن هؤلاء الشبان المملوئين حيوية ونشاطا والذين تختلف اعمارهم بين السبعين والثمانين مدينون لمثلهم العليا لأن هذه المثل تأتى من الآباء والمعلمين ولكن روح المرح تأتى من غدتى الطحال

---

(١) الجن Gin مشروب يستقطر من الحبوب والشعير واشتق اسمه من جنيفا Geneva ويسمى ايضا المشروب الهولندى لانه يصنع فى هولنده ٠

ومن الغـــدة الدرقية كما يرجع شطر كبير منه الى شظف العيش وكان لالواز والتملق والباقين الاســـلاف الصالحون لهذا الغرض أما أنا فلم يكن لى مثل ما كان لهم .

وكل شخص فى الحياة بعد قرن من اليـــوم سيحسن صنعا اذا اقتدى بويليام لسلى William Leslie الذى يمارس فى حماسة الانزلاق على الجليد ويمارس الرقص وهو فى منتصف العقد الثامن وهو لايستطيع أن يغفل حلقة انزلاق أو ساحة رقص .

وهو يقول : « اذا أردت أن تحتفظ بشبابك فحافظ على نشاطك »

نعم ان هذا حق ونحن نساهم فيه بصرخة متمردة وننادى بسقوط مرض الراحة غير ان نشاط قوم قد يكون جنازة آخرين فمستر لسـلى فى سن الخامسة والسبعين ينزلق برشاقة كل بضعة أيام ويرقص فى خفة وبمرح الرقصات الهمجية غير أن نظرة واحدة الى وجهه تبين للناظر أن فى دمه روح الرقص ورثه على أجـــداده ويكاد وجهـــه يخـلو من التجاعيد ومن السهل حسبانه من ذوى الخمسين وهو يحتفظ برصيد من النشاط الجثمانى الذى فقده الكثيرون منا منذ زمن بعيد جدا .

فلنغبط هؤلاء الشيوخ النشيطين ولكن حذر من تقليـــدهم فلن تنقذنا جميع مثل الشباب العليا اذا شربنا أدلاء الجن التى تتجرعها عصـــابة نادى الكرة والصـــــولجان أو اذا ذهبنـــا نعدو على المنزلقات الاسطوانية أو نتدحرج على الجليد دون أن نتحصن بالجهاز الذى يحفظ على القلب والرئتين والعضـــلات مستواها الفتى وخير ما يجرؤ عليه الملايين منا هو المرح الخفيف ويغلب أن يتمتع أكثرنا بمباهج الرقص فى حانة كالتى ابتدأها بوب كنى Bob Kenney منذ بضع سنوات .

فقد خطر بباله رأى بديع هو ان يخصص للشـــــيوخ والعجائز وحدهم قاعة للرقص فاستأجر مضيفتين احداهما سيدة فى سن الخامسة والخمسين والاخرى خليلة فى سن الخامســة والستين فكانتا تديران رقص التآلف الذى يقام كل ليلة اذ يدخل الشيخ الذى يعرف كيف يبتسم للفتيات دون أن يظهر طرف حلقه فتقدمه المضيفتان الى الغانية ابنة الخامسة والخمسين والتى ينم عليها ماضيها . ويبدأ الرقص .

ويتردد على القاعة بانتظام راقصون كثيرون ممن جاوزوا السبعين وأكبر العملاء ســـــنا يبلغ الثالثة والثمانين فالسن تمحو الطبقـــات الاجتماعية ، فيرقص أرباب الملايين مع أبناء السبيل ويرقص رجال القانون ذوو الرزانة والهدوء مع الارامل اللائى يعملن فى مهنة غسل الملابس .

ويعجب الجميع رقصة الصفير فاذا ماصفر كنى Kenney غير كل راقص شريكته ولاتصرف بطاقة العضوية الا بعد تحريات سرية عن الاخلاق ومن هنـــا ازدهرت قصص عديدة على أرض هذا المرقص ٠

بل ان الرقص قد يكون فوق طاقة الكثيرين منا بعد سن الستين وخير ما يكون عليه أن يكون ملهاة طيبة تستغرق بعض الوقت ســاعة من كل أســبوع ثم ماذا بعـــد ذلك ؟ لننتقل الى المقامرة على ظهـور السفن (١) واغفروا لى ما قد يند عني من اشـــارات الاشمئزاز فانى قد شاهدت ألعابا كثيرة جدا وليس من شك فى ان اللعبـــة شريفة وتأسر الباب المغرمين المعجبين بها غير ان الفم العبوس يؤرقنى فى منامى وان الهجوم القاسى من ساحة المحكمة كل صباح بعد الافطار يشبه مقصـــلة الموت فعـلى اللاعب أن يواصــــل لعبـه وان لم يظهر له بصيص من الأمل وهو يتمتم مع سيرانو دبرجراك (٢) Cyrano de Bergerac بأن جميع المعارك التى تستحق العراك هى تلك التى يجب علينا أن نخسرها ولأتحول عن دار الفزع هذه لأتخذ سبيلى الى السير شوطا طويلا فها هنا شيء ما انه شوط طويل .

ومما يدعو الى الأسف اننا أو على الأقل جيلنا الذى شـــــغف بالسيارات ونسى الســــير على الاقدام فالناس فى جميع بقاع العالم لا يزالون يسيرون ويحبون الســـير وأنا مثلهم أنا الولد القديم العادات والتقاليد وهل بى من حاجة الى تكرار الاشـــادة بهذا النوع الرخيص من المتعة ؟ أرجو ألا تكون بى هذه الحاجة فان بلادنا تقدم للراجل القوى أنواعا منوعة من المناظر والطرقات والمساكن والرفاق وهناك تستطيع أن تنجو بنفسك من صخب السيارات ونتن زيحها ومن السائق المعتوه الذى يصرخ وهو يحتك فى مروره ٠

ان أكثر الأشــياء سحرا فى المشى هو أنك تأتى ما تشاء فى كل لحظة هل نميل الى اليمين أو اليسار أو هل نســـير قدما فى طريقنا أو نتوقف دقيقة أو ساعة أو أسبوعا ؟ وهل نأكل الفذاء الذى فى حقيبتنا أو نواصل السير لتناول عشاء متأخر فى ذلك الفندق ؟ وهل نقطع عشرين

---

(١) وتسمى Shuffle-board وضعها ان ترسم مربعات على ظهر السفينة بالطباشير ونحوه ويرقم كل مربع منها برقم خاص ويدفع المقامرون بسهامهم في هذه المربعات.

(٢) سيرانو دبرجراك (١٦١٩ ــ ٥٥) بطل مسرحية وضعها روستان Rostand خاض غمار معارك كثيرة دفاعا عن انفه الغليظ الذى كان موضع سخرية الساخرين ٠

وادمون روستان هذا (١٨٦٨ ــ ١٩١٨) مؤلف وشاعر فرنسي مشهور وضع رواية سيرانو دبر جراك نظما من خمسة فصول سنة ١٨٩٧ ٠

ميلا قبل غروب الشمس أو هل نعود الى الكرسى ذى العجلات بعد الساعة الثانية فكل مـــا تقرر عمله تعمله لأنك تحبه فان لم يكن هـــذا متعة كاملة فما هو ؟

هل السير طويلا مغرق فى الارهاق لا هوادة فيه ؟ اذن فلتتوجه الى المتعة الساكنة التى تقتضيك الجلوس بجوارها وهكذا يفعل القائد : يصنع قائدى أزرارا جميلة فلديه مخرطته وأدواته ، وقد وضعها فى أحد أطراف الحظيرة الكبيرة التى شيدها فى نهاية الحرب حينما شرب مساعدو القيادة العليا من الضباط نخبه واستودعوه الله . نعم انه كان أحدمساعدى القيادة العليـــا للجيش ، وفى غضون حربين عالميتين عالج عملا من أقسى الأعمال التى نيطت به ولكن دون أن يعتوره ضعف أو يصيبه جرح وهو اليوم يقطن دارا ريفية منعزلة (فيلا) ســـــاحرة تطل على البحر من الناحية الجنوبية وفى كل يوم هطلت السماء أو أشرقت الشمس ، يجلس الى مخرطته ويصنع بعض الأشياء الصغيرة المختلفة من الأثاث الخفيف والتحف والغرائب ، ويصنع بمـــا لا يكلف الا شروى نقير ، يدا جديدة للمقشة أو مقبضا خشبيا لباب حجرة السطح فهذا القـائد صـــناع اليدين وهو يستطيع أن يصنع أزرارا جميلة كبيرة على حين يشرح لك الخسائر الفادحة التى وقعت فى بعض المعارك ويبين الأسباب التى دعت الى تغيير طراز الدبابات فى السنة الثالثة للحرب .

ولو انه انفق كثـــيرا من الوقت على مخرطتـــه لبكيت حزنا عليه ولكنه شديد الذكاء فهو يعلم سر الحياة بتخصيص جزء من الوقت لكل عمل ، فهو يدرس ويقضى كل يوم ســـــاعة فى وضـــع تاريخ حربى ، ويزور قادة آخرين متقاعدين وهو فى سبيل شراء مزرعة يمارس فيهـــا تربية الماعز الدار للبن ، وهو يعلم أطفال الجيران صنع اللعب بالآلات .

وننتقل أخيرا الى اللعب الذى يحتاج الى خفة الاصابع ولا سيما الموسيقى فقد تكون الرغبة قد داعبتك منـــذ زمن طويل فى أن تتعلم البيانو بعد الستين ان بلغت الستين . أهذا جنون ؟ انك لا تستطيع أن تحكم حتى تجرب فقد تكون أصـــابعك ما زالت لينة وأذنك حادة ولكن لا تيأس اذا لم تحقق رجاءك فأمامك آلات أخرى كثيرة ، فقد تعلمت هذا احدى صديقاتى القدامى فانها كانت تود أن تعزف البيـــانو ولكن لم يتسع وقتها لذلك اذ كان عليها أن تعمل كثيرا وطويلا وحينما اقتربت من السن التى تعتزل فيها العمل صممت على ان تبدأ فى تحقيق أمنيتها التى طال عليها العهد وبدأت فى التنفيذ . وأخفقت .. ولم يكن اخفاقها قليلا بل كان تاما وفظيعا ، فهل تملكها القنوط وألقت بنفسها الى البحر ؟

لا لم تفعل هذا بل تناقشت فى مشكلتها مع أصدقائها وقال لها أحدهم وكان رجلا عمليا ان العزف على الناى لا يحتـاج الى المعقد من أعمال الأصابع فجربته بطلتنـا وقد مضى عليها أكثر من عشر سنوات وهى تعمل فى احدى الفرق الموسيقية .

ثم توجد الرحلات . وان ما كان مذاقه لحما فى فم أحد الناس قد يكون مذاقه اسفاناخا فى فم غيره فلا مشاحة فى اختلاف الأذواق حتى لو كنت أعلم علم اليقين ان اللفت أو الجزر الابيض كريه فيجب أن نكون واسعى التفكير وعلى ذلك اسجل على نفسى أنى ممن يحبذون الرحلات بعد سن الستين وان البعض ليقضـون كل وقتهم فى اللعب وآخرين يقضونه فى المطالعة . اما أنا فأوثر ارتيـاد مختلف الأماكن فان قضاء بعض الوقت فى الارتحال خير الأشياء ولكنـه ليس خيرا من الرحالة ذاته .

ولنتناول الحالات التى توضح ما تقدم : انه لا توجد أمراض ولكن يوجد مرضى وهذا ما يقوله عقلاء الاطباء . ولاتوجد قوانين وانما يوجد قانونيون وهذا ما يقوله أعقل المشرعين . وهذا ما أقوله أنا عن الارتحال فلو دققنا فى استعمال الألفاظ لقلنا انه لا يوجد ارتحال ، وانما يوجد رحالة وعلى ذلك لا نستطيع أن نتهم الارتحال ونلومه الا بالعتب على بعض الرحالة ، ولا نستطيع أن نشيد به الا بمدحهم وذلك لأننا بدأنا الآن نرعى جانب الأشخاص .

أتذكرون ثورو (١) لقد كان يقول « أن من العبث أن تطوف بأرجاء العـالم لتعد القطط فى زنجبـار (٢) » وهى كلمة حكيمة ومع ذلك فنحن نعلم ما لم يفعله ونحن نعلم أنه توجد أشياء كثيرة يفعلها الناس فى رحلاتهم أدنى الى الخبل من عد القطط ومنذ أكثر من قرن لم يدرك ثورو ، ليمن طالعه ، الحشرات الكريهة التى اجتاحت العـالم وحملت كثيرا من الأجانب على السخرية لأنه لم يعرف السائح ولم يلق طول حياته الرجل الذى فقد الشجاعة على تعاطى المسكرات فى دياره فيفر الى باريس يستنقع فى المشروبات الكحولية . ولا المرأة التى لم تستطع أن تعـود نفسها الخنا البرىء فى موطنها ، ولكنها لم تخش أن تنغمس فيه فى أحد فنادق طرق باريس المنزوية ، ولا الفتى الذى ادخر مالا يستعين به على الرحلة الى شانغهاى فيفقده جميعه يـوم وصوله فى وكر للمسكرات فى

(١) Thoreau : Henry David (١٨١٧ – ٦٢) أحد علماء الطبيعة الامريكيين وكان راهبا معتزلا الناس .

(٢) جزيرة فى الشمال الشرقى لمنطقة تانجانيقا جنوبى مستعمرة كينيا بافريقية .

الميناء ، ويضطر أن يمتهن غسل الاطباق على السفينة لقاء أجر عودته كما لم يلق تورو الارملة التى ورثت المال عن زوجها فتشترى تذكرة لرحلة بحرية فاخرة حول العالم وكل همها ان تلعب لعبة البردج فى كل فندق وفى كل سفينة ولا تقف أكثر من دقيقة لتتعرف أهى فى السويس أو فى كراتشى؟

والكلب حقير المنبت لا يتحول الى كلب حراسة طيب اذا ما طاردته ولو سافر المخبول من الأرض الى القمر وعاد منه لما ازداد مسحة من التعقل فالرحلة لا تصطبغ الا بما تصبغها به وانت كما انت ، وهذا ما يزيدنى ابتهاجا . ولو أوتيت من الصبر ما قادك الى مطالعة كتابى حتى هذه الكلمات ما عددت بين كبار ذوى الغفلة وعلى الأقل لن تكون أكثر من المؤلف فى هذه الناحية والراجح انك لا تحدث نفسك بقولك : « والآن وأنا على وشك اعتزال العمل سأذهب وأرى جميع الأماكن التى قرأت عنها » والغالب ان خبرة نصف القرن الماضى تغلى فى أعماق نفسك وقد عشت خلال حربين عالميتين ومر بك أشد الأزمان ضنكا وعرفت أن كثيرا من مفازع يومك منشؤه الجهل الذى ساد العالم عن هذا العالم ويحتمل انك تريد ان تعلم بادىء ذى بدء كيف تتشكل الاشياء وما الذى يحمل روسيا على أن تحجل والولايات المتحدة على أن تحضر وتعدو .

والغالب أيضا أن يكون لك ابن أو ابنة أو أخ أو صديق حميم قضى سنوات فظيعة فى احدى جزر المحيط الهادى أو فى بعض الغابات أو فى بعض مجاهل افريقية أو فى عشش المانيا أو أكواخ اليابان أو ايطاليا ،وسمعت أساطير غريبة ورايت ندوبا مخيفة وتعجبت من أفاعيل القضاء والقدر فهل هذا عالم واحد أو هذا هو الفوضى ؟ ومتى تنشب الحرب العالمية التالية وأين تنشب ولم تنشب ؟ .

وهذا ما يجب أن يرسب فى الذهن المفكر عندما يبدأ العصر الذرى وهو يمد الارتحال جدية لم تكن له من قبل فقد أصبح الارتحال جزءا من الحياة ولم يعد الارتحال متعة للثرى ومهربا للملول والعليل . والارتحال أول مادة تدرس فى المدرسة بعد القراءة والكتابة والحساب .

أى انه لقراء هذا الكتاب الذين لا يعنيهم كثيرا ذلك التوكيد البالى من ان الارتحال يوسع المدارك لأنهم يحبون الارتحال لأنه يعمقها ويسرهم أن يطوفوا بالبلاد للذة التطواف .

هل بنا من حاجة للتعرض لتفاصيل الثورة التى ستجتاح الارتحال ؟ وهل بنا من حاجة لنؤكد للذين اعتزلوا العمل ان العالم

عالمهم وقد نالوه بثمن جعل الارتحـال أقل نفقة من كراء الدور ، وانظر الى قيادة السـيارات فهى تقطع أميالا أكثر بجالون البنزين وتعيش العجلات زمنا أطول وزادت الطرق الرئيسية التى تسير عليها السيارات أميالا جديدة : أميالا فى الصين وجاوه وأميالا فى الهند وأميالا فى البرازيل وأميالا فى المكسيك وكندا وأميالا فى الفلبين واستراليا وأميالا فى أوروبة وبريطانيا وأميالا وأميالا فى كل مكان وعلى كل هـذه المساحات الشاسعة الاطراف الجديدة من المسلح محطات طيبة لخدمة السيارات وفنادق أنيقة ، وأنظر الى القطارات انها ستصبح فى شـمالى امريكا بعد عام أو عامين اعجوبة من الاعاجيب والمكسيك تستبدل بما لديها منها عربات وقاطرات من أحدث طراز . وانظر الى السفن فان أساطيل كبيرة جديدة فى سبيلها الى البحر وبها من وسائل الراحة والكماليات ما لم يخطر بالبال منذ عشرين سنة وستقلك الى اى مكان بأجر أقل مما كانت تتقاضاه من قبل . وانظر أخيرا الى الطائرات فهى خير وسائل النقل فى العصر الذرى وان فى امكانى أن أضع عنها وحـدها كتابا سيكون العيب الوحيد فيه أن كل كلمة ترد به سيكون قد عفى عليها الزمن قبل أن يصل الكتاب الى قرائه .

عندما انتهت الحرب كان الانسان يسـتطيع أن يطير فى طائرة تجارية من لندن الى نيويورك فى ظرف اثنتى عشرة ساعة أما اليوم فقد أعلن جدول للمواعيد لا يستغرق فيه قطع هذه المسافة الا تسع ساعات وسينخفض هذا الزمن غدا الى ست ساعات وهـكذا الحال فى جميع القفزات الاخرى فمددهـا اليوم أقل بمقدار الربع وستقل فى الغد بمقدار النصف .

ولكن لم كل هذه السرعة انها قد تفيدنا فى الحرب ولكن ما قيمتها فى العزلة السلمية ؟ وهذا السؤال عادل ويجب أن يكون جوابه عادلا .

انها تفيدكم معشر المتقاعدين كما أفادت المحاربين اذ أن معناهـا انه فى كل شهر تخصصه للفرجة على العالم تضيع وقتا أقل فى الانتقال الى الاماكن وتكسب وقتا أطول لرؤية الناس والاشياء بهـا وبذا تشحن الزمن بلذات أكبر وثقافة أوسع مما كان يتاح لك اذا كنت قضيت معظم وقتك فى السفر ذهابا وايابا .

حينما كنت فى مقتبل العمر كنت اتحرق شوقا لزيارة استراليا فماذا كان يحصل لو انه كان لدى الوقت والمال ؟ كنت اقتطع تسـعين يوما فى أحد فصول الشتاء لأدرك فصل الصـيف فى النصف المقابل

من الكرة الأرضية ولكنت أنفق الأسابيع فى سبيل الوصول والأسابيع فى سبيل العـــودة فلا يبقى لى وقت أقضية هناك أما اليوم فالامر جد مختلف ·

ثم ان ، الزيارات القصيرة للأماكن القريبة قد اختزلت الطيـــارة الحديثة مسافاتهـا فاصـــبحت كأطراف الابر ويكاد المرء معها لا يغادر بلده ·

وفى الأيام الغابرة كان الناس يأوون الى أماكن يقيمون فيهـــا ولايغادرونها الا للعودة الى الوطن لتشييع جنازة العم « اد » أو لتحصيل أموال الرهن ولذلك كان اختيار المكان يتطلب منهم عناية لأنه يجب أن يكون صالحا للاقامة فيه زمنا طويلا فمـــا أكبر الفرق الآن · ان الوطن هو حيث تعلق قبعتك « لو أن لك قبعة » ·

حقا ان المرء يستطيع الآن أن يتحرك بحرية حيث يشاء بغض النظر عن المكان الذى يقطنه ، فهل رحل هو الى سويسرا ؟ نعم ولكنه سيهبط روما هـذا الاسبوع ليقـابل صديقين قديمين ونحن ننتظره ثم يعود ولـكنه لا يستطيع الاقامة طويلا لأنه على موعد مع شخص فى اسكتلندة سيصحبه لقضاء أسبوع فى صيد السمك فننتظره مرة أخرى فيعود ولكنه يعود وهو فى لهفة لحشو حقيبة أخرى يطوح بها فى سيارته ثم يغادر متوجها الى ايرلنده ·

أتظن هذا محض خيال ؟ كلا فان صديقة لى من أقدم أصدقائى وهى جدة من ذوات الســنين المليئة بالحيوية والمرح تقاعدت منذ ست سنوات وهى تطير حول البلاد كأنها فراشة سكرى فهى هنـا الآن وهى الآن قد رحلت وهى الآن تحط فى باريس وتعقـــد فى فرح اجتمـــاعا لأصدقائها وهى الآن تقضى أسبوعا مع شقيقة لها فى ادنبرة فهل هـذا يكلف مالا ؟ حسنا انها راغبة فى العمل جزءا من وقتها لكى تنعم بهذه الرفاهية ولهذا فهى تكدح نحو شهرين كل عام بأجر حسن لتوفق بين خرجها ودخلها فالوطن هو حيث تضع قبعتها وان لديها ست قبعات ولذا فان لها ستة مواطن أم هل بهذا الحساب شيء من الخطأ ؟

ولى صديق قديم آخر كان فى وقت ما استاذا باحدى الكليات وهو أيضـــا سريع التنقل من مكان الى مكان ولكن لا بمثل تلك الجرأة فهو لا يملك من المال ما يمكنه من القيام برحلات الجدة المتتابعة غير انه يطوف ولا يعرف أحد مقره فى زمن ما وان له جوسقا خشبيا لصيد الأســماك بالقرب من بنزانس(١) وهو يذهب الى الريف فى شهر يوليو من كل سنة

(١) Penzance مصيف في مقاطعة كورنوول في الطرف الغـربى الجنـوبى من انجلترا .

حيث يقضي أسبوعين وهو يستقل الحافلة (الاتوبيس) ذهابا وايابا بين محل اقامته الرسمي الذي نسيته وبلدة صغيرة في الريف حيث يشتغل ابنه وهو يرتب هذه الرحلات بدخل أسبوعي قدره ثمانية عشر جنيها ولكن لا تسلني أكثر من هذا فان السياسة المالية العليا أكبر من طاقتي .

ما الذي تستخلصه من الاسفار ؟ أتستخلص ضحكة تسخر بهـا من احد الفتيان الوطنيين الذين يغوصون في البحر حـول باخرتك في احدى الموانى الاستوائية لكي تنفحه ببعض المال ؟ أو صورة فوتوغرافية سريعة لبركان فيزوف(١) أو شهقة اعجاب بتاج محل(٢) أو غضبة من تاجر السجاجيد في سوق شرقية أو نكتة وقحة يسردها عليها جراح السفينة ؟ من يدرى ؟ ان السفر هو ما تصنعه أنت .

فاليوم تستطيع أن تجعل الارتحال مقدمة لدولة عالميـة اذا أردت وتستطيع أن تجعله نقطة البداية لفهم جديد للعالم وتستطيع أن تجعله رياضة لطيفة تكتشف في خلالهـا ان أكثر الاجانب لا يحبوننا ولماذا ، تستطيع أن تجعله نوبة سكر حول العـالم أو طوافا بالمواخير في أرجاء الارض أو أي شيء تريده ، فأنت أنت .

واذا كنت تميل بعد الستين الى الهرب من عالم قاس لا تقـوى على مواجهة قسوته فاختص الكتب ببعض وقتك .

واذا أردت أن تتعلم بعض ملايين الأشـيـاء التي لم تجد وقتا لدراستها ابان شبابك فاختص الكتب ببعض وقتك .

واذا آثرت أن تواصل السيطرة على ناحية من نواحي المهـارة أو العلم التي شيدت عليها مستقبلك في سني النشاط فاختص الكتب ببعض وقتك .

واذا توقف عقلك توقفا تاما فاختص الكتب ببعض وقتك .

وليس من كتاب هو علاج عالمي ولكن الكتب تتالف منها عقاقير الروح ، ولا يوجد رف لصيدلي يحمل من العلاجات والمسكنات وموانع الأمراض ما تحمله مكتبة عامرة .

كيف أخبرك بما يجب أن تقرأه وأنا لا أعلم مواجعـك ولا ميولك فان ما يمنع التهاب أصابع القدم لا يشفي وجع الأضراس فللعقل مثـل

---

(١) فيزوف بركان قريب من نابولي بايطاليا . وقد ثار لاول مرة سنة ٧٩ ق.م وخرب مدينتي بومبي . وهرقلة .

(٢) من اجمل مباني الدنيا ، بالقرب من مدينة أجرا بالهنـد شـيده الامبراطور المغولي شاه جيهان تخليدا لذكرى زوجه الحبيبة نور محل . واشتغل عشرون الف عامل في بنائه مدى عشرين سنة وتم تشييده سنة ١٦٥٠ ومعظمه من الرمر الأبيض .

ما للجسم من منغصات ولكل منهـــا كتاب فصف لنفسك الدواء لأني لا أستطيع ان امدك بالكثير •

وحسبي ما أقوله لك : لا تصدق أى انسان يحـدثك بمثل الحديث الآتي : « عليك ان تقرأ أحسن مائة كتاب • واليـك قائمة بهـا وابدأ بالكتاب رقم واحد ، وفى الوقت الذى تفرغ فيه من مطالعة الكتب الواردة فى القـائمة ستكون جديرا بدرجة بكالوريوس فى الآداب من جامعـة بنوم السوفسطائية (١) . »

أحسن ؟ أحسن لأى شيء ؟ لتلميع حذائك أو لحشو حديث المائدة بمقتطفات لاتينية وان باعة المعاطف والكســا قد يعتقدون أنه يوجد أحسن مائة كتاب وكذلك الكثيرون من الدعاة لبعض المعاهد وأعضائهـا ولا يوجد رجل مثقف يأنس بهذه الفكرة السيئة أكثر من عشر ثوان • اطعم خرافك قشا معصوفا لتوفر على نفسك ثمن البرسيم الجيد وسـتجد النتيجة مدهشة الا للأغنام وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة قبل أن تتمكن من بيعها • وغذ نفسك بأحسن مائة كتاب لتوفر عليها مشقة التفكير وتعليم النشء كيف يفكرون •

وكما هى الحال مع الشبان فهى كذلك مع الشيب : لا توجد خير كتب لكل غرض والعلاج الشامل لم يعد شـــائعا ولكن اذكر رغباتك وأهدافك ثم ابحث عن الكتب التى تعالجهـا فقد تجد بين كل ألف مجلد على أرفف دور الكتب عشرة هى خير ما يتفق مع حاجتـك وقد لا يكون بينها ما قد سمع به بائع المعاطف والكسا غير ان كلا منها قد يكون خيرا لك من الانجيل والتوراة بل دائرة المعارف البريطانية •

ولا يخدعك من العلماء والمتصرفين أمثال جون رسكين (٢)

ولعلك تذكر كلمته التى يستشهد بها كثيرا وهى :

« لما كانت الحياة قصيرة جدا وساعات الهدوء فيها قليلة كان واجبا علينا ألا نضيع شيئا منها فى مطالعة كتب لا قيمة لها » • وهذه عاطفـة

---

(١) Buncombe ، Bunkum اســـم مقاطعة في ولاية كارولينـــا الشـــمالية ويقال ان ممثلها في مجلس العموم اخذ يتكلم طويلا في المؤتمر النيابي كلاما مملا مسهبا لا موجب له . فأطلق اسم هذه المقاطعة على الثرثرة التى لا طائل تحتها . كما اطلقت كلمة السوفسطائية على فرقة ينكرون الحسيات والبديهات وغـيرها . والسفسطة كلمة يونانية قديمة ، وسوفسطائى نسبة غير قياسية اليها .

(٢) John Ruskin (١٨١٩ ـ ١٩٠٠) وهو ناقد فنى بريطانى ومصلح اجتماعى كان ذائع الصيت فى زمانه وقضى أيامه الاخيرة فى منطقة البحيرة Lake District حيث خلد اسمه باقامة نصب له فى Friar's Crag ببلدة درونت واتر Derwentwater

نبيلة دون ريب ، وكان يمكن ان تكون أكثر نبلا لولا ان رسكين نفسه كتب عدة كتب لا قيمة لها كأى مؤلف آخر ما عدا العصابة التى ترتزق من التصنيف في الفنون والآداب وربما كانت ذات فائدة له ولكن لم تكن ذات فائدة لى ولا لكثير من الناس الذين عرفتهم وبينما أنا أعبث باصبعى ببعض صفحات هذه الكتب أتخيل نفسى فى حضرة رجل من رجال الكهوف وهو قابض على آلة غامضة ويقول « ان هذه الآلة لتفلية الديناصور (أو الزواحف العملاقة المنقرضة) وهى صالحة للعمل » .

حقا انها قد تصلح لهذا العمل تماما ولكنى لا أملك هذه الزواحف وما كان لدى منها لا تحتاج الى تفلية .

اختص الكتب بكثير من الوقت اذا كنت تعرف ما تحتاج واذا كنت تستطيع المطالعة واذا كنت ترغب فى أن تدرس بالجد الذى يتطلبه الموضوع والهدف وهذا كل ما في الأمر فهو معقد كما لو انك توجهت الى الصيدلانى طلبت اليه أن يعطيك دواء مفيدا .

فيسالك بأدب « مفيدا فى أى غرض » .

فتجيبه : ويتصيد المساعد شيئا .

ويغلفه وهو يقول « ثلاث مرات يوميا قبل الأكل » .

فتتعاطاه ونحن نرجو مخلصين أن تشعر بتحسن منه » .

واذا تعاطيت قبل أن تأوى الى فراشك قصة مزعجة تدور حول الشئون المالية أو التزوير أو الدعارة فهل تساعدك على النوم العميق ؟ تعاطها بدلا من المسكنات .

هل يحملك كتاب النكات لجو ميلر (١) على الضحك حتى لا تضطر الى أخذ ملين . اذن فاقرأ واقرأ .

هل قضاء ساعة مع ارستطاليس تثير مشاعرك اذن تحمل الصدمة واصطبر عليها .

عشرة آلاف هدف وعشرة آلاف كتاب تعالجها وهذا ما يجعل الناشرين مستمرين على أعمالهم وينشط تجارة النظارات ويحمل الكثيرين على أن يفرقوا بين « أ » و « ب » والآن وقد حل العهد الذرى

---

(١) Joe Miller (١٦٨٤ - ١٧٣٨) كان ممثلا كوميديا فى فرقة درورى لين Drury Lane وبعد وفاته استخدم جون موطلى Jhon Mottley اسمه في ترويج واذاعة بعض الفكاهات والملح .

فان الوفا من الكتب القديمة قد فقدت ما كان لها في وقت من الأوقات من الفائدة الثابتة لأن المواد التي تتكلم عنها ليست في الوجود والمستويات التي قررتها لا معنى لها الآن — والمثل العليا التي تشيد بها أصبحت توهات وسيكتب بعض الكتاب كتبا جديدة لتحل محلها فترقب ظهورها ٠

ان اكبر العهود في التاريخ الطويل للنشر يوشك ان ينبثق فجره فقد كانت الكتب يقرؤها العشرات من الناس ثم المئات منهم ثم الألوف أما الآن فسيقرؤها الملايين وما لم تدهسني سيارة محملة بالفراولة وأنا اتطلع الى اخبار تجارة الكتب فاعيش لأرى بضعة من الكتب يقرؤها عشرات الملايين ولن تكون الكتب الأولى منها كتبا عظيمة بأية حال من الأحوال ولكنها تسد حاجة الساعة فاذا ما اختفت الحاجة اختفت معها الكتب ٠

واذا كنت تقرأ للهرب أو للتطهير الامعائي كان لك أن تتجاهل ملاحظتي التالية لانها لا تنطبق الا على ما نسميه عادة بالقراءة الجدية ٠

واذا كنت تقرأ كتابا جديا لتتعلم منه شيئا فلا تقرأه بل ادرس دائما وانظر الى المجلد نظرتك الى الكتاب المدرسي وضع علامات على الموضوعات الرئيسية فيه واستذكر فقراته المهمة واكتب ملخصات له فصلا فصلا واني أطلب اليك أن تعمل هذا العمل مرة واحدة لا غير فاذا لم تسرك النتائج فلن أعيد على سمعك الموضوع ثانية ٠

ومعنى هذا انه يجب عليك أن تطالع الكتب الجدية في أناة وعلى فترات متقاربة فان لهذه الطريقة مزايا أخرى ليس أقلها شأنا أن تشغل بها ساعات عدة حينما تشعر انك متعب لا تقوى على ارتداء نعليك ٠

ومعناه أيضا انه يجب أن تناقش الكتاب مع بعض الأذكياء الذين يرغبون في مناقشة كل نقطة حتى الثمالة وهذه نصيحة يراد بها ان تبلغ الكمال وقلما تجد رجلا له مثل هؤلاء الأصدقاء فان الحياة العصرية تبطت المناقشة ، ولهذا فان أغلب الحديث عن المسائل الجدية انحط الى بعض عبارات قليلة أسيء استعمالها ٠ ذكرها بعضهم في احدى المجلات — أم ترى كانت في احدى الصحف اليومية — منذ أيام قليلة عند الكلام على شيء نسيت ماذا كان وبهذه المناسبة الم تكن صورة القرد السكران التي ظهرت في مجلة بنش (١) عجبا من العجب ؟ ٠

---

(١) Punch مجلة لندنية مشهورة مصورة تصدر أسبوعية ذات اسلوب فكاهي وكان اول صدورها في سنة ١٨١١ — ومعنى هذا الاسم لغويا : المقراض ٠

نعم اختص الكتب بمزيد من الوقت ٠

واختص التفكير ان استطعته بجزء كبير من الوقت وان لم تستطعه فاستخدم الوقت في اللعب أو في الضحك أو فيما تشاء ٠ وليس شيء اشد عمقا من محاولة اغبياء الهواة حل مشكلة تستدعي مجهودا ذهنيا ضخما من النوع الذي نسميه تفكيرا .

فالتفكير هو حل مشكلة « في رأسك » أي بمحض التذكر وبالمقارنات وبالاستنتاج وبوسائل العقل الأخرى ويقع نصف العمل على صحة صياغة المشكلة ولم نجد حتى اليوم آلة تستطيع أن تقوم بهذا النصف فقد صمم الناس آلات حاسبة عجيبة تبدأ من آلات الجيب التي تقوم بالجمع الى آلة انياك « Eniac » هذا الجهاز الضخم الذي يعالج مشكلات تجاوز مقدرة آحاد الناس غير ان جميع هذه الأجهزة لا تقوم الا بعمل شيء واحد هو حل المشكلات التي تغذى بها وهي لا تستطيع أن ترى المشكلات ولا تستطيع أن تقسمها الى أجزاء ولا تستطيع أن تضغط أزرارها بنفسها ولا أن تشد مفاتيحها عندما تذكر نتائج المسائل فالانسان والانسان وحده هو الذي يستطيع أن يرى المشكلات وان يذكرها ويحتمل أن يبقى هذا حتى نهاية العصر الذرى الشيء الوحيد الذي يدعى الانسان الانفراد به ٠

فالتمسك برأي لا ينهض دليلا على بذل مجهود في التفكير للوصول اليه فمن الأغلاط الشائعة بين هواة المفكرين أن يعدوا الرأى دليلا على المجهود الذهني وعلى هذا فان محررى احدى المجلات التجارية التي ظهرت أخيرا قد أفاضوا في الكتابة عن أسطورة العقل البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة وشرحوا كيف ان البالغين أحسن تفكيرا من الاطفال لأن لديهم آراء من أنضج ما اتخذ في جميع الأشياء على اختلاف أنواعها وأجرى المحررون استفتاء عاما لاثبات صحة هذه الدعوى أي انهم كانوا واثقين كل الثقة بأنفسهم غير ان الاستفتاء لم يثبت الا أن كثيرا من الناس لهم آراء يجدها كثير من الأذكياء الذين فكروا في المسائل المتنازع عليها انها سليمة صحيحة ٠

« أتعتقد ان التجارة مفيدة للبلاد أو ضارة بها ؟ »

ويجيب معظم الناس « انها مفيدة » ٠

فكم منهم من حل مشكلة لها اتصال بقيمة التجارة ؟ قد يكون واحدا فقط على الأكثر لأن أكثر الآراء تنبثق عن العادات القديمة وتنحدر

العادات من الآباء والمعلمين والمجلات وأحاديث اللاسلكي ومن حديث الظهيرة المزوق الذى يلقيه المدير العام فى المصنع .

وبعد الستين لا تخدع نفسك بأسطورة التفكير واذا رغبت فى أن تخصص جزءا من الوقت للتدريب العقلى فيجب ان تبدأ بمشكلة حقيقية من مشاكلك فهذا يكون لك الحافز الصحيح . ويجب ان تسير بطريقة منتظمة لترتب أدلتك وتختبر كل مادة وعليك أن تراجع كل نتيجة تستخلصها وفى النهاية ستكون قادرا على أن تعرض حالتك برمتها متوقعا لها العواقب التي انتهت اليها وما لم تستطع ان تفعل ذلك فلم تكن تفكر فى الأمر بل كنت تستسلم لرأى قديم أو على أسوأ تقدير كنت تحدس أو ترجم بالغيب .

والتفكير عمل شاق واشق مما يستطيعه كثير من الناس ولست احضك على أن تضنى نفسك به ولكن ان كان لك ميل للتفكير فواجب على الا أدخر جهدا لتشجيعك عليه فأى شخص جاوز الستين ممن لهم عادات سليمة فى التفكير ليستطيع أن يأتى بالعجائب اذا التزم المثابرة والصبر اذ يجب عليه ألا يشتط بعيدا عن الموضوع بل يستغل لأقصى حد مهارته القديمة وتمرسه بموضوعه . والطبيب المتقاعد يحسن صنعا اذا خصص جزءا من وقته للتفكير فى بعض المسائل الطبية ، والقانونى المتقاعد يتالق كاسطع مايكون اذا فكر فى بعض المسائل المتنازع عليها ذات الصلة بالقانون . وهلم جرا .

وان العالم ليتالم أشد الألم من قلة ذوى التفكير السليم فى عشرات الميادين وبخاصة ما يتعلق منها بالمسائل غير الاقتصادية ونحن بحاجة الى الألوف من الرجال والنساء ذوى الخبرة الواسعة الذين يستطيعون أن يفكروا فى حلول للمسائل التى يتجاهلها الرجال المشغولون بجمع المال وسنعود لهذا الموضوع فيما بعد.

اختص الناس بجزء من وقتك واحذر أن تستخدم الوقت كما تستخدمه الكثرة من الناس ودعنى أنصح لك عن بعض الأمثلة الفظيعة التى تؤذينى أكثر مما تؤذيك .

يعيش فى بقعة جميلة اثناعشر شخصا أو يزيدون وعليهم جميعا أن يعيشوا عيشة متواضعة على قليل من رواتب الاستيداع والمدخرات وانا على يقين أن ليس بينهم من يملك أكثر من ٥٠٠ جنيه فى العام وهم يجتمعون مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع بمسكن أحدهم وأخذت ادارة

« مخابراتي السرية » في مراقبتهم وتسجيل تحركاتهم على الساعات الميقاتية الدقيقة التي معهم وقدمت التقارير الآتية :

ان ثمانين في المائة من الوقت بين الساعة السادسة ومنتصف الليل اختصت بها السيدة « جلوك » في التحدث عن هرتها الفارسية والسيد « جليك » في الاشادة بصفات كلبه الأشعث الاليف والآنسة « جلك » تشرح مرض قططها الاربع والسيد « جلورك » يثنى على ببغائه وعلى الجمل التي تعلمها أخيرا والآنسة « جلرك » تتلو قصيدة جديدة عن عصفورها الكنارى والسيد « جليرك » يتحسر على الموت الفجائي الذى نزل بدبيه الصغيرين ذوى الفراء الثمين ·

وتضيع عشرة في المائة من الزمن في احتساء مشروب خفيف من الخمر الامريكي المعروف باسم كوكتيل يتلوه مشروب قوى من مستقطر عصير قصب السكر (روم) فمشروب أقوى من مستقطر أرواح الحبوب (جن) ·

وتستغرق خمسة في المائة من الزمن حكاية الحكايات القديمة بل العريقة في القدم التي شحب لونها لدرجة تجعل الآنسة جلرك تستلقى من الضحك والسيد جلورك يخور كما يخور الثور ·

وينتهي المساء وقد اشتد السكر باثنين أو ثلاثة من الأعضاء فلا يستطيعون العودة الى دورهم ويفترشون الأرض حتى الصباح ثم يتمتعون بخير سنى حياتهم ·

يشرب الشبان الخمور للانتعاش ويشربها الشيوخ للنسيان وما أعجب ما ينسون ! ان لديهم الكثير مما يجب أن ينسوه فعليهم أن ينسوا السنين التي أضاعوها هباء والغش والخداع الوضيع ، والأصدقاء المخدوعين والفرص التي أفلتت وما أقدر الصديق الذى نجده في باكوس اله الخمر . أن المد في بحار الكحول يزيد مايبتلعه منا يوما عن يوم ونحن بغرقنا فرحون لأنه ليس لنا ما نعيش من أجله .

وهذه الأمثلة الفظيعة تبين لنا الطريق التي يجب الا نستخدم سنوات العمر الأخيرة فيها واذا كان لا بد فيها من معاشرة الناس فلنعاشرهم لغرض غير غرض التهرب من أنفسنا ·

وخير طريقة للافادة من عشرة الناس هو العمل على الحصول على شيء يستحق الذكر . ما هو ؟ ان أمر اختياره متروك لك . فأنت تعلم مايصلح لك أليس كذلك ؟ : اذن اجتمع باخوانك وتذاكر معهم فيه وانظر

ماذا يرون واستمع الى مقترحاتهم وارسم لنفسك منهجا ، وحتى لو اخفق هذا المنهج فسيخلفك مملوءا بالحياة ولن يغلبك النعـاس فتسقط صريع الخمر على بساط بعض الناس .

يأتى العصر الذرى بفرص عظيمة لأولئك الذين يتلذذون بالصـور المتـحركة واللاسلكي والرسم والكتابة ولعـلك تذكر الجدة موزس ومعرضها الضخم المملوء بقطع الكتان وقد رسمت كلهـا بدهان الزيت بعـد أن جاوزت السبعين . حسنا ان الوفا غيرها من النـاس جاوزوا الستين بعدة سـنوات يسـتطيعون أن يستشعروا من الفن لذة كالتى وجدت وان لم يضارعوها فى عبقريتها الشاذة. وكم من رجل لايستطيع أن يصنع صورا متحركة أو أن يقيم معرضا لأجهزته اللاسلكية يستطيع أن يسترد من الوكالات التجارية كثيرا مما انفق بفضـل ما انتشر فى أرجاء العالم من أسواق جديدة سريعة النمو .

تأمل أولا فرصك فى الصور المتحركة .

صنعت صديقتى الفاضلة مارى برادى بعض الصور المتحركة منذ بضع سنوات لتعلم الناس قيمة المرتبات السنوية وأهمية أخذ الأهبة للتقاعد قبل حلول أجله بمدة طويلةوهى لم تذهب الى هوليوود بل بقيت هاوية والحمد لله ، واختارت ممثليها من بين الاصدقاء وأصدقاءالاصدقاء فأولا استحضرت أمها وهى وان كانت طاعنة فى السن لكنها تسـتطيع أن تتحرك ، ثم وجدت امراة كانت ممثلة منذ ازمان وأزمان وأتى بعد ذلك المشرف على مبنى المكتب ثم الخادمة المنوط بها أعمال التنظيف .

وكانت القصة والتمثيل فى مسـتواهما الطبيعى ولم يكد يبعد الممثـل عن تمثيـل شخصه وساد الرواية جو الاسرة البسيطة واتفقت الأدوار مع نشاط الممثلين وميولهم .

وسرت القشعريرة فى أجسام الشيوخ والعجائز وخرجوا منهـا مارى برادى ليقنعوا بأن متقدمى السن يجب أن يشاهدوا شرائط (أفلاما) تهذيبية وهذا كلام أراه أنا أيضا معقولا وفى الحق انه يقرب من أن يكون فكرة زاهية براقة .

وللشرائط التهـذيبية تاريخ غريب وانا أعلم الكثير عنهـا لانى أسهمت فى خمسة مشروعات على الأقل فى الأيام التى لم يكن يعرف فيها أحد شيئا بل كان كل انسان راغبا فى تجربة اى شىء مرة ، ولايجاز التاريخ فى عبـارة او اثنتين أقول ان تعليم الدروس التثقيفية أخفق

تماما مع ان تعليم الصفقات المـــالية لاقى نجاحا بهر الأنظار · والصور المتحركة قليلة القيمة الى أن يضطلع بهــا المعلمون والشراح ولا قيمة لها لو عملت على نسق المتبع فى هوليوود .

فى غضون السنة الاخيرة بدا للشريط التثقيفى مســـتقبل زاهر واخذ الشريط الضيق يحتل مكانه وتـستفله أكبر شركات الصور فى جميع انحاء الأرض وتعدل شركات الشرائط الملونة أجهزتها لتصـــلح للشريط الضيق ·

فالشريط الضيق ـ كما يعلم كل هاو ـ لا يكلف الا قليلا وآلات التصوير اللازمة له صغيرة الحجم خفيفة الوزن ويستطيع الانســـان أن ينتقل بها الى أى مكان يشاء فى ســـــهولة ويسر والتلف العارض الذى يصيبها تافه بالمقارنة الى نفقات الصور وتصوير المناظر فى الخلاء ناجح على وجه العموم ·

غير أن السبب الرئيسى لبيان الدافع لنا على أن نقوم فى « خير سنى العمر » بعمل لا يستغرق الا بعض الوقت · ان هذا السبب لايزال طى الكتمان لم نصرح به : انه السهولة فى تكييف جميع الاعمال لتتفق مع رغبات المنتجين والمديرين وان منتج هوليوود يستأجر ممثلين كثيرى التكاليف وقد يبلغون المائة عدا . وعليه ان يدور حـــول جمـــاعات من المصورين والخبراء فان اضاعة ساعة واحدة قد تعود عليه بخســـــارة تزيد على مائتي جنيه وقد ينفق فى بعض الصور خمسة آلاف جنيه فى اليوم فكيف يستطيع أن يختص نفسه بعطلة يوم يذهب فيه لصـــــيد الأسماك فهو عبد أداته الفظيعة ·· يا لك من مسكين يا فرنكنشتاين !

أما مخرج الشرائط التثقيفية فيكاد لا يجد أبدا ممثلين يتعذر عليه جمعهم أو منحهم عطلة لباقى أيام الأسبوع يقضونها فى مواطنهم بنفقات زهيدة جدا وكثيرا ما يحصـــل على مناظره وممثليه من احد مديرى المصانع الذى يسره أن يلتقط الشريط المدرسى بين آلاته ، وفى ظروف كثيرة يلتقط المخرج مناظره فى الخلاء دون أن يتقيد بأى قيد ·

وقبل الحرب الأخيرة لم يتمكن الا القليلون من المنتجين المســتقلين من بيع شرائطهم التثقيفية اذ كانت ترفض شركات هــــوليوود الكبرى شراءها ، وكانت المدارس اما لاتملك المال لشرائها واما كان الوصول اليها صعبا اذا ما ارادت المدارس ان تستأجر من صانعيها نسخا مطبوعةمنها. ولكن الحرب بدلت كل هــــذا تبديلا وهوليوود ما زالت تشن الحرب الى النهاية فى جميع البلدان الأجنبية تقريبــا . والشريط الضــيق أحد

الاسلحة التى ستستخدمها فالباعة يستطيعون أن يؤجروا عشرات الألوف منها للقرى والدساكر فى جميع انحاء أوروبة وآسيا وافريقية وجنوبى امريكا حيث لا توجد مسارح وحيث يعجز الناس عن المحافظة عليهـا ويمكن أن تعرض السيارات المتنقلة شرائط ضـيقة وتتقاضى ثلاثة بنسات (نحو اثنى عشر مليما) من كل متفرج وتخرج رابحـة من ذلك ويمكن نصب الستارة خلف السيارة واقامة خيمـة حولهـا لمنع من لم يدفع الأجر من الفرجة ، ويمكن أيضـا ان يتبع هـذا النظام فى اندية المؤسسات التجارية والمدارس والكنائس فى العالم طرا وتسـتطيع سيارة الشريط الجائلة أن تحمل معها ٢٥٠ شريطا وأن تعرض منها فى كل محلة ما يستطيع أهلوها ان يدفعوا أجر الفرجة عليها ، وزيادة على ذلك يتوقع قليل من الناس فى المسـتقبل المشرق أن تستأجر بعـض البيوت الخاصة شرائط تثقيفية وغيرها من الشرائط الضيقة واذا ابتعد الناس عن دور الصور اذا ما انتشر التليفزيون Television فقد يرون فى انفسهم الرغبة فى رؤية صور أكثر جدية مما يستطيع أن يقدمه جهاز الرؤية عن بعد واذا اسـتطاعوا أن يروها فى دورهم لكان ذلك أدعى لراحتهم ٠

فالتطور السريع سائر فى طريقه فارقب ما يثيره من التراب ٠

ان ستة من الرجال والنساء فى احدى المناطق يسـتطيعون ان يجمعوا فيما بينهم ذكاء ومالا ويصنعوا صورا متحركة جديدة ومفيدة ٠ وماذا لو انهم اتلفوا بعض الوف الأقدام من شرائط التصـوير اثنـاء محاولاتهم تعلم طرائقه وحيله ٠ هبها انفقت فى سبيل التعلم ولا تنس اللذة التى تمتعت بها ٠

وقد حل الآن وقت الشروع فى العمل فأضع سنتين أو ثلاثا لتتمكن من دراسة الحيل وهى كثيرة — وخصص بضع مئات من الجنيهات لما يتلف من الاشرطة وللتوجه الى الاماكن غير الصالحة لأخذ الصور وفى الاوقات غير الملائمة وللسفر الى جهات بعيدة بغير طائل ولما يماثل هذه المسائل من التفصيلات وفى الوقت الذى تكون قد حصلت على شىء يمكن بيعه ستجد له سوقا رائجة ٠

وماذا ترى فى الكتابة ؟ ٠

انها ليست بالغة الحرارة ولكنها دافئة دفئا كافيا ليخرج منها فى الظلام بصيص خافت وان عندنا من المجلات السيئة والكتب الرديئـة ما يزيد على الحاجة ٠ وشر من هذا وذاك عندنا من القراء الرديئين عـدد

أكثر مما يصح وجوده ، وعلى النقيض من ذلك لا يزال قليل من القراء الجادين متخلفين عن الركب ويظهر أن جيشا جديدا أخذ يتكون من بين صفوف القدامى ولم يسبق في التاريخ من قبل أن قرأ عدد كبير من الناس عددا كبيرا من الكتب الطيبة كما حصل في معسكرات جيوشنا وعلى ظهور سفننا الحربية ، وقد تتجاسر بعض النفوس الطائشة مثلي على الظن بأن الشيوخ الشجعان اذا تضامنوا واحتالوا على جمع النفقات فيما بينهم قد يهزون العالم بعشرات من النشرات الدورية المستقبلة التي تفشي الأشياء المكتومة أو المشوهة .

وكثير منا ممن شبوا عن الطوق يدركون الحرية الزائفة للصحف وهي الحرية التي نعيش فيها ونحن نعرف جميع الرقباء ونستطيع أن نطبع أسماءهم وعنواناتهم ونحن نعرف الرجال الصغار الأذكياء الذين يجلسون مثلا في هوليوود ويعملون على ان يدخن الممثلون والممثلات العدد الصحيح من السجائر المقرر لكل شريط مصور وأن يجرعوا العدد الصحيح من كئوس الخمر المقررة له ارضاء لوكلاء الاعلان الذين يستخدمهم صناع الشرائط المصورة والذين يجنون منهم سنويا مبالغ طائلة ونحن نعرف وكلاء الأزياء الذين يرقبون الملابس والقبعات التي تظهر على الستائر .. ونحن نعرف ايضا الرقباء الذين يحذفون كل شيء ابتداء من اللعنة الخافتة الى الملحوظة الخاطئة عن صناعة المأكولات المحفوظة وعن جمعية الله والدولة . والقليل منا يسره ان ينفق المال في قص الاقاصيص المدرسية والسخرية من المحامين الذين يدافعون في جرائم السب والقذف .

أحلاف .. اضغاث أحلام . احلام شيوخ . والآن عم كنا نتحدث؟ آه نعم . عن الفن في سبيل المتعة. نعم ان الكتابة لمجلتك الصغيرة الخاصة ولا سيما كتابة ما يسميه الغير بأنه غير صالح للطبع ينبغي ان تكون في العصر الذرى صناعة ناشئة في دور الطفولة . وثمة أشياء كثيرة أحق بالتفتيت والسحق من ذرات اليورانيوم الصغيرة البريئة ويود مليون من الناس على الأقل ان يصرخوا بأعلى اصواتهم ليحصلوا على نشرات دورية تتحدى جميع الرقباء حتى لو اضطر المشترون الى أن يتسللوا الى بيوت الخلاء ليحصلوا على نسخ منها .

- ٩ -

الانسحاب التدريجي

« أود أن اتقاعد وبي مسحة من الشباب تكفل لي التمتع بالأشياء ».

ما أكثر ما نسمع هذه العبارة من أفواه الناس وما أقل ما نرى الناس يتبعونها .

ان أسهل طريقة لتحقيق هذه الرغبة هي تكوين ثروة طيبة قبل الاربعين ثم الشروع في الضمور والانكماش وعلى هذا فكل ما علي أن أفعله هو ان اظهرك على طريقة تكوين هذه الثروة .

وتتلو هذه الطريقة في السهولة أن تبدأ من السنة العاشرة من عمرك في التضييق في المعيشة فتعيش على الخبز الجاف والزبد الصناعي مع كأس من قهوة الشيكوريا للافطار وعلى اللبن المنزوعة منه قشدته للعشاء وتلزم مكانك لاتبرحه ولا تجتمع بأحد من الناس ولا تعمل شيئا ما فاذا بلغت ربيع العمر فسيكون لديك مال يكفيك للتقاعد أو ستكون بين الاموات وانا ألاحظ عزوفا عاما عن تجربة هذا الأسلوب .

والطريقة التي من الدرجة الثالثة هي أن تبدأ في الانكماش من السنة الاربعين اذا استطعت أو من السنة الخمسين اذا تأخرت واقرأ كيف استخدم بن فرانكلين [Ben Franklin] قواه بعد أن ترك الأعمال وهو في سن الثانية والأربعين .

فالانسحاب التدريجي هو الطريقة الطبيعية المعقولة . وفق بين جهودك وقواك لتتجنب الارهاق والصدمات لأنك اذا استمررت على أداء العمل نفسه بعد ان تكون فقدت بعضا من قواك التي كانت لك وأنت في سن السادسة عشرة فقد تصاب بفتق في بطنك او يضعف قلبك أو تصاب بنزيف. وقد لحقت هذه الاعراض بألوف من الناس نتيجة الاسراع في صعود درجات السلم أو رفع الأثقال أو القيام بأعمال شاقة ساعة بغير هوادة ، وعلى النقيض من ذلك اذا توقفت بلا حراك ولم تعمل شيئا فقد تصدعك الصدمة وليس من رجل ذي عادات حسنة يستطيع أن يتحمل وقفها السريع جميعا ما لم يكن مصابا بمرض خطير .

والرغبة في الانسحاب التدريجي متأصلة في نفوس البشر وتظهر واضحة في الجهود التي لا تنتهي والتي يبذلها الرجل لتقليل ساعات العمل وفي ميله الشديد الى جعل جميع الاعمال سهلة الاحتمال .

منذ قرن واحد فقط كان العمال الزراعيون يكدحـــون من مشرق الشمس الى مغربها فاتخذ الصناع هذا الزمن مقياسا ليوم العمل وبعد فترة شذبوا من أطرافه وقصروه على اثنتى عشرة ساعة ٠

حينما كنت فتى صغيرا كان العمال الزراعيون يعملون نحو ثلاث عشرة ساعة في اليوم الا في منتصف الشتاء وكان يوم العمل فى المدينة عشر ساعات وقد كانت أول أموال ربحتها من اعمال مختلفة بهذا الطول من الزمن ، وكان هز الرءوس التى خطها الشيب ينذر بالسوء اذا طلب اليها أحد العمال أن يكون يوم العمل ثمانى ساعات وأسبوع العمل ستة أيام وكان يقول الأقدمون ان العالم سيصيبه الدمار ، فقصر العمل على ثمان وأربعين ساعة في الاسبوع سيطيح بالاخلاق ٠

فبينما يرغي الشـــيوخ ويزبدون في لحاهم غير المرجلة يهب احد متطرفي حزب الاحرار (الراديكاليين) وبيده مشروع لجعل اسبوع العمل اربعين ساعة ، وكانت المعركة التى شبها حامية الوطيس وسأذكر بعض ملامحها : مواكب تسير فى الطرقات وقتال فى الأزقة وخطباء يتخذون من صناديق الصابون منابر ٠ ومشاعل ذوات أضواء حمراء تشعل أمام المصانع على حين تصرخ الجموع مطالبة بدماء رؤسائهم الحمراء الندية ٠

وأخيرا حل الاسبوع ذو الثمانى والاربعين ساعة ولكن غير مصحوب بأى دمار والآن تطالب اتحادات العمال بأسبوع الاربعين ساعة فورا مع احتمال المطالبة بتخفيضات أخرى فى الزمن فماذا الذى نصل اليه أيهـا الأعزة ؟٠٠ ماذا ؟٠

اننا واصلون بلا ريب الى أسبوع الأربع والعشرين ساعة على ان هذا لن يحصل فى الغد ولا فى العام القابل بل قريبا وأقرب كثيرا مما يتخيله أقدر خبرائنا ٠

فما الذى يستخرجه أولئك السفلة من هذه اللعبة الحقيرة ، أولئك العلماء والمهندسون أنفسهم الذين اخترعوا القنبلة الذرية أولئك الأشخاص المنحطون الفاسدون الذين لا يفتئون يأتمرون على اخراج الاجهزة الشيطانية التى تعين الناس على أن يزيدوا انتاجهم ويقللوا ما يستخدمون لذلك من آلات وأدوات أو طـرائق الـكيمياويات أو الذرات فهـم الذين يعملون فى الخفاء على هدم تلك الحضارة البديعة التى قام بنيانها على تلك القواعد العظيمة من قواعد الحق الخالد وعلى القول المأثور بأن المرء يجب أن يعمل بعرق جبينه وأنه يجب علينا دائما ان نرعى الفقراء أما أعداء المجتمع هؤلاء فقد نجحوا فى أن جعلوا من المتعذر على الناس ان يعملوا بعرق جبينهم بل

يجب على هؤلاء التعساء أن يضغطوا على الأزرار ويجذبوا القضبان ويقرءوا وجوه الآلات وهم أيضا يضعون نهاية للفقر بل يحيلون الطيبين من الناس الى أثرياء ، فالويل لنا .

ويزيد الويل ويلات وويلات .. ان ثلاثا من كبـريات الشركات الامريكية تدفع لعمالها أجورا سنويةلاكثر من عشر سنوات ويظهر أن هذا النظام أعجب الكثيرين ، فشركة هورمل التى تتجر فى الأشياء المحفوظة وشركة بروكتور وجامبل لصناعة الصابون وشركة نن بوش لصـــناعة الاحذية هذه الشركات الثلاث تدفع لعمالها اجورهم لا بالساعة ولا باليوم ولكن بالسنة وكما قال الرئيس روزفلت حينما أقر هذا المنهج « ان المهم هو ما يحصل عليه العامل فى الحادى والثلاثين من ديسمبر » .

وعلى هدى هذه الاتجاهات تكون الساعة الحاضرة مناسبة لمطلبجديد وهو ان العمال الذين جاوزوا الخمسين يجب أن يشتغلوا ســـاعات أقل ولتكن عشرين ساعة في الاسبوع وان يتقاضوا لقاء ذلك أجورا اقل تحدد للسنة واذا كان على العامل ان يزيد كسبه لتتحسن معيشته فليبحث عن عمل اضافى اما فى عمله الاصلى واما فى غيره .

ولا تعط أبدا عملا لشخص يستطيع شخص أسن منه أن يقوم به بالاحسان نفسه أو بما هو أفضل .

ان هذا هو القانون الجديد الذى يجب ان يسود البلاد وانه لهو مفتاح التقدم الصحيح وانه لينتظم آخر حكمة لرجال العلم ودع العـامل يهيىء للعمل ما يناسبه من الأشياء الأخرى فلايزيد منها على ما يجب ولا ينقص عنه .

ولا تعط أبدا عملا لرجل قـــوى يستطيع أن يؤديه رجل ضعيف بالاتقان نفسه . ولا تعط أبدا عمــلا لرجل ذكى يستطيع أن يؤديه رجل بليد بالاجادة نفسها ، ولا تعط عمــلا لعامل سريع يستطيع أن ينهض به رجل بطيء . ولا تعط أبدا عملا لعقل كبير يستطيع أن يتمه عقل صغير . ولم لا ؟ .

لأن الرجال تشكو سوء الانسجام من جانبين : الاول من معالجة شيء يجاوز مقدرتهم ويبعد عن مصالحهم الحيوية ، والآخر من عمل شيء أقل كثيرا من كفايتهم ورغباتهم فخير الظروف للناس هى حينما يبذلون خير ماالديهم من جهد لفعل خير عمل يقدرون عليه لان الروح المعنوى يكون حينئذ فى ذروته وكذلك التنفيذ ونحن نحصل من مثل هؤلاء العمال خير ما فيهم ونحن نحصل حتى على أسوأ تقدير أكثر ما أنفقنا من مال .

فى الايام الغابرة التى كانت الحياة فيها سهلة لا تعقيد فيهـــا ايام

الرواد الأولمن المزارعين كان الناس يعرفون حيل الانسحاب من الأعمال وكانوا يعملون بها بغير جلبة وقد اتبع هذا النظام اخو جدى وكان له أربعة ابناء فكان منذ بلغ الخمسين يزيد نصيب كل منهم من العمل مع تقدمهم فى السن فكان الانتقال من عمل قليل الى عمل كثير ومن عمل كثير الى عمـــل ضخم هينا لينا لم يسترع نظر احد فكان فى هذا بعض الشبه بعمل الولد الشديد فى القصة القديمة الممعنة فى القدم : بدأ الولد يحمل العجل يوم ولادته وصار يحمله كلما نما حتى انتهى به الأمر بأن كان يحمل بقرة كاملة النمو . وحينما بلغ اخو جدى السبعين من عمره كان من سادة الريف ولديه متسع من الوقت يروح ويغدو على حسب ما يملى عليه هواه فقد حل محله الابناء الاربعة وان لم يكن الطول كاملا حتى فى ذلك الوقت لأن اخا جـدى كان لايزال يؤدى بعض الأعمـــال اليومية القليلة حتى لا ينفض يده من العمل تماما .

واتبع الخطة نفسها رصاص (١) « سباك » شيخ أعرفه معرفة تامة فقد اخبرنى قبيل يوم مولده الخمسين انه سيعمل منذ هذا التاريخ ثلاثة أيام فى الأسبوع وطلب الى أن أذكر هذا ولا أنساه فسألته ما العمل لو أن أنبوبة الماء تجمدت فى احدى ليالى شهر يناير فى حين يكون ممتنعـــا عن العمل ؟ فأعطانى « فى وقار » اسمى رصاصين شابين يسكنان المدينة كما اعطانى رقمى تليفونيهما .

واعتاد أن يمر بمنزلى الريفى بانتظام وفى يده شبكة الصيد وعلى قدميه حذاءان عاليان من المطاط ويدل كل مظهره على أنه على أهبة قضاء يوم فى صـــيد ســمك البحيرة الماكر ، وبمرور الزمن خفض أيام العمـــل الى يومين ثم الى يوم واحد وكان آنئذ قد بلغ الخامسة والسبعين وصمم على التخلى عن العمل .

ثم اليــكم حالة الشــــيخ كنتز Kunts الذى ابتعت منه مزرعة عتيقة مملوءة بالحجارة الصلبة كان فى السبعين حينما تسـلمت منه الارض فعرج على كوخ مقام على التل المجاور وأخذ يفلح حديقته فى اخلاص وكان يمر بى كل يوم أحد وعليه احسن ميدعة (مريلة) له وحول عنقه قلادة من المخرم الوصلى (دنتلا من الموسلين)وهو فى سبيله الى الكنيسة ، وبعد ساعتين يعود سائرا بعـد أن يكون قد قطع فى رحلته سبعة أميال وكان يتخلى عن العمـــل بتدرج خفيف الى أن جاوز الثمـــانين وبعد وفاته وجد منفذو وصيته أنه ترك ثروة طائلة وانه كان فى استطاعته

---

(١) الرصـاص الذى يعمل الرصـاص .

ان يسكن المدائن الكبرى ولا يقوم بعمل ما ، ولكن لا ، ان غرائزه كانت سليمة فلم ينسحب من العمل الا تدريجا .

واخيرا اليكم رجل السماد وان كان بعيدا عن ان يكون اقل الجماعة شأنا فقد أردت ان اشترى منه لحديقتى بعض السماد وحاولت كثيرا — دون جدوى — أن اتصل تليفونيا به واخيرا قالت لى زوجته :

« يجب الا تطلبه فى مثل هذا الوقت المبكر وان لدى أوامر ألا أجيب على التليفون الا بعد أن يستيقظ من نومه » .

« ولم هذا ؟ » .

« انه يبلغ الثالثة والثمانين أو يكاد وهو يخرج كل صباح حوالى التاسعة » .

وكنت أطلبه فى منتصف السابعة وبالاستعلام وجدته تاجر سماد من الطراز الفاخر لانه زارع متقاعد يتوجه للعمل الساعة التاسعة ويتركه فى منتصف الرابعة وهو لا يعمل أبدا ايام السبت ولا أيام الأحد ولديه تذكرة اشتراك فى دار الاوبرا التابعة للبلدية وهو يجيد الخطابة فى الشئون العامة . نعم انه هو ايضا فى سبيل الانسحاب من العمل .

ومن أصدق نعم الثروة انها تساعدك على الانسحاب حينما يحلو لك وكم من ثرى أطال حياته ومد فى سعادته لانه بدأ يخفف عن نفسه وهو فى حوالى الخمسين ، ولقد عرفت بعض هذه الكائنات الذكية وكان أقدرهم احد المتجرين بأعمال النشر الناجحين فقبل أن يتم الخمسين استدعى اربعة من شركائه الأصاغر وطلب اليهم ان يضعوا لانفسهم برامج للعمل جديدة لأنه ابتداء من ذلك التاريخ سيتغيب عن المكتب كل يوم خميس وحذرهم من أن يطلبوه بداره أو ناديه أيام الخميس الا اذا كانت النيران قد أتت على المبنى .

وسار الموظفون على هذا النحو خمس سنوات ثم أخبرهم ان يعيدوا تنظيم الاعمال ليتمكن من الانقطاع ايام الاربعاء وأيام الخميس ففعلوا ونجح الترتيب . والآن وقد شارف على الخامسة والستين فهو لا يذهب الى المكتب الا مرتين فى الاسبوع وقد يتصل بهم تليفونيا من وقت لآخر فى ساعات معروفة يشعرهم بالرقابة .

فان كنت حكيما فاتبع فى تقاعدك قاعدتين على الاقل : الاولى ان تبدأ وضع الخطة قبل حلول أجل الاعتزال بخمس سنوات على الاقل لبيان أين وكيف تعتزل العمل . والأخرى أن تتخذ حينئذ العدة للانسحاب بأرفق ما تستطيع حتى لا تغير طريقة معيشتك فى أى وقت من الأوقات تغيرا فجائيا عنيفا .

وانا اعرف ان هذه نصيحة يقصد بها بلوغ الكمال وان ألوفا من الناس لا يستطيعون اتباعها لسبب ما ولكنها مثال أنموذجي رائع ٠ ولأقص عليك قصة امرأة فى منتهى التعقل :

هي الآن فى اخريات الأربعين وليست على استعداد للتقاعد وكانت طوال العشرين سنة الماضية تشق طريقها الى الامام فى احدى وكالات الاعلان وهي الآن رئيسة كاتبات النسخ وتلى مدير المكتب فى المركز وقد توفى زوجها منذ بضع سنين ولم يترك لها شيئا .. فهى تعيش بمجهودها وهى تحب هذا المجهود وانا اعرف السبب لانها فى اليوم الذى بدات فيه العمل وضعت خطتها للانسحاب منه في يسر واناة حتى لا ترتبك من اى تغيير يطرا عليها من أسبوع لأسبوع ، ولما كانت كعادتها ذكية العقل سليمة البدن فقد كانت ايضا سعيدة الجد بما أوتيت من واسع الكفاية التى نجدها بين الكتاب غير القصصيين وهى فى تقدير ترمان Terman شخص ذو مقدرات غير اعتيادية فى الادب الجدى ، ولذلك يحتمل ان تكون مؤهلاتها اعلى من المتوسط فى ميادين أخرى تختلف بين الخمسة والعشرة عدا ، وهذه السيدة تحقق مقياسه هذا على وجه يدعو الى الاعجاب .

ففى بداية الامر اتخذت الرسم ونجحت فيه نجاحا بعث السرور الى نفسها وان كان الراجح ألا يعود عليها بربح كبير ثم تعلمت العزف على الطنبور (القيثارة) ثم تحولت الى البيانو واخيرا كانت تمرن جسدها على الألعاب الرياضية غير أن اتجاهيها الرئيسيين هما الفلاحة وتقويم الأملاك ٠

فهل هى مجرد هازلة؟ اذن استمع الى هذه الحقائق:حينما احترفت الرسم استمالت احد رجال الاعمال الأثرياء ليجلس امامها وترسمه واذا كنت تعرف شيئا عن الرسم فانت تعرف ان رسام الاشخاص يجب ان يكون فى الذروة من الفن ولا تخلط بينه وبين السيدة التى ترسم زهرتين من زهرات الأراولة أو الكرزنثيم فى ظرف قرمزى علىغطاء مائدة من المخمل الأخضر ٠

واصر الرجل على المطالعة فى اثناء جلوسه للتصوير وقد فعل .. وعندما نظر الى لوحة الفنانة صفر ونادى أصدقاءه لرؤيتها فاتفقوا جميعا على انها خير صورة راوها له وكان الرجل قد جلس من قبل عدة مرات ليرسمه مشاهير الرسامين ، وأوصى ثلاثة من المعجبين فى الحال الرسامة الهاوية بأن ترسم صورهم ٠

وقد أحرزت نجاحها الكامل فىاثنتين وخمسين ساعة (لأنها تحاسب

نفسها بأحسن طريقة يتبعها مهندسو الاخراج) وفور توافر الوقت لديها تبدأ فى تنفيذ هذه الطلبات الثلاثة الجديدة .

فهل ملأها الغرور؟ كلا. انها تقول: « اف : انك تستطيع أن ترسم حتى لو بلغت التسعين وكنت مقيدا بكرسى هزاز . والجميل فى الأمر انك تستطيع ان تجد متعة فى أى موضوع تعالجه » .

وهى تنظر الى الرسم كأنه ملهاة عجيبة لما بعد الستين ولكنها تنظر الى الفلاحة وتقويم الأملاك على أنهـا الأساسان الراسخان لحيـاة الراحة والهناءة .

وكلما ادخرت مالا استثمرته فى قطع صغيرة من الأراضى وفى الدور وفقا للمبادىء التى تعلمتها فى تقويم الأملاك . وقـد اشترت حتى اليوم منزلين ثم باعتهما بربح يكفى لمساعدتها على شراء ثلاثة أخرى اثنان منهما خاليان من الموانع والعيوب .

وهى دقيقة فى ادخار جزء من ربحها السخى ولقد بلغت حد الكفاية الذاتية ولكن بغير ثروة . وأظن أن مدخراتها بجميع أشكالها لا تقل عن ٧٠٠٠، جنيه جمعتها فى ربع قرن من الزمان ملأته بالعمل والكد ولكن مايزيد أهمية على بيضة العش هذه هو بعد نظرها وانسحابها من ميدان العمل انسحابا ثابتا بطيئا ولن تأتى عليها ساعة تنخلع فيها من نفسها ، فقد عرفت منذ طويل ما سيأتى به الزمن وماتبغيه منه وكيف تناله .

الم أقل انها امرأة عاقلة ونحن فى حاجة الى بضـــعة ملايين من طرازها .

وأكثر وجوه هذا الانسحاب أهمية هو خفض المبذول من النشاط واليك قاعدة صلبة :

تجنب كل المشروعات التى يحتمل ان تضطرك الى ارهاق نفسك بين وقت وآخر واختر من الاعمال ما يمكنك دائما أن تعمله وأنت تخطو خطوك الطبيعى السهل .

وأكبر الفروق بين الشبان والشيب هو فى المقدرة على تحمل ما فوق الطاقة ، فالشبان يستطيعون ان يبذلوا فى المضمار جهدا عنيفا مفاجئا ويستطيعون أن ينهضوا بالعبء ويجروا أقدامهم أكثر مما اعتادوه اذا الجئوا الى ذلك فترة ما ، لان لديهم احتياطيا من القوى مايساعدهم على ان يحملوا نفوسهم حملا يزيد على حملها الاعتيادى مرتين ونصف مرة ، أى ان الرجل الذى يستطيع عادة ان يرفع مائة رطل يمكنه عند الطوارىء

الملحة أن يرفع من الارض مائتين وخمسين رطلا ، وكثيرا ما رايت حدوث هذا ، ومع ذلك فلا يزال يحيرني قليلا ، ولقد عملت هذه التجربة بنفسي أيضا ولكن لا يستطيع ذلك أي انسان بمحض ارادته بل ينبغي أن تكون الظروف غير مألوفة وأوفقها المواقف الحرجة مواقف الحياة والموت كما يناسبها الظروف التي تهدد بخسائر فادحة .

ومن سن الخامسة عشرة الى سن الأربعين تأخذ هذه المقدرة على حمل اكثر من الطاقة تأخذ في النقصان البطيء المحقق ، وبعد الأربعين يكون النقصان سريعا ولكن المقدرة على الاستمرار بالخطو الطبيعي تظل كما هي فهذا الخطو يهبط بمنتهى البطء حتى سن الستين ثم تزداد سرعة هبوطه قليلا . وحمل الأشياء الثقيلة فجأة بعد الخمسين قد يتلف عضوا وبخاصة القلب ، وأنا أعرف رجلا أتلف من حياته عشرين سنة نتيجة حمل ثقيل حمله ساعة اذ كان قد آوى وحده منذ عهد قريب الى مزرعة صـــغيرة واشترى جرارا جميلا صغيرا مع ما يلزمه من معدات وبينا هو يحرث قطعة من الارض اختل شيء في الجرار فاضطر الى نزع أجزاء منه ثم اعادتها والى رفع العجلات وأن يسير في النهاية نحو ثلاثة أميال الى المدينة ليستصحب أحد مهندسي الآلات (ميـــكانيكيا) فأجهد قلبه ومنذ ذلك التاريخ لم يستطع ان يقوم الا بأخف الأعمال حول المنزل وساحته .

ان الفلاحة عمل يحتاج الى رعاية دقائقه عن كثب ومن أسهل الأشياء على الآلات أو الأدوات أو الثيران أو الخيول أن تثير متاعب لاتمكن معالجتها بغير الارهاق الفجائي العنيف وقد يستطيع ابن العشرين أن ينهض بهذا العبء الزائد ، ولو حاوله رجل أو امرأة ممن جاوزوا الخمسين لاقتطع من عمره عقدين ، وكذلك الحال في أنواع كثيرة أخرى من العمل .

واذا اضطلعت بعمل من هـذا القبيل لاسـباب تراها قوية وكافية فلا يفوتنك أن تعرف من جيرانك من يستطيعون مد يد المساعدة الحقة حين الطوارىء .

وسأتناول فيما بعد الفرص التي تغري المتقاعدين باستغلال المزارع الصغيرة جزءا من الوقت وهنا أرجو أن أحذرك الآن كما سأحذرك فيما بعد من الأحمال الثقيلة التي تجاوز طاقتك . وأي عمل تعمله رتب جميع أمورك على انك لابد منسحب منه .

وعلى وجه العموم فاني دائم التردد في تزكية الزراعة للمسنين لما تنطوي عليه من اخطار الاجهاد الطارىء على أن كثيرا من الراغبين فيهـــا ينجحون زمنا طويلا ثم ينسون أخطارها .

- ١٠ -

ما خير طريقة لك



ناتى الآن الى اشد المشاكل خطورة ممايواجه الناس بعد الخمسين وهى ذات صعوبة زائدة لانها تختلف كثيرا باختلاف الشخص ولا يتيسر فهمها الا من تحليل المرء نفســـه والتنقيب فى ثناياها ولا تقنط اذا لم تستطع أن تفهم بسرعة بعض الأشياء هنا فان الناس لا يعرفون عنهــا كثيرا اذ ليس فيها قواعد بسيطة سهلة ·

وقد تكون عبارة بسيطة مقصودة بذاتها مما يساعدك على المضى فى هذه الصفحات الجافة فاحفظها عن ظهر قلب :

« ان خير طريقة لك لتتجنب شرور طفولة ثانيـــة هى ان تحتفظ بطفولتك الأولى حية قوية » ·

سيدرك كل انسان فى يوم غير بعيد ان الشكل القبيح للشيخوخة المعروف بالطفولة الثانية لا ينشأ الا فى البائسين الذين فقدوا كل اثر من آثار طفولتهم الاولى ·

هل يحيرك هذا ؟ فكر فيه في أثناء قراءتك التالية ·

وأثناء قراءتك أرجو أن تحفظ فى باطن تفــكيرك كل ما كنا نقوله عن الانسحاب من ميادين النشاط وعن الراحة وعن اعتياد الوحدة، فهذه القواعد الأساسية لاكتساب المزاج التقاعدى هى التى تحدد الى درجة كبيرة ما يحسن بك أن تزاوله من المشروعات أو الأعمـــال أو الهوايات ·

ضع كل ما تعلمه عن طبيعتك الأصلية امام تفكيرك فقد يكون فى هذا خلاصـــك · وكلما ازداد ما تقدمه الى هذه الدنيا قل ما تحتاج الى استعارته من حياة الآخرين ، وكلما قويت حوافزك الكامنة قل اعتمادك على الغير فى اخريات سنيك وصغر خطر ساعات الفراغ · ولقد بينـا لك من قبل ان خواصك وميولك قد تكون دفينة تحت اكوام من العادات فرضتها عليك الدنيا واهلوها ، فان موطنك الأول ، ورفاقك فى اللعب والاعمال التى زاولتها فى مقتبل الحيـــاة ، ورؤساءك وأصدقاءك · كل شىء وكل انسان آخر ، كل أولئك قد ساهموا بنصيب فى هذا القالب الضخم الذى صببت فيه فهل تستطيع أن تجد نفسك · ؟ ان هذا

يتوقف على قوة طبيعتك الأولى كما يتوقف على متانة القالب فان كنت رجلا تملك خمسين مليونا مثل بن فرانكلين Ben Fraknlin فستهشم القالب وتحلل نفسك الى عناصرها الأولى ثم تبـــدأ تعيش عيشتك الطبيعية فان لم تكن مثله فماذا تكون الحال ؟

وماذا تكون الحال لو بلغت الستين دون أن تستوثق ما الذى تفعله بعد ذلك ؟ اليك قاعدة حسنة فاتبعها ·

من الجلى ان ليس لديك حوافز قوية الا اذا كانت على القيام بعمل يجاوز قواك فى الستين فاذن وجب عليك أن تجـسد فى احد الاركان الداخلية فى نفسك حافزا أقل قوة .

والآن قد يكون الحافز ضعيفا لانه ضعيف او لأن حوافز أقوى منه اضعفته بما نسجت فى عنفوان العمر من نسيج العادات الفسيح فاذا نفذت من هذا النسيج ووجدت الحافز السابق فقد تســـتطيع أن تظهر امامه الطريق لينمو قويا على مستوى من النشاط متوسط أو واطىء.

فابدأ اذن وراجع العشرين سنة الأولى من حياتك مراجعة دقيقــة ووف المراجعة حظها من الوقت لانه يحتمل ان يكون كثير من الحــوادث مقبورا فى الأعماق ودون مذكرات بما تجد ـ وطالع الصحف القــديمة وتحدث الى اصدقائك القدامى وواظب على اعمال التنقيب هذه الى أن تستخرج منها شيئا .

وربما كان حلمك فى الطفولة ان تصنع لنفسك مزلاقا تنزلق به على الجليد ولكن ابناء الستين للأسف لا يستطيعون أن يبذلوا مثل هذا الجهد واذا أمعنت فى التنقيب فقد تجد حافزا ضعيفا ولــكن لاتزال به مسحة من القوة كان يراودك فى ايام الدراسة لتنشىء وتدير حانوتا لصنع الأثاث فبالآلات الحديثة التى تقلل المجهود العملى تستطيع اما أن تنشىء هذا الحانوت الآن ان كان لديك المال اللازم واما أن تجد محلا يمكنك أن تستخدم فيه المخارط والمساحل « الفارات » والمثاقيب بضع مرات فى الاسبوع ·

واستمع الى تاريخ (لولوبل) الموجز وانظر كيف انخير سنى حياتها هى صورة منعكسة لطفولتها الأولى لا بالمعنى المفهوم عادة من هذه العبارة لانها لم تبلغ بعد طفولتها الثانية ·

يقول اصدقاؤها فى الطفولة انها لما كانت طفلة صغيرة كانت تحب ان تلعب دور صاحبة متجر فكانت تغلف الحزم وتتسلم المال من العملاء فابتنى لها أبوها متجرا صغيرا فى حظيرة الخشب فملأت رفوفه بأشياء

مضحكة من طعم الأسماك للأولاد الى الرءوس الجديدة للعرائس القديمة فوضع جميع أطفال الحي هذه المؤسسة تحت رعايتهم ٠

ولما شبت عن الطوق كانت تضع جميع هدايا عيد ميلادها وعيد ميلاد السيد المسيح مرصوصة على الرفوف كما لو انها تعرضها للبيع وما زالت تغلف الحزم بدقة وذوق ، وكانت فى العطلات الاسبوعية تحب ان تعمل فى المتاجر الكبيرة بالمدن بائعة وعندما اقتربت سنها من العشرين تأصل فى نفسها حب الهواية فاخذت تجمع تماثيل صينية وخنازير صينية ودمى صينية وفيلة صينية ولم تكن تبالى بزهادة اثمانها أو قبح اشكالها بل كانت تشترى دائما بكل درهم يفيض عن حاجتها تماثيل تصفها على الرفوف ٠

ثم التحقت بعمل لدى أحد المحامين فى مدينة صغيرة وتوطدت وشائج الصداقة المتينة بينها وبين ابنة رئيسها ، لان لولوبل كانت ذات وقار ودعة وما كان أجمل مجموعتها من التماثيل الصينية وما أبدع تغليفها للحزم ، لقد كانت تضم عددا من الفضائل الغربية اثرت فى الفتاة الصغيرة نفسها واخذت زوجة الرئيس والجيران يحبون لولوبل أيضا وكانوا يهدون اليها التماثيل ثم طلبت احدى النساء منها أن تبيعها بعضها وهنا تألق نجم لولوبل ٠

ومرت السنون تتلوها السنون وفى كل شهر تزيد لولوبل مجموعتها بعد أن تفرعت الى تماثيل من البرونز والى أخشاب محفورة والى رسوم صغيرة ملونة بالألوان المائية على حسب مقدرتها المالية ٠

ثم استدبرت الستين وأخذت تتقاضى مبلغا صغيرا سنويا من المال كانت قد تعاقدت عليه من قبل وكان قد مات رئيس عملها وكان يسر خلفه ان يتخلص من كاتمة سر المكتب العجوز فخرجت لولوبل الى الحياة وهى تتساءل كيف تتمتع بخير سنى حياتها ٠

وضعت مجموعتها الحبيبة من الحلى والزخارف زهيدة القيمة فى مستودع وهى تحدث نفسها انها ستخرجها عما قريب ولكنها تعرف فى قرارة قلبها الصغير الحزين أنها قد لا تطبق عليها عينيها مرة أخرى وتوجهت الى لوس انجليز Los Angeles فى عربة للسائحين وقال بعض الأصدقاء انها تستطيع ان تعيش هناك بنفقة قليلة وأن تدفىء فى شمس الوادى الجنوبى عظامها التى بدأت تبرد فى بطء ٠

واشتغلت بعض الوقت فى السنة الأولى التى قضتها هناك فى أحد المخازن الفرعية ومعانها استمالت اليها كعادتها كل الناس فقدكانت فى

منتهى التعس فغيرت العمل في السـنة الثانية واشتغلت في نهايات الأسابيع في محل لبيع السلاسل والقلائد واعتلت منه وقضت خمسة أشهر تستعيد قواها وتعيش على ما لا يكاد يسد رمقها من الريع الضئيل المرتب لها ثم طافت تبحث عن عمل . . ومن ذا الذى يحتاج الى امرأة نحيفة لطيفة تبلغ الثالثة والستين وقد بدت الآن أشبه ما تكون بالعرائس المصنوعة من فخار درسدن والتي حفظتها في صندوقها بالمخزن والناس لا يستأجرون عرائس درسدن الفخارية .

وقضت قرابة عام تتصيد الأعمال وتموت من المسغبة ففكرت في أن تبيع لعبها وتحفها بالمزايدة وسيكون معنى هذا خاتمة المطاف .

وبزغت الشمس ذات صباح فاستقلت حافلة (اتوبيس) الى الشاطىء لتصطلي بدفئه لانها أصبحت تشعر بالبرد في أحيان كثيرة وغادرت الحافلة في محطة مملوءة بحوانيت للتحف المزيفة مما تراه في كل مصيف بحرى كبير فتوجهت الى حانوت معلق في نافذته بطاقة مكتوب فيها : « في حاجة الى بائعة » .

توقفت عن المسير وتطلعت الى معروضات النافذة وحملقت مبهورة الأنفاس لأنها رأت فيها اثنتى عشرة دمية صينية تبسم لها وفيلا عاجيا ضخما وقد طوح بخرطومه يرحب بها ووقفت أربعة من القردة المصنوعة من الخشب الصلب على قاعدة وأخذت تضحك لها وعلى رف علوى اصطفت مجموعة من أقداح الشاى مشتاقة لخدمتها .

دلفت الى داخل الحانوت ولم تسأل عن الأجر ولم تسأل عن ساعات العمل واكتفت بأن قالت : « أتيت لأتسلم العمل » .

كان ذلك كأنه أمر فصعد فيها الزوجان الشيخان مالكا المحل نظريهما وسبرا غورها في لحظة . ألا يدعو الى التسلية أن تستأجر عروس صينية من درسدن لتبيع عرائس صينية من درسدن ؟ !

وبآخر الأسبوع الأول بعثت لولوبل تستقدم صناديقها المملوءة بتماثيل الصيني والبرونز والخشب .

ومضى عليها حتى الآن عامان كاملان وهى تبسم من خلف منضدة البيع لكل عميل كأنه ملك أرسلته السماء وهى تغلف الحزم بالدقة نفسها التى كانت لها منذ ستين عاما وهى مثال للصحة لو رأيتها لقلت انها تصلح لأن تعيش مائة سنة أخرى .

عادت لولوبل الى نفسها وهي ليست في طفولتها الثانية بل انها في طفولتها الاولى وليسخر العلماء ماحلت لهم السخرية فلقد وجدت نفسها ٠

سيقول بعض العلماء ان لولوبل لابد أن تكون نفسا في غاية البساطة والا ما ارتدت الى الطفولة وهلم جرا واني لأعجب من هذا القول ٠

كنت أراقب أحد عظماء الرياضيين وهو يسير سفينة شراعية صغيرة في بحيرة صغيرة وكان فرحه بها عظيما كانه صبي حافي القدمين في العاشرة من عمره ، وكنت أراقب أحد مغني الأوبرا وهو يمشي على يديه وينصت الى أستاذ سابق وهو ينشد أناشيد وقحة بخير تقاليد آداب المواخير ، وكنت أرقب ضابطا كان في وقت من الأوقات معروفا بالجرأة في الجيش النظامي كنت أرقبه وهو يصنع كراسي جميلة من طراز شيراتون (١) في مصنعه الفني الأنيق ٠

ولم أكن أرقب « مثلي اللامع » الآخر لانه كان يعيش بعيدا جدا في واد صغير داخلي ولم اذهب اليه أبدا ولكني كنت أرقب عملا من أعماله واستمع الى عملائه وهو خاتمة حسنة لهذا العرض ٠

كان غلاما صغيرا حينما كنت فتى كبيرا وقد استهوته السيارات وخلبت لبه وكان يعمل بستة بنسات في الساعة كمساعد في حوانيت الآلات حيث يحاول جماعة من الثرثارين أن يصنعوا جهاز خيل بغير حصان . وقد جعل منه عصر السيارة ثريا الى حد ما ، لا من أرباب البلايين ، كلا ، ولا من أصحاب عشرات الملايين بل من ذوي المليونين الصغيرين الوديعين ، وليس ما يستحق الذكر وراء مكتب ضريبة الدخل كما تعلم ٠

ثم آن أوان اعتزال العمل والتمتع بالحياة ولكن كيف ؟ انه لم يتردد لقد وجد الوادي الصغير الدافيء تغمره الشمس ويغشاه الأمن والسكون فشيد بيتا متواضعا ولكنه مريح صغير مناسب للعزب الشيخ ، وبنى خلفه حانوتا صغيرا جميلا للآلات يكاد لا يزيد حجمه على حجم « المفتاح الانجليزي » نظيفا نظافة الوليد ساعة مولده ومحشوا من الأرض الى السقف بكل آلة يحتاج اليها في غرضه الكبير ٠

وما غرضه الكبير ؟ أرجو أن تراقب بعناية فاليد أسرع من العين ٠

---

(١) Sheraton (١٧٥١ — ١٨٠٦) ينسب اليه طراز الأثاث الذي ترعرع في انجلترا في نهاية القرن الثامن عشر وكان يمتاز بالبساطة والرشاقة وباحتواء القطعة منه على اكثر من منفعة كالأسرة المنطوية ٠

لقد طوف بثلاث دول ، وكان كلما عثر بسيارة عتيقة عرض على مالكها ثمنا لها ، فكان المالك يحملق فى وجهه ويعجب فى قرارة نفسه ، كيف افلت هذا المعتوه من البيمارستان ؟ ثم يختطف منه المال قبل أن يفوت الأوان وكان بطلنا يجر الحطــام الذى اشتراه الى حانوته ويفتح أبوابه الخلفية على مصاريعها لتنساب منها أشعة الشمس ثم يجرد صدره وظهره من الملابس ويبدأ عمله الأكبر ولا داعى للعجلة ، وليس أمامه منبه ينبه للوقت ولا رئيس عمل يحثه الخامل بل الذى كان هنا هو الحب من أول نظرة لا العمل من فضلك ! أو على الأقل ليس عملا من جنس عملك ٠

من الذى رجع عقارب الساعة ؟ لاننا لا نرى أمامنا الا فتى فى العاشرة من عمره ، ماذا يعمل ؟ انه يساعد مستر أولدز أو السيد الشيخ فى تفكيك عربة تسير بغير حصان وهو يستعير مبردامن هنرى فوردHenry Ford (١) ويصـــــفر أثناء العمل ٠ أقلت العمل ؟ ان ما يقوم به لايزيد على أكل قطعة من المثلجات ان كان هذا يسمى عملا ٠

وليس من مساعد يعين على رفع الجزء الخلفى من الحطام الذى ابتاعه، وليس من ساعد قوى يعين على تشغيل الصمامات التى ران عليهـا الصدأ فهذا الفتى مكتف بذاته ، غير أنك لن تجد فتى يعمل بمثـــل ما يعمل به فتانا من آلات : فهناك رافعة كهربية كبدته مائة جنيه راقبها ٠ وماهذا ؟ مثقاب بالضغط لم يشتره ، أيها الفتى : انك لاتستطيع أن تشترى هذه الآلة لقد أخذتها من المدير العام وقت اعتزالى العمل لأنى قلت له : انى لا أريد ساعة ذهبية يقدمها لى هدية زملائى فى الادارة القديمة ، بل قلت انى أريد هذا المثقاب فتبسم وأجاب : « ان مرضك هذا لا يرجى له شفاء أليس الامر كذلك ياجو ؟! »

ويمر أسبوع واذا به يدفع من الحانوت شيئا ليس هو بالسيارة العتيقة التى اشتراها وأدخلها فيه بل شىء آخر يهر ويزأر واذا ضغط على الغاز أخذ هذا الشىء يقفز على تل القمامة جنوبى الحانوت كما لو كان هذا الشىء « انثى الكنغر » تبحث عن رفيقها ، ويمسح السيد ذقنه ذات الشعر ثم يبتسم ابتسامة الرب فى اليوم السابع من الخليقة ، ويسوق الشىء الى القرية ويذهب به الى حانوت دهان ويلطخ بدنه بكمية من الدهان ثم ينشر فى الصحيفة المحلية اعلانا جذابا واذا بالعربة تباع قبل أن تغادر المطبعة النسخة الأخيرة من الصحيفة ٠

---

(١) امريكى ولد سنة ١٨٦٣ ومن كبار صناع السيارات وربما كان اغنى أهل زمانه ٠

وفى الاسبوع الماضى باع صديق لى عربة عتيقة من طراز بيرس أرو (Pierce Arrow) يرجع الأثريون تاريخهـــا الى ما بين عهد آخر نمر من نمور ماقبل التاريخ المزودة بأنياب كالحراب ، وعهد أول متعهد للكتب ، وفى احد أيام الآحاد وكان العهد به منذ يوم ونصف يوم كان احد الناس يسوق هذا الوحش المستصلح فى الطريق وتسلق به تلا مرتفعا بسهولة لا يضارعها الا سهولة استنشاق الجدة شنكس Jenks للسعوط وباعه على رأس التل لرجل أجنبى نقدا بمبلغ ١٥٠ جنيها ، ولما كان رجلنا هذا صاحب المعجزات قد اشترى تلك الرمة بمبلغ ٢٠ جنيها فقد احتفظ بالمائة والثلاثين جنيها للمتعة ٠

وهم يقولون لى أنه نقل عدد القردة الى أكثر من مائة عربة فى السنوات الخمس الأخيرة وكان أعلى ثمن دفعه للعربة المهشمة ٢٠ جنيها وكان يتقاضى عادة جنيهين لنقل المخلفات وقد يكون متوسط ما يدفعه للسيارة فى محل الحادث ٥ جنيهات ويستطيع أى اخصائى فى حساب النفقات أن يتخيل الباقى (أما أنا فلا أستطيعه) فالمال ليس غرضـــا وانما نحن نحاول ما نحاوله لنكسب الرضا وقد عاد الينا علم طبقات الأرض الست ترى وحوش ماقبل التاريخ وهى تنهب الارض مرحا وكل ذلك لان جو ميكانيكى السيارات المتحمس فى نصف القرن الماضى لا يزال فى طفولته الاولى ٠

أفهم هذا بوضوح ٠ انه لم يكن فى طفولته الثانية ولن تجد له مثيلا فى حيويته وقوته فلا غمغمة ولا اســـتسلام ولا ترديد لعبارات الاطفال كلا ياسيدى فهو رجل من أكثر رجال الدولة عمـلا وهو أمهـــر أطباء السيارات التى ذرعت الأرض ٠

ستقول والآن فلنعد اليك ان جو رجل مجدود ولكنك مع الأسف لم تعمل ــ وأنت غض الاهاب ــ شيئا يمكن أن تعيده الى الحياة ــ اذن فتأمل ــ وتمارسه ملاعبك الأولى ورياضتك فما الذى كان يسرك منها أكثر من غيره قبل أن تبلغ العشرين ، وعد بالذاكرة الى الوراء لأبعد ماتستطيع ، أكان هذا هو السباحة ؟ نعم ، ولكنها كثيرا ماتشق على رجل الستين ، أكان هو كرة القدم ؟ هى الأخرى اعنف من استطاعتك ولكن خبرنى كيف كنت تلعب كريات الرخام (البلى) لقد كنت فيها بطل حيك ثم أمسيت بطل المدرسة وكتبت الصحف اسمك اذن جرب كريات الرخام مرة أخرى أو جرب ماهو خير منها ، جرب لعبة أكثر تعقيدا تستنفد على الأقل جزءا من مهارتك التى كنت تستخدمها فى كريات الرخام .

وقد تصبح عن قريب قادرا على أن تلعب لعبة الدجاجة أو لعبة بول أو لعبة كرات العاج أو بليارد (١) أو قد تخترع لعبة جديدة كان تكون نوعا راقيا من لعبة كريات الرخام وتستثمرها ماليا ومتاعا ولكن كيفما تنمى عادات الطفولة وتهذبها فستمر من المرحلة الآلية (وربما المملة) مرحلة التكرار الى مرحلة العمل الممتع وهكذا الى ان تبلغ مرحلة الهواية المملوءة بالاهتمام المقرونة بالتلذذ ٠

ولا تعمل بنصيحة أحد في أية الهوايات تتخذ وابحث عن الجواب في ماضيك ذاته ، وكلما أمعنت في الرجوع الى الماضي كبرت الفائدة واني أعرف أن هذا الكلام غريب الوقع على أذنيك ومع ذلك ففيه معنى وجوب أن يعيش كل انسان على طفولته ، ففي الطفولة تجد نفسك الحقيقية وان لم تبلغ أشدك فان بلغت أشدك ضللت تحت القذائف الحامية قذائف البركان الذى يدعى « الجنس » والذى يفرق بين الذكر والانثى ولايوجد انسان يحتفظ بحقيقة نفسه طوال هذه السنوات فما هو الا مطية قوة كونية لا تنفك تسوقه امامها ، ولكن بعد الخمسين يخفين الدافع العاطفي أو يضعف كثيرا وحينئذ يعود الانسان الى نفسه الحقيقية مرة أخرى ويكون الآن امتدادا لما كانه قبل أن تحرقه الشهوة ولم يعد حيوانا مملوءا بالحرارة بل صار نفسه ، وستكون خير سنى حياته هى التى يستطيع أن يستخلص من طبيعته خير مافيها ٠

الحياة موازنة بين عدة قوى وكلما زادت هذه القوى وعظمت قلت سيطرة الدافع الجنسى على الميدان فما قلناه الآن ينطبق حينئذ بكل وضوح وبكل توكيد على ذوى الميول والمقدرات المتوسطة ٠ وسنعالج مشكلة الموهوبين من الناس وسنرى في التو أنه يجب عليهم أن يقوموا بالبحث عن خير عمل لخير سنى حياتهم بأسلوب مغاير كل المغايرة ٠

وللافادة من القانون النفساني الذى سأقوله لا يتحتم أن تكون عبقريا بل يكفى أن تكون فوق المتوسط فى بعض المواهب ولتكن الرياضيات العليا أو العزف على الساكسوفون Saxophone وكلما ارتفعت عن المتوسط تجلت الظاهرة التى أسميها « التجمع » ٠

والخصلة القوية قلما تنفرد بنفسها ، ويظهر أنها قطب لنسيج

---

(١) Pool وهى تلعب على مائدة بليارد ويكون لكل لاعب كرة ذات لون يخالف كرة زميله يحاول بها ان يلقى بالكرات الاخرى بترتيب معين في ستة جيوب ويشترك في لعبها اثنان أو اكثر ٠

خاص ، أو مركز لنظام شمسى ذات حجم ذرى وكلما زاد نشاطها عظم جرمها واتسع حقل القوة الذى تهيمن عليه (وربما كانت هى حقلا من حقول القوة) وهى تلزم الخصال الصغرى بالتزام أفلاكها ومداراتها تلك الخصال التى تستمد قوتها من وجودها فى حقل القوة هذا وتفوق الخصال الخارجة عن هذا الحقل ٠

وقد تكسب بقدر ما كسبت من الأبحاث المستفيضة للويس ترمان Lewis M. Terman عن الأطفال الموهوبين والعباقرة فهذا العالم النفسانى القى طوفانا من الضوء على خصائص الطفولة وبقائها حتى سنوات العمر المتأخرة ومع انه لم يكن يعنيه أثر هذه الحقائق فى مسلك الناس فى أوساط العمر فقد وجد أشياء ذات قيمة كبيرة لنا ، أما ما مقدار هذه القيمة فلسنا نستطيع الآن ان نقوله غير اننا نعرف انه لا يوجد حد بين واضح يفصل بين الموهوبين وغير الموهوبين فكل درجة من النشاط والمثابرة ونشر الاهتمام وسعة الاطلاع تظهر على طول هذا الحد ، وعلى ذلك لا نعدو الحق اذا افترضنا ان جميع القراء تقريبا ممن كان لهم فى طفولتهم مواهب ذكاء أو غيره يستطيعون الى حد ما أن يستأنسوا باقتراحات ترمان فيما هو خير لهم أن يفعلوه بعد التقاعد ، وكذلك يمكن أن يلتقط القراء ذوو المقدرات الصغيرة فى طفولتهم اشارة من هنا أو من هناك الى الطريقة التى يمكن أن تستخدم فيها هذه المقدرات ٠

والشخص الوحيد الذى لا يجنى شيئا من ترمان هو عديم المواهب ولكنه لم يكن يستطيع أن يبلغ فى مطالعة هذا الكتاب هذه المرحلة ولذلك ليس لنا أن نشغل أنفسنا به ٠ ولنوجز فيما يلى مكتشفات ترمان ولنبدأ بالعبقرى فى طفولته ٠

يبدى العبقرى « عنادا فى مواصلة الدافع والجهد ، وثقة بمقدرته وقوة خلق عظيمة » ٠ ومع أن المهذارين كانوا كثيرا مايقولون عنه : انه طفل متأخر عن زملائه ، فانه لم يكن كذلك قط ، ولكن يمكن أن يكون قد خلق هذا الأثر السيىء لأنه كان يختلف عن الاطفال الاعتياديين وكثيرا ماكان يعجز عن مسايرة معلمه أو رفاقه فى الفصل ٠

ومواضع اهتمامه التى بدت فى باكورة حياته تشير الى حقل كان ينتج فيه كثيرا ولكن لا على سبيل الدوام فهو دائما سريع التحول ولذلك قد تكون له فى طفولته موضوعات كثيرة تسترعى عنايته ولكنها لم تجد فرصة للنمو ٠ والراجح أنه أظهر أكثر من متوسط المقدرة فى ميادين قد تبلغ خمسة أو عشرة ٠

قرر أحد تلاميذ ترمان حقيقة غريبة اذ حلل ثلثمائة عبقرى وقاس مدى سعة اطلاعهم بحسب الميادين التى أحرزوا فيها أكبر نجاح • واليكم ثبتا صغيرا بالنسب مشحونة بالمعانى للمتقدمين فى السن ذوى المواهب الاقل :

مشاهير الكتاب من غير كتاب القصص هم أوسع الجميع اطلاعا وأسهلهم تنقلا من ميدان الى ميـدان وكثيرا مايبرزون فى عشرة ميادين والسياسيون والفلاسفة يشغلون المركز الثانى •

الزعماء الدينيون ورجال الأدب القديم وعلماء الكيمياء والشـعراء والقصصيون ومؤلفو المسرحيات والرياضيون يشغلون المركز الثالث •

الموسيقيون : ويحتلون الصف الاخير وهم عادة دون أية طائفة أخرى واقرب مايكونون لذوى العقول ذات الاتجاه الواحد •

انظر الى هذا نظرة شخصية وطبقـه على نفسك وانت تبحث عن نشاط تقوم به بعد الخمسين لايشغل الا جزءا من وقتك ، وقبل أن تبدأ احفظ النسب والمعادلات السابقة لأن الغالب ان الشخص ، الذى يبرز فى نوع واحد من أنواع النشاط يكون عادة أعلى من المتوسط كثيرا فى بعض وجوه نشـاط أخرى ثابتة ، ولدينـا هنا فيما يلى بعض مجموعات طبيعية •

تتالف اقوى مجموعة من المقدرة فى الكيمياء والرياضيات والابتكار والاعمال اليدوية •

وتتلوها فى القوة مجموعة الشعر والقصص والمسرحيات •

وتأتى فى المرتبة الثالثة من قوة الفلسفة والنظريات الاجتماعيـة والتاريخ واللغات .

وتتألف المجموعة الرابعة من الزعامة الدينية والسياسة والادارة •

أما الموسيقى فتقف فريدة فى ذاتها لايتجمع حولها أية مجموعة من القوى •

والآن اصبح لديك مساعد قيم لرسم الخطة لخير سنى العمر فكيف تستخدمه ؟

ابحث عن أكثر المجموعات صلة بالمقدرات التى كنت تستخدمها فى حياتك العملية حتى سن الخمسـين ثم افحص كل أنواع الاعمال التى

تشملها المجموعة واختبر منها ما تميل اليه نفسك ورجع فى هذا الاختبار الوان المقدرة التى كنت تبديها فى طفولتك أو فى شبابك المبكر ٠

وكلما برز تفوقك فى مقدرة ما باحدى المجموعات ترجح أن تجد فى هذه المجموعة التى تشتمل على تلك المقدرة شيئا تعمله ٠

وكلما قل تفوقك قلت فائدة هذا الاختبار لك ، واذا لم تبرز فى شيء على الاطلاق فلا تشغل نفسك بالاختبار فقد يكون ضارا بك ٠

وافهم على وجه التوكيد أن ميلين مستقلين يندمجان احدهما فى الآخر هنا أحدهما هو الميل نحو « التجمع » والآخر الميل نحو « الانتشار » وهما على طرفى نقيض من بعض النواحى ولذا قد يلتبس عليك الأمر بسهولة اذا ماطبقتهما على حالتك الشخصية ولذا فسأحل لك مسألة أو مسألتين افتراضيتين :

ماذا تكون الحال اذا كنت مؤلفا ممتازا فى تحرير المقالات والمسائل التاريخية والمقالات السياسية وغيرها مما لا يدخل فى التحرير القصصى ؟ الراجح أن تكون واسع الاطلاع سريع التنقل والتحول تستطيع فى سهولة ويسر أن تنقل يدك الى وجه من وجوه النشاط الخمسة أو الاكثر غير المترابطة ، وعلى ذلك حينما تجاوز الخامسة والخمسين يصح لك أن تجرب كثيرا من الاشياء وتستشعر السرور والفرح بكثير منها ، فما أسعد جدك أيها الشيطان !!

وعلى النقيض من ذلك اذا وجدت نفسك فى الصف الثالث عند تحليل مجموعة مالديك من المقدرات أى انك من المجموعة التى تتجه ميولها المتصلة نحو الفلسفة والنظرية الاجتماعية والتاريخ واللغات هذه المواد التى تندمج الى حد ما فى الكاتب الناجح غير القصصى ولكنها ليست وثيقة الصلة فيما بينها ولذلك لايدهشك أن تجد فى نفسك ميلا ضعيفا للفلسفة أو النظرية الاجتماعية وانما الراجح أن تنجح فيهما أكثر من نجاحك فى أوجه نشاط أخرى كالعمل اليدوى والابتكار ولكنك لاتتفوق الى درجة أن تلقى بنفسك فى رحابهما حينما تنسحب من ميدان عملك الرئيسى ٠

وماذا اذا كنت كيمائيا ذا تاريخ طويل فى البحوث الممتازة ؟ انك ستكون فى الصف الثالث من سعة الاطلاع وسرعة التنقل بين الميادين وسيكون معك الزعماء الدينيون ورجال الادب القديم والشعراء والقصصيون وقد لاتجد الا أشياء قليلة تعملها خارج دائرة الكيمياء غير ان هذه الاشياء القليلة محكمة الارتباط فيما بينها ٠ فانت الاول فيما يمس مبدأ

«التجمع» ومن السهل أن تعرف السبب فالكيميائي المتين يجب أن يكون متفوقا في الرياضيات ولا بد أن تكون روح الابتكار لديه قوية أيضا لان كثيرا من الابحاث أغلبها حدسى ووضع لخطط جديدة لمعالجة المشاكل ثم يجب أيضا أن يكون صناع اليد ولو فيما يتعلق بتركيب الآلات والعدد الجديدة فى معمله ·

فلا عجب اذن أن تجد من الطبيعي ومن السار أن تمارس علما جديدا أو أن تتخصص فى علم الرياضيات البحت أو أن تخترع بعض الأجهزة أو تقوم ببعض الاعمال اليدوية لان المقدرة فى هذه الاشياء لابد انها كانت متصلة بما لديك من مهارة ككيمياوى لعدة سنوات·وبعد ان تبلغ الخامسة والخمسين تستطيع أن تنسحب الى ميادين تتطلب نشاطا أقل ولكن بالمهارة نفسها التى لازمتك طيلة حياتك .

وأخيرا فلنفترض انك كنت تلعب دائما مع جماعة عازفى الكمان فى احدى الفرق الموسيقية الكبيرة وانك ألفت بعض المقطوعات الجميلة للبيانو وبعض الاغانى العاطفية وتبلغ الآن سن الخامسة والخمسين وتبدأ تحس تصلبا خفيفا في الاصابع وضعفا في الابصار قد يصحبه ثقل طفيف في السمع فلا تستطيع أن تستمر طويلا فى الفرقة الموسيقية فماذا تعمل ؟

ان موسيقاك لاتهديك الى أى مجال جديد لانها فى معزل عن غيرها لاتمت بأيةصلةالى اى شيء آخر فالموسيقار اما موسيقار واما غير موسيقار، هو الطرف الآخر المناقض للكيميائى فمهاراته لاتجاوز نفسها وهى تسبح طليقة ، ولذا قد يتفق أن يتفوق شخص كموسيقار ومع ذلك يكون شيئا آخر : معتوها أو رياضيا لامعا او مجنونا أو قديسا منحرفا انحرافا جنسيا أو راهبا متنسكا فضوليا اجتماعيا أو محبا للغير ، وقد يكون لسوء الحظ ايضا نابغة فى الموسيقى وعدما فى كل ما عداها فاذا ما اضطر الى التخلى عن الموسيقى فقد قضى على نفسه لأن عقله ذو اتجاه واحد ولايعرف منصرفا آخر ينصرف اليه. الم تشاهد حياتك موسيقيين تقدمت بهم السنون فأصبحوا أرواحا هائمة؟ وانت تعرف معنى هذا كله.

فما الدروس العملية التى نستخلصها مما تقدم ؟ حذار أن تشجع الاطفال على التفرغ للموسيقى واتخاذها مرتزقا فى الحياة الا اذا عملت على أن يبكروا فى تنمية مواهب أخرى قد تستحوذ عليهم فى الوقت المناسب وتحفظ من التدمير الحق شيخوختهم · اما الموسيقيون الطاعنون فى

السن فشجعهم على أن يجربوا كل شيء مرة على الاقل قبل التخـــلى عن الموســيقى بعد الخامسة والخمســين فقد يعثرون على شيء لم يدر فى خلد احد من قبل .

وارجو أن تذكر ان كل هذه الاقوال تبين الاحتمالات ليس الا فلا تطبقها على نفسك تطبيقا صارما فقد تخفق تلك الاقوال وقد تكون انت استثناء من الاتجاه العام ، والى القارئات أضيف تحذيرا خاصا وهو أن مقدرتكن المستترة ربما اختفت عن انظاركن عند الزواج أو حينما تفرغتن لخدمة آبائكن وان العادات المملة التى تكتسبنها من ادارة شئون المنزل قد تكون أخفتكن عن أنفسكن ولذا فقد تخطئن فى تقدير نفوسكن · والمرأة التى تستطيع أن تفيد من هذه المبادىء المحيرة هى التى أتاحت لها الظروف معرفة ما تنطوى عليه نفسها ·

فاذا تمكنت من أن تجد طفولتها الاولى فلتحيها ولتنمها حتى تهرب من الالم الوجيع الم الطفولة الثانية ·



- ١١ -

ان من يبكر فى الحضور
يتأخر فى الانصراف



اذا استكثرت من الأشياء التى تبدأ بها الحياة اشتدت بك الحاجة الى تسهيل مصاعبها بعد الستين (ولنتجاوز عن الحوادث والأوبئة) .

والتبكير فى الكشف عن الخواص والمزايا فى الطفولة يؤدى الى تأخير تفتحها بالزهر (ولنتناس الكوارث) .

واليكم اكثر مناحى الحياة استرعاء للنظر وهو يعيننـــا أجمعين على تقرير ما نعمل فى أخريات حياتنا .

فانس كل ما تعلمته وأنت غض الاهاب عن العقول والأجســام بعد سن الاربعين وانس كل ما تعلمته منذ اكثر من عشر ســنوات أو اثنتى عشرة سنة عن العقول والأجسام بعد سن الستين لان البـــاحثين لم يعالجوا مشاكل الشيوخ الا فى عشر السنوات الاخيرة فانهم قاموا بأبحاث طويلة على الوالدين والاطفـال والشبان ثم تناولوا أخـيرا من جاوزوا الاربعين وما أغرب ما سقطوا عليه من الحقائق الجديدة . وسأقص عليك نبأ كشف واحد منها ولكنى أرى لزاما على أن أحدثك أولا عن مبدأ مسلم به من مبادىء الحياة تقوم عليه الحقيقة الجديدة ، انه مبـــدأ « تنظيم الخطو » .

يأتى كل مخلوق الى هذه الحياة ومعه قسط معـين من النشـــاط تطلقه أجهزة غير مفهومة الا قليلا بسرعة ثابتة ثم تستجيب اليه العضلات بسرعة ثابتة وتعمل هذه الاجهزة بما يشبه عمل منظمات الحرارة التى تزيد ما يخرج من الحرارة اذا أخـــذت الحجرة فى البرودة وتقلل من الحرارة اذا ارتفعت درجتها فى الحجرة أو انها تشبه الأجهزة التلقائية فى السيارات الحديثة التى تفتح أنبوبة الهواء وتزيد الوقود اذا كان المرتفع من الارض الذى تصعده السيارة أو كان الحمل الذى تحمله يجعل السـير شاقا وتغلق الأنبوبة اذا اندفعت السيارة فى منحدر ، وبالايجاز تنظم هذه الاجهزة سريان النشاط على حسب ما تدعو اليه حاجة الساعة وبذا يظل الخطو منتظما .

والآن فان جهاز تنظيم الخطو بحسن توزيع مدخرات النشاط على مختلف أعمار الانسان فكلما تقدمت به السن كلما أبطأ هذا الخطو وهو

لايستطيع أن يبذل مجهودا جديدا عنيفا لأنه يشق عليه وسيحل الوقت الذى لايستطيع ان يبذل أى جهد الا بتهديد القلب تهديدا خطيرا .

ومن السهل أن ترى كيف تصطدم عادات الانسان بخطوه ويصبح هذا الاصطدام من المشاكل المعصية على الحل فى اعادة تنظيم الأمور بعد الستين فللعادة خطوها ونظامها واذا ما تمكنت فقد لاتتطلب من مدخر النشاط اكثر مما يسمح به الخطو ولكن المدخر يهبط بمضى السنين فيهبط الخطو غير ان العادة لا تهبط فى كثير من الناس على الاقل ، وسرعان ما نجد احدى العادات القديمة تمتص نشاط الانسان بشكل خطر .

وانت تعلم ماذا يحصل . يتعلم أحد الشبان لعبة الجولف ثم يحبها فتجعله فى حالة سليمة بين العشرين والثلاثين من عمره حتى اذا ما نضب معين نشاطه حوالى الاربعين ضعف خطوه قليلا ولكنه يظل يلعب الجولف كمألوف عادته فيشعر فى بداية الأمر أنه يتعب قليلا ثم يضطر الى أن يجلس على الارض اذا ما وصل الى الجحر التاسع ويستريح نصف ساعة وهو يلهث انفاسه ثم يستريح مرتين او ثلاثا واخيرا يتخلى عن اللعب بعد أن يقطع نصف الشوط ، فهو أعقل من زميله الذى تتحكم فى مسلكه عاداته القديمة فهذا المخلوق سيىء الحظ يسوق نفسه الى الامام والى الامام فى المضمار الى ان ينهار قلبه فى النهاية ويقول المسئولون عن تقرير أسباب الوفاة ان الوفاة طبيعية ، ولـــكنا نعرف أحسن منهم لأن الشىء االطبيعى الذى كان ينبغى عمله هو الابتعاد عن ميدان الجولف .

يجب على كثير من الناس ان يبدءوا بين الاربعين والخمسين فى مراجعة عاداتهم — ليوائموا بين خطوهم الوئيـــد ومعين نشاطهم الآخذ فى النضوب فعلى كل شخص ان يدرك انه لم يعد الرجل الذى كانه ولايحق له أن يبكى ما ولى الا اذا كان يود ان يبكى ما قضاه فى الحياة حتى الساعة ، فالهبوط شىء طبيعى جدا ولا يحق له أن يملأ صدره غرورا ويصيح : انه يستطيع أن يتم دورته حول ميدان الجولف بالسرعة التى كان يقطعها بها منذ ثلاثين سنة خلت فهذا القول يسمه بميسم الغفلة فان ابن الخمسين ليس ابن عشر مضافة اليها أربعون سنة بل انه حيوان آخر له نطفة وخلايا تختلف اختلافا بينا عما كان له من قبل .

كيف تستخدم قانون الحياة هذا فى اختيار ما تعمل بعد الستين أظهرتك على القواعد الأولى : عدل عاداتك لتماشى خطوك الجديد وتقبلها بقبول حسن على أنك تلعب الدور المأمونة عاقبته وخذ من المظلات مائة الف واسترخ وكن هادىء البال .

كل هذا حديث معاد • فلنعرج على الجديد :

ان اية خاصية ـ ماعدا ما استقر منها فى العضلات الكبيرة ـ تبكر فى خطو سريع كلما كبر الاحتمال بطول بقائها ان لم يكن بسرعة الخطو نفسها فيخطو أعلى كثيرا من المتوسط العام « ان من يبكر فى الحضور يتأخر فى الانصراف » ونحن نستطيع ان نقول ايضا بوجه عام دون ادعاء الدقة التامة انه كلما قل مقدار النشاط اللازم لدفع التركيبات التى تتألف منها الخاصية طال الأمد الذى تعمل فيه تلك الخاصية ولاحظ كيف يتفاعل هذان الاتجاهان ليريحا العضلات الكبيرة .

تستنفد العضلات الكبيرة كثيرا من النشاط ولذا تبطىء حركتها كلما اقترب المرء من الاربعين وقد تفقد كثيرا من وظائفها بعد ذلك فالذين يتعاركون أو يتصارعون أو يتسابقون فى بطولة مائة الياردة فى سـبيل حصـول الفائز على جائزة مالية عليهم أن يوجهوا وجههم شطر نشاط اقل عنفا قبل أن يبلغوا الاربعين بزمن طويل فان خواص العضلات مهما سمت فى أول الامر لا تبقى بحالتها هذه طويلا .

وتستنفد العضلات الصغيرة قليلا من النشاط وعلى ذلك فاية زيادة طفيفة فى النشاط الموجود يدفعها دفعا شديدا زمنا طويلا وبعض الخواص الذهنية الرفيعة لا تستنفد من النشاط الا قدرا ضئيلا يصعب قياسه ولذلك فهى تستمر فى العمل الى ماشاء الله •

تأمل قانون « ان ما يبكر فى الحضور يتأخر فى الانصراف » فى أوضح مجاليه اذا اظهر احد الصبية فى سنته العاشرة خيالا حيا مبدعا كان خليقا به أن يظهره فى سن الثمانين واذا كان وهو فى سن الخامسة عشرة مغنيا للأوبرا الكبيرة فقد لا يكون كذلك فى سن الخمسين فان تحقيق نزوة غناء الاوبرا لا تستنفد من النشاط أكثر من جزء من الف الفجزء •

واذا اظهر احد خيالا مبدعا للمرة الاولى وهو فى سن العشرين فأغلب الظن أنه فى سن الخمسين لا يظهره الا قليلا أو لا يظهره بتاتا لان ما يتأخر فى الحضور يعجل فى الانصراف .

واليكم رسما رمزيا لتوضيح كل هذا وهو ليس رسما بيانيا مقيسا بمقياس خاص .

مدة حياة أى مخلوق تساوى خمسة أضعاف أو ستة أضعاف الزمن الذى يحتـاج اليه للنضوج فبين الآدميين نجد بعض الناس يدركون

البلوغ حوالى السنة الخامسة عشرة على حين يدركه قليل آخرون حوالى العشرين وعلى هذا فاقل المدة المحتملة للحياة هى خمسة أضعاف الخمس عشرة سنة أى خمسة وسبعين سنة وأطولها ستة أضعاف العشرين أى مائة وعشرين سنة وعلى هذا يسهل علينا أن نضع الكثرة من ذوى السبعين بين القلة من أمثال متوشالح (١) الذين يتعدون حد القرن من السنين وسنجد اليوم جمعا ضخما يتوسطون ذوى الثمانين وذوى المائة ، ولتسهيل الاحصاء سنتخذ المائة سنة مقياسا للحياة فالكثيرون من علماء الاحصاء يعتقدون ان المائة سنة هى فترة الحياة الحقيقية ولكنا لا نريد هنا ان نبنى أقوالنا على الافتراض ولا نتخذ مقياس المائة الا كوسيلة مناسبة لشرح أشد قوانين الحياة تعقدا .

ولا ينطبق الرسم الا على خصائص لا تستهلك كثيرا من الاسعار الحرارية على مدد طويلة فانه كلما صغرت العضلات المستخدمة كلما اتبعت الخواص هذا الرسم المتخيل وهو اكثر دقة اذا وصفت الخواص بمثل الخيال المبدع وأصالة الرأى ٠

وعند قراءتك للرسم تذكر دائما أن طول الخط يمثل مستوى المقدرة العقلية على وجه العموم وكلما طال الخط كلما ارتفع هذا المستوى ٠

وجعلوا منتصف جميع الخطوط رمزا على سن الخمسين لكى يتبين لك انه كلما بكر الانسان فى السير كلما رجحت كفة مقدرته وطالت مدة نشاطه .

وليس من شخص يبدأ سيره فى الحياة قبل العاشرة ولذلك لا يتصور أن يبقى احد محتفظا بنشاطه بعد التسعين وهنا يتفق الرمز مع الحقيقة ٠

وليس من شخص فيمن اعرف يبدأ سيره فى الأربعين ولهذا لا يماشى الرمز الحقيقة هنا لانه لا يوجد شخص ينتهى كلية فى سن الستين الا لمرض أو حادث .

استمر « بوث تاركنجتون (٢) Booth Tarkington » يكتب كتبا

---

(١) متوشالح هو ابو سيدنا نوح وجاء في الآية ٢٧ من الاصحاح الخامس من سفر التكوين في العهد القديم من الانجيل فكانت كل ايام متوشالح «تسعمائة وتسعا وستين سنة» ومات وعلى ذلك طلق اسمه على كل معمر طاعن في السن .

(٢) ولد سنة ١٨٦٩ وهو من مشاهير القصصيين الامريكيين ومن بين مؤلفاته كتابه « السيد بوكير » .

قيمة وهو فى الرابعة والسبعين وبعد أن جاوز الستين أخرج ست عشرة قصة وكتب وليسام دين هاولز (١) William Dean Howells ماظنه تاركنجتون نفسه أنه خير ماكتب ماولز بالانجليزية بعد أن بلغ الثمانين وظل جيمس ويتكوم رايلى قويا (٢)ـ J. Whitcomb Rily بين الستين والسبعين وعمالقة المسرح الامريكى الثلاثة فى القرن الماضى وهم جوزيف جيفرسون Joesph Jefferson واوتس سكينر Otis Skinner جون درو John Drew تألقوا فى سنيهم الخضراء الكبيرة وكل هؤلاء الرجال بكروا فى العمل وأظهروا مواهبهم فى الشباب ونرجو بذلك أن نكون قد أوضحنا غرضنا .

واليكم كارل سيشور Carl Seashore العالم النفسانى المشهور الذى اخبرنى فى تواضع أنه كتب ثلاثة كتب بعد أن استدبر السبعين وكان هذا منذ عشر سنوات • غير أن دليل الاشخاص فى أمريكا « Who's Who in America » يبين أنه كتب خمسة فى ذلك الوقت ومن الطبيعى أن يجد التذكر صعبا عليه لانه يقوم بأعمال عدة اذ يلعب الجولف فى كل ولاية من الولايات المتحدة ما عدا دلاوير Delaware منذ أن بلغ الستين ، وهو الرجل الوحيد على هذه الارض • على ما أعلم ، الذى اعتزل العمل ثلاث مرات ، ولما كنت على وشك الانتهاء من مراجعة تجارب هذا الكتاب كتب الى يقول : ان اعتزاله العمل للمرة الثالثة بدأ فى ذلك الاسبوع نفسه» ولكنه أضاف يقول «لن أتألم من قلة العمل فيما أستقبل من السنوات فلدى ثبت باعمال متأخرة يحتاج تنفيذها الى ثلاثين سنة أخرى » •

وهاهو جون ديوى John Dewey فليسوفنا الكبير الذى سيظل يؤثر فى الناس عدة سنوات فهو منذ أن بلغ السبعين من عمره صنف عشرة كتب احدها على الاقل ذو أهمية عظيمة واثنان آخران أقل منه قليلا وهو اليوم فى السابعة والثمانين ويبعث الى الفينة بعد الفينة بكتاب بخطه بيده بوضوح وثبات كما كان يكتب منذ أربعين سنة •

فهؤلاء الرجال بدءوا العمل مبكرين وحينما كانوا فى فتوة الشباب ولهذا فان مزاياهم تمكث الى وقت متأخر .

وليس هذا الميدان مقصورا على الرجال وحدهم بل يشركهم فيه النساء وسنذكر بعض أمثلة لهن ولابد أن يكون أولها هو المثل الأعلى •

---

(١) ولد سنة ١٨٣٧ وتوفى سنة ١٩٢٠ وهو اديب امريكى •

(٢) ولد سنة ١٨٥٣ وتوفى سنة ١٩١٦ وهو شاعر أمريكى مشهور كان كثير الاشادة بجمال الريف وسحره •

ان المثل الاعلى ليشبه الكوكب الذى يهتدى به الملاح فى سيره فهو مهما بعدت به الشقة وطال عليه السفر لا يمكن أن يبلغ الكوكب ولكنه يصل الى نهاية رحلته فى أمان ، والمثل الأعلى لا يمكن بلوغه لأنه يصف منهجا لمسلك الانسان . وعلى هذا فنحن نتخذ الدكتورة ليليين مارتن Dr. Lillien J. Martin مثلا أعلى للكثيرات لا لجميع النساء طرا ، فانها أصبحت فى زمانها رائدة فى ميادين ثلاثة : الأول علم النفس الاستشارى والثانى هداية الطفولة والثالث رعاية المسنين . وبدأت حياتها العملية كيمياوية وعلمت الكيمياء والعلوم العامة ثم تخلت عن هذا العمل وتوجهت الى المانيا لتدرس علم النفس وكان حين ذاك علما جديدا ذا مستقبل متوسط غير محقق ، وعادت الى الاستاذية وسرعان ما اشتركت فى الابحاث النفسية ببحوث عشرة جديدة .

واعتزلت العمل فى سن الخامسة والستين ثم بدات عملها العظيم كما بدأت معركتها التى فازت فيها بالنصر . وكانت تعتقد وتصرح بوجوب الانفصام الحاد من الماضى ومعالجة شىء جديد حتى يحافظ المرء على ليونته وعلى هذا افتتحت عيادتها الاولى للصحة العقلية للاطفال قبل دخولهم المدارس. وكانت تستغرق افكارها عوامل السن فى الصحة العقلية وكتبت أكثر من خمسة وعشرين مقالا وكتابا فيها . وفى غمرة هذه الكتابة سيرت عيادتها التى أنشأتها بعد ان علت بها السن هذه العيادة التى تطبق سمعتها الآفاق فى الوقت الحاضر .

وصممت على ان تحتفظ بشبابها فاستخدمت كل أنواع النشاط التى كانت معروفة فى زمانها وتعلمت فى سن الخامسة والستين كيف تستخدم الآلة الكاتبة وبعد ذلك بعشر سنين قامت برحلة حول العالم ، ولما بلغت التاسعة والسبعين ذهبت الى روسيا بغير رفيق وبغير مساعدة وقبل البدء بهذه الرحلة كانت تعلمت قيادة السيارات ، وفى سن الحادية والثمانين قامت بسياحة مدة سبعة أسابيع حول المكسيك ولم يكن معها الا ميكانيكى لمساعدتها ، وفى سن الثامنة والثمانين طافت حول جنوبى أمريكا وختمت طوافها برحلة فى نهر الأمازون .

ويقول أصدقاؤها : ان حياتها سارت وفق طراز الاطفال الموهوبين حسبما رسمه ترمان والذى أوجزناه فى هذا الكتاب من قبل لأنها حينما كانت طفلة صغيرة كانت دائما شديدة الرغبة فى تجربة الأشياء الجديدة وكانت دائما كثيرة الحركة لا يقر لها قرار ودائمة التطلع . وكانت سريعة الحفظ واسعة الأفق ذات مزاج عجيب وكانت

تتعلم بسرعة من مواضع اخفاقها وتظل محتفظة بشجاعتها غير آبهة بعدد المرات التي أخفقت فيها وكانت تحب أن تجرب كل شيء مرة .

ادركتها الوفاة وهي غضة كما لو انها توفيت وقت مولدها وكانت سنها اثنتين وتسعين سنة وكانت طوال هذه السنوات تولد صباح كل يوم .

فياسيداتي الفضليات هذا كوكب تهتدين به،لن تبلغنه ولكن ان اهتديتن به فستصلن به الى مرفأ حسن . فالدكتورة مارتن كان لديها تركة طيبة الى حد مدهش واستخدمت ما كان لديها حتى النهاية على غير ما يفعله الكثيرون منا . وكانت كلما زاد استخدامها لها زادت استفادتها منها .

والمثال الآخر مثال سيدة قريبة كثيرا الى قلوب العديد من القراء وهي ليست مثلا اعلى ولكنها مجرد مثل لامع فكونوا مثلها او خيرا منها .

في سنة ١٨٧٧ كانت فتاة في الثانية عشرة تعظ بعض رواد الطرف الشرقي (١) للندن East End وقد أخذتهم الدهشة ، ولكي تبلغ الفتاة الارتفاع المناسب اعتلت أحد الكراسي وكانت طلاقة لسانها تحرك أفئدة السامعين .

وفي سنة ١٩٤٥ وصلت هذه الخطيبة الى الثمانين وهي لاتزال مملوءة بالحماسة والفصاحة واسمها ايفانجلين بوث Evangeline Booth وهي لم تهرم كما لم يهرم جيش الخلاص الذى ترأسه (٢) وهي تقول في ابتسامة عذبة « انى أحس انى مازلت في مقتبل العمر ولي قلب شاب وأظن أن لدى عقلا سريع الحركة كعقل شاب » وكانت تعترف بهذه الوقائع وعيناها تلمعان « من يبدأ مبكرا يظل يسير الى وقت متأخر » .

حينما كان برنارد بروتش Bernard M. Baruch غلاما صغيرا كان يحب الملاكمة وبعد ذلك بقليل أصبح ملاكما محترفا . ثم يسير الزمن واذا بأحد المجرمين يقفز من سيارة اجرة في الشارع

---

(١) الطرف الشرقي او ايست اند اسم اطلق على الجزء الشرقي من مدينة لندن حيث يقع الميناء واعمال الشحن وتقع المنطقة الصناعية ، وتسكن الطبقة الفقيرة .

(٢) جيش الخلاص منظمة دينية انسانية انشأها في لندن وليام بوث سنة ١٨٧٧ وقد عم نشاطه معظم العالم وأدى خدمات جليلة للفقراء والبائسين : وساعدت كاثرين بوث زوجها وليام بوث في عمله حتى اذا توفي سنة ١٩١٢ خلفه ابنه براملول حتى سنة ١٠٢٩ اذ تولى القيادة القائد كعجز .

الخامس Fifth Avenue الذى تظلله الأشجار من جانبيه وحاول ان يعتدى على رجل متقدم فى السن ولكن هذا الرجل المتقدم فى السن هو الذى اعتدى على المجرم ـ نعم فقد كان هو بروتش .

ان من يبدأ مبكرا يظل يسير الى وقت متأخر .

والآن نستطيع أن نستخلص المغزى من هذه القصص ونعرف كيف يمكن استخدام هذا القانون المهم من قوانين الحياة .

أتذكر ما قلته عن الطفولة الثانية ؟ احفظه جيدا ولقد استعدت هذا القانون فى ذهنى وأنا اصوغ هذه العبارة فبينما تفكر أنت فيما تقوم به بعد الستين عد الى طفولتك الاولى وابحث فيها عن الخواص التى تفتحت للعمل وتناس لحظة الأشياء التى تحبها والأشياء التى تكرهها وفكر فقط فى السنة التى اظهرت فيها طفولتك لأول مرة تلك الخواص ثم تأمل فيما طفا على وجه الذكريات من الخواص قبل سن الثانية عشرة ـ مثلا ـ وحاول أن تختار من بينها واحدة تصلح أساسا لحياتك بعد الستين .

سيستولى عليك العجب .

أن الناس الذين يولدون بخواص وميول مملوءة بالحياة يجب أن يكتسبوا ثروة أو يرثوا ثروة تقدر بمليون أو اثنين وهم فى مقتبل شبابهم حتى يستطيعوا أن يشرعوا فى العمل فورا وان يحتفظوا بخطوهم الى سن متأخرة فهذه هى الحياة المثالية وهذه هى حجتى الوحيدة التى ادافع بها عن أصحاب الملايين .

ان المفخرة الرئيسية للثروة هى قوتها على تحريرك من صنع مايحتاج اليه الآخرون فتستطيع أن تصنع ماتشاء . وما أبدع كتابا يكتب عن الأثرياء الأتيقين الذين يبكرون بالخروج من المأزق ويعيشون الحياة التى يهوونها . ولو وضعته أنا لتألق معناه ولو ساءت صياغته .

ان هذا الكتاب سيتحدث عن ادوارد بيج Edward Page وقد كان فى وقت من الأوقات تاجر أصواف غنيا أخذ يتحرك وهو فى سنواته الخمسين فشيد دارا فخمة للكتب مع مسكن ملحق بها واستخدم عدة مساعدين لأعمال الأبحاث ثم استقر ليقسم وقته بين ستة وجوه للنشاط وأصبح من أكبر الناس نفوذا فى وضع نظام لتشغيل ضعاف العقول من الناس وفى انشاء مستشفيات للمجاذيب تشبه النوادى الريفية خالية

من القضبان والمراس وادار مزرعة للألبان وساهم في وضع قواعد الاخلاق والواجبات التجارية لجمعية تجار نيويورك وضرب فى أطراف الارض الا أن دار الكتب كانت محور اهتمامه حيث واصل دراسة المشاكل الاقتصادية وقام بين ماقام به بمساعدة أحد أبنائه ليتولى عملا اقتصاديا يتعيش منه .

ويتحدث كتابى سكربس E.w.scripp^s أحد كبار قادة الصحافة الذى اتبع بدقة ـ منذ أن اقتنى ثروة محترمة ر القاعدة التى أوردتها هنا من وجوب الحصول على مائة ألف عطلة فى الحياة . وقد كان يخرج فى زورق صغير وينسى أن يبلغ مكتبه نبأ خروجه ويتغيب عنه يوما أو يومين بل ثلاثة أيام ولما احتج شركاؤه كان يقول : انه يؤدى للصحف ـ بالتفكير فى الأمور على انفراد ـ عملا أفضل مما يؤديه وهو جالس فى مكتب ينصت الى تخريف المخرفين وكان يسىء الظن بمن لا يعملون الا وفقا للساعات الميقانية وبكر فى اعتزال العمل على قدر ما استطاع وأخذ يزيد ما ينفقه من الزمن على الدراسات والرحلات والاجتماع بالناس الذين كان يرى أنهم يستحقون أن ينصت اليهم ، فان لم يؤيد أحد غير سكربس المبادىء التى بين دفتى هذا الكتاب فسألتمس المساعدة من روحه وسيؤيدنى بشهادته .

وسيتحدث كتابى عن قصة ثرى آخر لايزال يدير مرصده الفلكى الخاص ويمد بانتظام جمعيتين بتقارير قوية . وعن سيدة كانت تحترف الصحافة ثم ورثت عن زوجها منذ سنوات قليلة ثروة متواضعة فأدارت بها معملا كيمياويا صغيرا استخدمت فيه ثلاثا من النساء الذكيات للعمل على حل مشكلة خاصة باللدائن لا استطيع ان اذكرها بدقة ، ثم يتحدث الكتاب قريبا من ختامه عن ديزى Daisy .

وديزى هى مسز بوردن هاريمان M rs. J. Borden Harriman وهى تبلغ الآن الخامسة والسبعين وهى يقظة كالقبرة الاولى فى فجر يوم صائف وهل تظن أن امرأة غيرها استطاعت أن تفيد من ثروتها كما فعلت هى ؟

حينما اشرفت على السبعين عينت وزيرة لامريكا فى النرويج فتعلمت الانزلاق على الجليد ولما وصلت الى النرويج كان هتلر يعمل على شق طريق له من داخلها فأصابت عصابة النازى بضربة من أشد ما أصيبوا به قبل ان تضطر الى الهرب فى الغابات حيث أوشكت أن تقع فريسة للذئاب ووجد هتلر قرنا له فى هذه التى كانت من قبل

باحثة فى شئون الاجرام نعم فلقد كانت كذلك ولا يعلم الا القليلون انها قضت اثنتى عشرة سنة فى بداية حياتها وهى تدير سجنا حكوميا للنساء فى بدفورد هيلز Bedford Hills بنيويورك ولكن الكثيرين يعلمون انها فى الحرب العالمية الأولى أخذت خمسمائة امرأة من نساء الصليب الأحمر الى فرنسا وظللن يقمن بعمل شاق حتى النهاية ..

وهى الآن جدة لأم ولا تزال تتأهب لعمل جديد فما هو ؟ انها تعمل على تأليف عصبة عالمية حول القنبلة الذرية فاكتب اليها للسؤال عن التفصيلات وهى بحسب التقويمات فى سن الخامسة والسبعين ولكن بحسب حياتها هى ، فى حوالى السن الحلوة سن السادسة عشرة وهى حلوة على أية حال .

وانى أطلب اليك ان تستخلص العبرة الصحيحة من هذه الامثلة اللامعة فهى تجمع بين المواهب والنشاط مع الثروة ولذا استطاع أصحابها أن يبكروا فى العمل ويطيلوا اللبوث وسيأتى يوم جميل يبلغ العصر الذرى أوج ازدهاره لا يحتاج فيه الانسان الى العمل كثيرا لان كل انسان سيقدر على أن يشترى ما يشاء اذ ان الاثمان لن ترتفع كثيرا وحينئذ يكون لنا عصر ذهبى يجعل عصر بركليز (١) عصرا نحاسيا .

---

(١) pericles اشهر سياسيى اثينا ولد سنة ٤١٩ ق.م وتوفى سنة ٤٢٩ ق.م.

استخدمها أودعها . اطع هـذا القانون الطبعى ولا سيما بعـد الخمسين . فهو صاحب السيطرة المطلقة على جميع العادات التى هيأتها الظروف وصاحب السيادة المحدودة ،ضيقة على الحوافز الدفينة التى تولد معك .

وقد يحيي الانسان خاصة مولودة معه وقد ظلت خاملة خامـــدة نصف العمر ولكنه بعد أن يبلغ الخمسين لن تكون له الا فرصة ضئيلة لبعث الي الحياة احدى العادات المألوفة ونحن الآن نتكلم عن العادة لا الدافع الخلقى على الكلام او الكتابة ولكن عن المهارة التامة للتكلم أمام الحشود الكثيرة او كتابة القصص ولا عن السرعة الطبيعية فى حفظ التوازن والتحرر من الصداع الذى ينتاب الواحد فى المرتفعات العاليـة ولكن عن الرشاقة الفنية التى يكتسبها المهرج وهو يسـير على السلك المرخى .

وكلما طال استعمالك للأجزاء المترابطة التى تتألف منهـا احـدى عادات العمل اليومية ألحت كالعـادة علي البقاء بعـد أن تهملها وقد لا تكون كاملة ولكنها تظل صالحة للاستعمال عدة سنوات وكانت هذه هى الحال مع الرجل المريض الذى بلغ سن الثمانين والذى كان يعالجـه دكتور كارل كامب Dr. Carl D. Camp الذى كان يتخصص فى علاج الشيخوخة وكان المريض يعيد من الذاكرة بذلاقة صفوفا يتألف كل منها من اثنى عشر رقما حتى بعد أن يكون قد تعرض لمســائل أخرى عدة دقائق . وقد لاحظ دكتور كامب علامات كثيرة للشيخوخة فى عينى الرجل وجلده وعظامه . فكيف استطاع أن يحتفظ بذاكرة أعلى كثيرا من ذاكرة الرجل الاعتيادى ؟ .

كان هذا الرجل منذ عشر سنوات يشغل وظيفة كاتب فى مخزن لأمتعة المسافرين فكان يســتذكر ارقام الأمتعة المتروكة كل يوم وظل على هذه الحال أكثر من ثلاثين سنة . وتوقف عن هذا العمل فى سن السبعين حينما تقـاعد ولكن العـادة ظلت تعمـل فى يسر حينما بلغ الثمانين .

راقبت شيخا فى السبعين من عمره يقوم بصنع الاثاث المزخرف

بعد ان بعد خمس سـنوات عن الآلات والحانوت . فبعد يوم أو اثنين عاد اليه كل ماكان لديه من مهارة ودقة . ويذكر كثير من القراء خلال الحرب أمثلة مدهشة لعادات ومواهب انبعثت فى الشيوخ والعجائز حتى استرعت اليها أنظار العمال الأحداث وفىميناء هيونيم Hueneme تلقت عجوز تبلغ سنها قرابة الثمانين أمرا سريا عاجلا لصنع مانعات سقوط (براشوت) فكان عليها أن تدبر عشرين من الفتيات الماهرات وان تعمل بنفسها ايضا .وقد كانت تعمل فى سنوات نشاطها فىمصنع للنسيج حيث اكتسبت حدة فى النظر وخفة فى الانامل وبعد أن قضت خمس عشرة سنة فى خمول عادت فجأة فى غضون أسبوع أو اثنين الى ما كان لها من نشاط . واستطاع أحد مهندسي القاطرات بعد أن بلغ السادسة والسبعين، وكان قد اعتزل العمل منذ اثنتى عشرة سنة، استطاع أن يدير حركة تحويل القطارات وتمكن من شحن وتفريغ كميات من البضاعة اكثر مما قام به طوال حياته المديدة وكان يتم اكثر هذاالعمل ايضا وسط ظلام حالك . وكانت هذه حالات مألوفة تقع كل يوم بين سنتى ١٩٣٩ و ١٩٤٥ ، وقد عاد مئات من الرجال والنسـاء الذين جاوزوا الستين الى أعمال كان بعضها أشق كثيرا مما قاموا به من قبل . ولكنى فى كل حالة استطعت تحقيقها وجدت أن العمال الناجحين كانوا يستخدمون عادات قديمة لهم فى العمل .

تقول الكتب المدرسية : « ان المران يجلب الكمال » وهـذا أمر لا ريب فيه غير أن المران أيضا يحفظ عليك حيويتك واستعدادك للعمل وعلى هذا يتفق كل من يدرسون الطبيعة البشرية وكل الاطباءوالحكماء منذ جالينوس على الحكمة التى تقضى بالمران المتواصل .

لقـد قال جالينوس فى سـنة ١٧٢ ق.م. ان العمـل هو خير أطباء الطبيعة وانه لا غنى عنه للسعادة البشرية .

ويحدثنى الصديق القديم راسل سميث J. Russell Smith الذى يكتب مايسميه «رقعة من تقاويم البلدان» وهو فى السنة الثانية والسبعين من عمره عن رجل احترف «حرفةالمرض» ماكاد يعتزل العمل أسبوعا حتى أخذ يتفحص نفسه يوميا من قمة رأسه الى أخمص قدميه : اذ كان يرى انه يتقدم فى السن وان من الخير ان يفحص آلة بدنه العتيقة فقد يكون انحل منها أحد المسامير فى موضع ما ، أو صدئت «وردة» داخل جوفة . فكان يراقب كل طبق فى كل وجبة ويتساءل أمن الصواب أن يأكل هذا ؟ وهل هو فى مأمن لو تناول قدحا ثانيا من القهوة ؟ وكان يقيس كل خطوة

يخطوها ويتساءل اينبغي له ان يسير ميلين في مثل هذا اليوم القائظ ؟ وهل يجوز له أن يسير في العاصفة الرملية ؟ وكان يفحص لسانه ويتأمل لون وجهه ويزن جسمه يوميا ويعوده طبيبه مرتين في الشهر ويفحصه طبيب الاسنان كثيرا فساهم بماله في مخزن محل لبيع الحبوب والاقراص والمساحيق واللزقات وقطرات العيون واللاقيط والقطن الماص والفازلين والادهنة المضادة للصلع والفراجين والرشاشات.

وفي هذا الوقت كان حطاما كاملا يتفتت على رمال الزمن . ثم خف لنجدته رفاقه القدامى واخترعوا وجود أزمة في عمله القديم وتوسلوا اليه ان يذهب ويساعدهم على الخلاص منها فتوجه بطلنا معهم على الرغم منه كأنه يدب نحو القبر فقد كان لايستطيع أن يحمل نفسه واستأنف عمله القديم وهو يتوقع كل يوم أن يكون ذلك اليوم آخر أيامه على الارض .

وبعد ثمانية أشهر نراه مرة ثانية وقد غدا في صحة طيبة والحمد لله .

ويسألك هل لك أن تشرب معي كأسا من ويسكي المارتيني الصرف ؟

واستمع الى هذا البريطاني اليقظ فقد كان قبل تقاعده احد موظفي قسم تسجيل السفن التابع لشركة لويد في لندن وظل زملاؤه يملئون حياتهم بالعمل حتى سن الخامسة والستين وحينئذ يعتزلون ويتقاضون مكافآتهم واذا بهم يتبخرون في الحال .

ويقول البريطاني : « تمطر السماء في اليوم التالي قليلا فيستيقظون ويتناولون طعام الافطار ويخرجون للسير مسافة طويلة ويظلون على هذه الحال أسبوعا أو اسبوعين وفي ذات صباح ينهمر المطر مدرارا فينهضون من فراشهم ويتطلعون من النافذة ولايخرجون للمشي . وبعد بضعة اشهر يأتي أسبوع كله مطر فيتوقفون عن الخروج ويلزمون البيت فترة ما ثم يرقدون وبعد ذلك يأتي اناس آخرون ليخرجوهم » .

لو ان هذا الكلام صدر عن شخص آخر لجاز أن يكون شعرا ولكنه صدر عن أحد رجال شركة لويد وكان عمله فيها حفظ السجلات كما كان هذا عمل اصدقائه ودلت الاحصاءات التاريخية بعد اكثر من

عشر سنوات على ان الرجل العادى صحيح البنية الذى يعتزل العمل فى قسم السجلات بشركة لويد يموت فى سن الثالثة والستين .

وبين الفينة والفينة يغادر أحد الموظفين المدمنين العمل بها بعد أن يتقاضى مرتب التقاعد ويذهب الى العمل فى أحد محال بناء السفن وبطبيعة الحال تفتح هذه المؤسسات ابوابها دائما لكل رجل كان يعمل فى قسم سجلات شركة لويد التى هى الانجيل البريطانى لصناعة السفن وهو يخرق بهذا التصرف جميع التقاليد والمثل الجديرة بالرجل الانجليزى المحترم ولكنه ينجح بشكل ما حتى يجاوز الستين بكثير . وهذا يثير مسالة هل من الخير له أن يموت رجلا محترما أو يعيش وينجح رجلا حقيرا ذميما ؟

ولاتحمل كل هذا على محمل أن الناس الذين يلزمون بيوتهم اذا أمطرت السماء يموتون فى سن الثالثة والستين لأنهم يلزمون بيوتهم وقت المطر ، ولا ان الناس الذين يعملون فى محال بناء السفن يعيشون حتى السبعين لأنهم يعملون في هذه المحال ، بل احملها على محمل أن أولئك الذين يسمحون للمطر الشديد ان يوقفهم يحملون فى قرارة نفوسهم بذور التحلل والذبول ، واحملها على محمل أن الذين يقومون ببعض الاعمال بعد تقاعدهم مملوءون بالحياة ومقدر لهم أن يصلوا الى سن عالية مورقة .

اعذر من انذر . تعلم انك اذا حاولت أن تقتل الوقت قتلك فى الوقت المناسب ، ثم تصرف وفق هذا . تعلم قانون الحياة الحديدى الذى يقول : استخدمها أو دعها ثم تصرف وفق هذا . تعلم أن الذى يعتزل الاعمال ويتوقف عنها بتاتا سرعان مايستقبله القبر ثم تصرف وفق هذا ومنذ زمن طويل أفهم أطباء الأمراض العقلية البارزون مرضاهم كل هذه الحقائق .

كان دكتور برنارد سكس Dr Bernard Sachs الرئيس السابق للمعهد العالى للعلوم الطبية فى نيويورك والذى ظل يعد من أقدر علماء الامراض العصبية فى البلاد ردحا طويلا كان يقول : « أقدم واعمل الاشياء التى اعتدت أن تفعلها ــ ثم أضف اليها قليلا من الحيل » وقبيل بلوغه الثمانين من عمره كان يقول :

« واظب على العمل وواظب على التفكير وحذار أن تعول على غيرك مالم تضطرك الظروف الى ذلك اضطرارا واحتفظ بنشاط ذهنك» .

وكان يطبق ماكان ينصح به حتى جاوز السادسة والثمانين ٠

ان اشد التصرفات خطرا على المرء بعد أن يتخطى الخمسين هـــو أن يجلس ويقول : « انا انتهيت الآن » .

ستنتهى فى لحظة وتنتهى تماما ٠

وعلى ذلك نصل الى نتيجة غريبة قد يراها كثير من القراء فى بداية الأمر صعبة لأنه يوجد صنفان من المحظوظين : الصنف الأول له دافع داخلى يحمله على أن يفعل شيئا ، والصنف الآخر عليه اكراه خارجى ٠ وأسوأ الجميع حظا هم أولئك الذين ليس لهم دافع داخلى ولا عليهم اكراه خارجى وهم الذين يلزمون دورهم حينما تمطر السماء ٠

ان العبقرية والفقـر هما التوأمان الســماويان منـذ قديم الزمن فمنذ أن خلق الانسان والعبقرية تمده بالحافز الداخلى على حين أن الفقر كان هو الاكراه الخارجى الذى جعل الناس فى شغل وفى صحة. ومن السهل الآن ان لم يكن من دواعى العصر الحديث السخرية من كل من يمتدح بالفقر بأية حال من الاحوال ٠ ولكن ليس من السهل ان نجد بديلا من الفقر لبقاء الناس احياء اصحاء الى سن متأخرة فى الحياة٠

ان الفقر شر فمن ذا الذى يجرؤ على مدحه ؟ ولكنه قد يكون احد الحافزين القويين وهو ينتهى بخير النتائج فى الوف من الحالات. ولست بطبيعة الحال اتكلم عن بيئات الاســتجداء التى يقضم فيها النـاس لقيمات الخبز الجاف ويذبلون الى أن يصبحوا هياكل متحركة بل اتكلم عن الحالة المعروفة بحالة الكفاف التى لايجد فيها الناس أكثر مما يكفى لطعامهم وشرابهم ولباسهم ولا يفيض عن ذلك ذرة ٠ فالكفاف لا يضعف ضحاياه انه يغضبهم انه يحركهم ليرتفعوا فوق الوحل ، فهو فى الصف الثانى الذى يلى الحرب كحافز على مجيد الفعال بل انه عـديل الحرب السيىء ٠ وقد حاول وليم جيمس أن يجد عديلا حسنا فلم يجد لانه مع الاسف لم يوجد ٠

ولقد ظن جيمس وكثير من اتباعه فى الايام الاخيرة اننا قد نجـد العديل فى بعض الحوافز الداخلية . غير أن جميع أولئك الذين شقوا فى سبيل الاطفال والعمال والمسنين من الناس يوافقون على أن اكثر الخلق بغض النظر عن السن أو التعلم ليس لديهم من الحافز الداخلى على عمل شيء اكثر مما لطوب الارض . ولتيسير المســألة اســترشدت

بعدد من الشركات التى وجدتها تبذل مجهودا جديا لمتابعة نشاط موظفيها المتقاعدين وللسعى وراء تحسين حالتهم فلم اسمع منها الا القصة القديمة نفسها وهى ان نحو خمسة وتسعين من كل مائة يعقدون حلقات يجلسون فيها أو يلعبون لعب الصبر (وهى أنواع متعددة من لعب الورق يمارسها لاعب واحد بمفرده ليقتل بها الوقت) أو لعب الدام أو يجلسون فى الحدائق ويرقبون العالم وهو يمر بهم أو يذهبون الى دور السينما أو يشاهدون ألعاب كرة القدم أو يقضون أوقاتهم فى سفاسف مختلف الهوايات لان الآلة القديمة قد وضعت فى مخزن المهملات فلا عجب اذا التحمت الاسطوانات بعضها ببعض وجفت «البطارية».

زرت احد الاخصائيين اللامعين فى طب الامراض العقلية لأرقبه وهو يشغل احدث نموذج للرسم الكهربى للمخ electroencephalograph

وبينما انا أراقب فى الحجرة الخارجية الكبرى دخل احد المرضى وجلس بجانبى وتجاذبنا الحديث عن اعمال العلاج الحديثة فى عيادة الطبيب .

فتوقف الرجل عن الكلام بشكل مريب بعد أن قال : « لا نريد اعمالا للعلاج بل نريد أعمالا فقط » .

وعلى كل حال فان هذا الرجل ادرك الفرق بين الاعمال الحقيقية والاعمال المفتعلة . والاعمال الأخيرة لم تقنعه تماما . ولابد أنه كان يحس احساسا آخر حينما كان تحت ضغط خارجي صحيح ، ولا بد أنه تعلم كيف يحبه ولم لا ؟ انه قد يكون قد استنفد من قواه أكثر من اى شيء آخر . ان أى فاشستى من الطراز الثانى يستطيع أن يضغط كل هذا ليفسره بانه يجب على الطبقات العليا أن تضغط وجوه الفقراء على حجر الشحذ لمصلحة المعدمين . اما أى واقعى من الطبقة الرابعة ممن يفهمون الميول الديمقراطية فيستطيع ان يجدها فى معناها الحقيقى وهو أنه يجب علينا أن ندرب كل شخص ابتداء من السنة الثالثة من عمره لكى ينهض ويعمل فمثل هذا الشخص قبل أن يبلغ الستين بكثير سيكتسب محركا آليا داخليا يخرجه فى أوقات المطر ان لم يرسله الى اى مصنع لبناء السفن لأوهى الاسباب .

- ١٣ -
متاعب الراحة

كثيرا مايكون للراحة متاعب . فكل اخصائى فى الأمراض العقلية الا حفنة من المتقدمين فى السن يعرف حقيقة هذا البلاء الغريب فان الراحة تنزع منا جزءا من الخشونة فى بداية الأمر . ونحن نستسلم لها عند ترحيبنا بها فاذا ما طالت الراحة زاد ما تنزعه منا من خشونة ومع الزمن تجعلنا ضعافا أمام الصعاب .

ان أول خطوة نحو متاعب الراحة هى المغالاة فى الاستهانة بالاشياء لا استسهال الواجبات الصعبة لان هذا فن يجب التحكم فيه كلا بل ان الخطر ليحل حينما يترك الناس الايام والشهور تنساب فى الوحل الأسود كما فعلت « آدا » Ada .

وآدا هذه زوج مهندس سيارات شيخ يغيب عن داره ثلاثة أيام كل أسبوع ولما كانت سنها حوالى الخامسة والخمسين كانت تجد نفسها وحيدة معظم الوقت ولها ثلاثة أطفال شبوا عن الطوق ، ومنهم من ذهب الى العمل ومنهم من ذهب الى المدرسة فكيف تملأ ساعات الفراغ هذه ؟.

انها تقول : « ان الوقت هو متعتى الغالية» .

وهذه عبارة طلية لان آدا ماهرة فى صوغ الكلام .

وهى تقول : « بعد أن يرحل « جو » لقضاء ثلاثة أيام خارج الدار أقضى أكثر ما أستطيع من الزمن فى كل واجب ، فأجد لذة فى تمديد الاعمال حتى أبسطها . وحينما كنت فتاة صغيرة طائشة اعتدت أن أفرغ من كنس حجرة الجلوس اليومى فى ظرف عشرين دقيقة والآن مع التمرين الطويل امد هذا العمل الى ساعة وانى أستطيع عند الاضطرار ان اعد غذائى فى نصف ساعة ولكنى أستغرق دائما فى اعداده الآن ثلاثة أضعاف هذا الوقت وعلى ذلك استطعت بالتساهل فى معالجة الأشياء أن يكون بين يدى عمل ضخم غير تام حينما يعود جو . ومن هذا ترون انى لم أجلس ابدا بغير عمل وهذا شىء عجيب» .

وانى لأعجب كيف أن « آدا » لم تدرك انها تكشف عن جزء كبير من روحها أسعد بها من امرأة : انها تتألم اذا عرفت أن انفاق أكثر ما

يمكن من الوقت على كل واجب لا يقع الا من خاوى الرءوس خليى القلوب ولما كان يفزعها ان تسائل نفسها « ما الذى أستطيع عمله الآن ؟ » كانت تشغل يومها بساعات من العمل الصادق .

وهذه حيلة بارعة لامراة محدودة الأفق بشكل مؤلم ولا بد أن يدرس علماء النفس هذه الحالة عن كثب لانى اخشى ان يتضح انها أوسع انتشارا مما كان يدور بخلد أى انسان . انها عنصر من عناصر الكسل وهو شبيه برغبة المساومة التى تتملك كثيرا من الباعة المتجولين واصحاب الحوانيت الصغيرة فى جميع انحاء العالم فهؤلاء المساكين يتألمون اذا دفع العميل الثمن المطلوب دون تذمر وانصرف بمشترياته فالحوانيت اليوم خالية ساكنة والبائع الصغير عليه أن يجلس وحيدا ساكنا ، ولكنهم لا يحبون الوقت الفارغ ، ويفضلون أن يملئوه بتوافه صغيرة أو بتوافه اقل من الصغيرة ، ولذلك يحبون أن يساوموا ويساوموا ويساوموا ، وبذا يمر اليوم ، وبذا تنقضى الحياة .

ولو اننا استطعنا ان نخترق الأقنعة التى تخفى العمال فى جميع أطراف الارض لوجدنا بكل تأكيد ملايين يضيعون الوقت سدى فى أعمالهم لا ابتغاء خديعة رؤسائهم ، ولا لأن أعمالهم شاقة ، ولا لأنهم متعبون ، ولكن لرغبتهم فى شغل وقتهم فهم لايجرءون على التكاسل ولايجرءون على أن يتطلعوا من مناضد العمل ليروا انفسهم فقط وان ما سماه ثورو Thoreau (١) باليأس الهادى حمل الناس على الترقيق من أعمالهم فالوقت بالنسبة لهم ليس متاعا ولكنه ضرورة مرة ، يتخذون منه سترا يحجبهم عن انفسهم وهذه هى حالة «آدا» ولكنها لن تسلم بهذه الحقيقة .

وقد وضعنا الخطط للتخفيف من الاعمال الشاقة فابتكرنا الأجهزة التى تقتصد فى مقدار العمل المبذول وحسنا من العمل الجماعى وأساليب الحوانيت الى الدرجة التى اصبحنا ننتج فيها الآن من المصنوعات فى الساعة مايزيد على ماتنتجه اية أمة أخرى فى العالم من ثلاثة أضعاف الى عشرين ضعفا ثم ماذا بعد ذلك ؟ انا نشعر بالسأم وهذه هى متاعب الراحة وبعضنا يكتفى بالجلوس وتسريح الطرف والبعض يصنعون لعبا من الورق والبعض يؤثرون الرقود حتى يأخذهم

---

(١) ولد سنة ١٨١٧ وتوفى سنة ١٨٦٢ وكان احد العلماء الطبيعيين الامريكيين وعاش بمعزل عن الناس .

الموت والبعض يترسم خطا «آدا» فيستنفد ساعة لأداء عمل يستغرق دقيقة واحدة فالوقت متاعهم الاول وسرعان ما يصبح سما لهم .

وقد سـألت احدى المجلات منذ عهد قريب الوفا من قرائهـا كيف يقضون وقت فراغهم .

فأجاب البعض في المطالعة وقال آخرون : في أعمال الزخرفة وصنع الملابس ، وقال البعض الآخر انه يقضيه في دور السينما ويتفرج على الالعاب الرياضية ويستمع الى الراديو ، ولم يذكر المحررون ان الغالبية العظمى من هؤلاء القراء في سن مابين العشرين والاربعين أي انهم في شبابهم الغض ولكنهم مع ذلك يستخدمون أوقاتهم الحرة وهم يقعون على أذنابهم الصغيرة الجميلة والنشاط الوحيد بغض النظر عن نشاط العين والاذن هو اشتغال أصابع الانسان بالابرة وهي تشكل دمية او تصلح جلبابا للحفلات .

ان الالعاب الرياضية والمسرات السلبية قد أحاطت بالعقول وأوهنت الاجسام في كل مكان ولم تحدث الكوليرا والطاعون الدملي من التخريب أسوأ من متاعب الراحة . ان أحد علماء الاحياء الذي يأبى على ذكر اسمه قد أخبرني أن هذه الملايين من القاعدين لا بد أن تكون من معدن أحط وهم كما يقول ، من بيئة مهجنة فليس لانسان سليم القوى ولا سيما اذا كان بين العشرين والاربعين أن يقنع بالجلوس ويعمل مرتاح البال . والمخلوقات التي تؤثر هذا في حداثتها انها تكون بلا شك اجساما منحطة .

ويقول أيضا ان الشخص السليم البنية الطيب الارومة يسلك مسلكا أقرب مايكون الى الرجل الذي اعجب به ذلك الذي اعتزل في باكورة الحياة من فوضى الحرب ، فذهب ليعيش في ضيعة بفرجينيا وبعد بضع سنوات قضاها هناك بدأ يحرر الى اصدقائه خطابات حزينة لأنه اعتقد أن حياته قد انتهت .

وهو لايفتأ يذكر انهياره القريب .

عندئذ بدت علامات الحرب ونذرها في أوربا وطلب الجيش اليه أن يعود فقبل وادى واجبه على الوجه الحسن وحاز ثقة بعض الذين بيدهم الامر حتى كسبوا الحرب واعتزل الخدمة محرزا شرفا رفيعا وهو في الثامنة والخمسين من عمره .

وسرعان مابدأ يئن من جديد من حالته المحزنة وقد قال فى احد خطاباته : انى انحدر من فوق الجبل واتوقع قريبا ان ادفن حيا فى مساكن آبائى واستولت عليه نوبة غامرة ويئس أهله واطباؤه من أمره ولكن بعد سنوات اخرى شبت الحرب الثانية وكانت اشد فظاعة من الاولى وأخيرا تقدم اليه الجيش فقبل أن يستأنف القيادة وبوحى من الغريزة الحيوانية السليمة وعلى رغم « قرب انهياره » الذى بدأ من سنوات عدة فقد اجاد وأحسن عملا .

ولمعت عين محدثى .

فقلت له : « يجب على ان القاه لأحصل منه على ما يصلح لهذا الكتاب فأين أجده ؟ » .

وقال عالم الاحياء انه لايرغب فى الكلام انه جورج واشنجتون كما تعلم وهو رئيس الولايات المتحدة .

وارى لزاما على ان اذكر قصته فى كتابى هذا على أية حال .

اجل ان عنا مكانه لانه حاول ان يوقف استخدام خير مافيه مرة ومثنى وثلاث فخذلته متاعب الراحة .

ان حياة الراحة التى عاشها فى ضيعته الجميلة اشاعت السم فى عقله وبدنه جميعا أو كأنه فى العمل وحده يخلص جسمه من ادران السم .

ففى السن التى اعتزل فيها معظم اترابه العمل تولى هو اعظم امجاده .

(فليس فى وسعنا أن نكون مثله لانه كان عبقريا) : هكذا قال أترابه القاعدون وانى أجيبهم بأن عبقريته لا تزيد على عبقريتكم . ففى الواقع أنه رجل أعمال مكافح ولكنه كان حيوانا ممتلئا صحة ، وتمرد على الراحة » .

والرجل ذو الصحة الطيبة يعمل ليعيش وقد سميته رجلا سعيدا من آحاد الناس ، وقد كان واشنجتون محاربا فى زمن الحرب وقد أخبرتكم أن الحرب ليس لها من عديل الا الفقر فيما أعلم والناس يحسنون غاية الاحسان فى عملهم فى وقت الخطر . واذن فليكن السؤال هكذا. كيف نجد الخطر الواجب الذى يوصل الى أحسن النتائج ؟

هل لنا ان نقبل اقدم الاخطار وهو خطر الموت جوعا ؟ هل نواجه خطر العبودية والموت فى ميدان القتال ؟

انه لاداعى لذلك اذا وجدنا بديلا اقل مشقة .

وحتى الآن لم أجد بديلا صالحا ، ويلوح لى ان خير بديل لايتفق الا مع أنواع معينة من العمل وهى :

١) مزاولة عمل لمجرد الرياضة البدنية .

٢) مزاولة عمل للنهوض بالتبعات .

٣) مزاولة عمل لشفاء الاوجاع أو تخفيفها أو الوقاية منها .

٤) مزاولة عمل تحت نظام عسكرى .

٥) مزاولة عمل بدافع يثير حماسة العامل .

ولنلق نظرة على كل منها .

ان للرياضة البدنية أثرا مدهشا في حياة الوف الناس فلا تقلل من شانها ولكن حاذر من سوء استخدامها فبعد الستين تناول منها جرعات قليلة وادخل فى حسابك الاستجابة البطيئة بعد الشيخوخة ولا تغفل أثر الارهاق ، وبعد ذلك سر فيها بما يشبع رغبتك .

قد تملأ التبعات خير سنى الحياة لألوف آخرين بما يدعو للاعجاب ولكن بشرط واحد هو أن المتقدمين فى السن الذين يتحملونها يجب أن يكونوا تعلموا كيف يحافظون على هدوئهم وثباتهم فان الرجل الوسط يجد الموت المحقق فى كثير من الالتزامات التى لا يستطيع أن ينهض بها أما التى يستطيعها فيقل عددها كلما علت به السن فيجب أن يتحرر من جميع هذه الواجبات المتلاحقة .

وللقيام بالتبعات قياما حسنا يجب أن يكون المرء كفئا لها من كل ناحية كما ينبغى له ايضا أن يحبها ولو قليلا على الاقل وفى قياس كفايتك لتحمل احدى التبعات استعن بالقواعد القديمة نفسها التى أسلفنا تكرارها والتى سنكررها مرة أخرى، يجب أن تدخل فى حسابك الحركات المفاجئة ، والارهاق فحذار من أن تضطلع بعمل قد تجد نفسك فيه وحيدا ، أوتجد انه واجب مخصص لرجلين أو أن تجد نفسك وقعت فى شرك لا تستطيع الفكاك منه .

وأسعد الناس رجل عليه تبعات يحبها ويستطيع أن ينهض بها على وجه حسن .

وأسعد الناس رجل عليه تبعات يحبها ويستطيع أن يعالجها علاجا مقبولا ولو يبذل بعض الجهد المنيف واقل منه سعادة هو ذلك الرجل الذى عليه تبعات يكرهها ولو انه ينهض بها بمهارة .

والتعس هو الذى يكره تبعاته ويخفق في النهوض بها وأتعس الجميع هو الخالى من التبعات والمجرد عن الرغبات المرتبطة بالتبعات التى قد يضطلع بها .

ان الارتجال فى توزيع الاعمال على جميع صفوف الناس الذين ينسحبون من ميادين العمل بعد الخمسين أمر غير ميسور لان كل توزيع يجب أن يراعى فيه الذكاء والخبرة والمزاج والعادات الخلقية لكل فرد ولذلك تقع هذه المسألة بتمامها خارج المحيط العام وان تنجح حكومة تضع برنامجا يفرض على الجمهور واجبات ولو خفيفة .

اذا لم يجد شخص تبعاته الخاصة فمن نحن حتى نرشده اليها؟ اننا لانستطيع أن نرشده الا الى تبعاتنا لا الى تبعاته هو .

وابسط تبعات الانسان هى ما كان منصبا على ذاته اذ ان عليه أن يرعى صحة جسمه وعقله رعاية دائمة وأن يخصص لهما مايحتاجان اليه من وقت ونشاط فاذا احتاج الى قدر منهما يزيد على المألوف تدخلا فى واجبات أخرى ، وربما أصبحتا لعنة واذا لم يحتاجا الى رعاية نفضا المسئولية عن صاحبها الى هذا الحد الذى قد تنشأ عنه مسئوليات أعظم لان لهذا الموضوع متوسطا ذهبيا وسأدع صديقا لى يشرحه لك .

لقد اعترضت طريقه وهو فى سبيله الى لعب الجولف .

فسألته : « كيف تستطيع أن تلعب هذه اللعبة ؟ » .

فأجاب « بقروح المعدة والربو » وقد قرن هذا القول وهو يطوح بيده فى الهواء كانه يمارس اللعبة فعلا .

فاجبته : « انى لم اجربها فى لعب الجولف ولكنى جربتها مرة بقلب من الدرجة الدنيا فلم أشعر بلذة فهل تظن انى أستطيع أن استبدل به قروح معدة وربوا ؟

فاجاب هذا جائز .

قبل ان تواصل سيرك لابد ان تخبرني أن هذين المرضين يساعدانك على مزاولة الجولف .

انهما يشبهان اشارات المرور الضوئية فهما الاضواء الحمراء في مرور الحياة فقد اصبت بقروح المعدة منذ اربعين سنة وبالربو منذ ثماني عشرة ، وكلاهما أمر كثير المضايقة وكان واجبا على أن أعنى بصحتي على الدوام وماكان لي أن اهمل شيئا واني لأعزو الفضل فيما اتمتع به الآن من صحة جيدة اليهما » .

ان الناس ذوى الصحة التامة غير محظوظين الا في السنوات الأولى من حياتهم لأنهم لم يجدوا من قبل فرصة مواتية يكتسبون فيها عادات وحذرا وعناية ذاتية وعلى ذلك يجدون أنفسهم في أخريات حياتهم غير مستعدين لمواجهة التغيرات والمصاعب أما الالوف الذين يعدون أنفسهم اقل حظا فهم في حقيقة الامر اسعد حظا لانهم اطالوا حياتهم وتمتعوا بخير سنيها نتيجة لعادات كثيرة صارمة في المحافظة على ابصارهم ورئاتهم وحلوقهم وجيوبهم الانفية أو قلوبهم أو امعائهم أو أقدامهم وهذا المرض لم يفت نظر الطبيب .

ما عدد من ماتوا في مقتبل الحياة أو عاشوا أرذل العمر لكونهم كانوا يشكون من حالة صحية مستعصية الشفاء ؟ انى أطلقت عليه اسما طيبا حسنا ، فاسلم الناس صحة هو من عرفته في شاب تتمثل فيه الصحة التامة فيبدو كأنه صورة مما نراها في معاهد الطب وكان يحصل بانتظام على أجر صغير لقاء عرض اسنانه على طلبة عيادات الاسنان ، فتأخذهم الدهشة لأن أسنانه كانت هي مجموعة الاسنان التي لا عيب فيها وفي سن الاربعين بدأ يذوى ، وفي الخمسين كان تعسا متهدما ، ولا يقوى حتى على تحمل وعكة برد فكانت تنقصه جميع العادات اللازمة للعناية بنفسه ، ان من الرشاقة أن تكون كاملا .

فمزاولة عمل تحت نظام عسكرى اليوم هو عمل غير عادى ولكنه كثيرا ماكان يكره عليه الناس فيما مضى فالفاشيون والنازيون أحيوه في مظهر عظيم ويمكنك أن تتخيله في بعض مظاهره القاسية حيث يكتسب الرجال صحة يغتصبون بها سلطة يأمرون بها المسنين من الناس ليقضوا في العمل مابين ساعة وأربع ساعات يوميا في مصانع شعبية والا أعدموا

رميا بالرصاص فى شروق الشمس فهل نحن فى حاجة لنضيع بعض وقتنا فى مثل هذه الاشياء ؟ انى لا اظن ذلك ولكن دعنا نسجلها كأمر محتمل الوقوع .

ومزاولة عمل بدافع يثير حماسة العامل هو على الارجح لايستسيغه الا القليلون ، وربما لم يزد على اثنين أو ثلاثة فى كل مائة شخص ممن جاوزوا الخمسين فكلما زادت أعمار الناس ـ كما تعلم ـ فهم يكبرون ويزدادون كبرا . انهم يفقدون اللذة فى معظم القضايا ويفعلون ما طاب لهم وهو قليل ـ عادة على أن بعض القضايا أيضا تنهك قواهم فان التطواف والتحدث الى الناس والقاء الخطب وادارة أعمال المكافحة وقيادة صفوف العرض لهى واجبات الفتيان الخشنين .

ومع ذلك فانى أعتقد انه سيزداد زيادة بطيئة عدد الناس الذين يخصصون خير سنى حياتهم الى هذه القضايا فيستطيعون ان ينهضوا بها دون أن يبذلوا جهدا كبيرا بغير داع .

وسيجد شيوخنا فى مشاكل مجتمع شبابنا واجبات كثيرة لا يحسن القيام بها الا بأنفسهم ، فقد يستولى على شيوخنا الغضب عندما يفشل الشبان فى تحسين المدارس ، ومكافحة جرائم الاحداث واغلاق الاصلاحيات والسجون التى لا فائدة منها وتبصير الشبيبة بالآثار العامة للبلوغ وسيرشحون فى دائرة أعمالهم الطبيعية ويضطلعون بها .

وسنتكلم عن هذا بشىء من الاطناب فيما بعد .

- ١٤ -
اسبق الزمن

على الانسان أن يساير العالم وهو فى عنفوان حياته لانه اذا مابدا أن ينسحب من ميدان العمل بعد بلوغه سن الخمسين صار مهددا بخطر التخلف عنه فقد يأتى عليه حين من الدهر يجلس بلا حراك ويرقب العالم وهو يسير بسرعة مضطردة وبحلول عهد الذرة قد يسبق أكثرنا سرعة وان كان قد سبق البعض فعلا الا ان بيننا من يستطيعون اللحاق به .

والخطر الذى يواجهه الرجل المتقاعد الطواف على فرس هو الاصطدام على الطريق العام خلال ساعات اشتداد الحركة بسيارة قوية انه الخطر الذى يواجهه رجل يرمى العدو بالقوس والرمح ويرد عليه العدو بالمدفع الرشاش وانه الخطر الذى يواجهه رجل ينادى على أناس يبعدون عنه ميلين على حين يستخدم الآخرون التليفون اللاسلكى «السائر الحاكى» والمخرمات القديمة (الدانتله) — ذات سحر اذا ماوضعت فى موضعها الصحيح وهو وقت الاصيل فى دور فضليات العجائز ولكنها تفسد هندام السيدة العصرية التى ترتدى السراويل القصيرة وتحاول أن تسابق جيرانها . والخروج على المألوف فى الزى لا ضرر منه اذا ما اقتصر على المظاهر ولكن الخروج على المألوف بالتزام العتيق من الافكار والعادات والمنتديات واللغات والمسالك والاعمال يجعل الانسان عاجزا عن المنافسة .

وهذا هو خطر التقاعد الدائم التهديد وكلما عجل المتقاعد بمواجهته والاستعداد له عاد ذلك عليه بالخير ، وقد يعتزل احد الاطباء العمل وهو شديد التصميم على أن يقضى يوما على الاقل كل أسبوع فى بعض الابحاث أو مزاولة الطب فى عيادة خاصة باحدى المدن الكبيرة القريبة فماذا تكون الحال اذا لم يكن قد استعمل البنسلين فى حياته ؟ والآن وهو يقضى فى العمل جزءا من الزمن فهل يحسن صنعا لو استمر بطريقته القديمة المتينة؟ وهل يرفض أن يستخدم البنسلين؟ واذا استدعى لحالة طارئة الى مكان لا يمكن الوصول اليه الا بالطائرة وكانت توجد وسيلة الطائرات ويستطيع بها أن يصل فى ظرف نصف ساعة فهل يصر على استخدام عربته القديمة ويعرج بها ساعات حول الطرق الجبلية ويكون المريض قد قضى نحبه ؟ ان كثيرا من الاطباء الناشئين يحملون فى

عرباتهم التليفون السائر الحاكي (وتركب الآن بناء على أمر الطب في جسم السيارات تليفونات بالراديو) فيتحدثون مع المرضى ومع غيرهم من الأطباء ومع ممرضي (المستشفيات) ومع الصيادلة على حسب ماتدعوا اليه الحاجة فهل يسخر طبيبنا المتقاعد من هذه المستحدثات الطريفة ؟ وهل يظل بعيدا عن الاتصال بالعالم وهو يطوف بسيارته أربع ساعات في الطرق الجبلية الملتوية ؟. اذا رأى ذلك فسرعان مايضعه على الرف - وبغير رفق - الاناس المتعجرفون الذين لا يستطيعون أن يتحملوا وسائل ما قبل العصر الذري .

والحق الصراح ان المتقاعدين أولى الناس بالجد والعمل الحثيث لتساير معلوماتهم الزمن وانهم يستطيعون أن يزيدوا قواهم الانتاجية زيادة كبيرة بأن يحافظوا على سبق الشبان خطوة أو خطوتين وان يتموا في الوقت ذاته في الساعة الواحدة ضعفي ما يتمه الشبان في ساعتين او ثلاثة اضعاف ذلك ، فالاعمال الفنية هي اعظم ماينعم به الرجل المتقاعد لانها تقلل الزمن والجهد في جميع الاعمال كما انها تقوم بعمل أشياء جديدة عدة لايستطيع احد القيام بها بغير اجهزة خاصة والناس الذين يتمتعون بالقوة البدنية يستطيعون أيضا أن يقاوموا ، ويقطعون الطريق في بطء غير أن الرجال والنساء الذين يرغبون أن يستخدموا كل ما أوتوا من قوة الى أكبر حد ممكن عليهم أن يسخروا الابتكارات والاساليب الحديثة .

يجب عليك بعد الخمسين أن تسبق زمانك بأكثر ما يمكن من المهارة والدقة وتمعن كثيرا في الملحوظة المدهشة التى ابداها تشارلز كترنج الذي أذهل - وهو في السبعين من عمره - بعض أصدقائه بما ابدى من تعمق شديد في مشكلات علمية لم يستطع مائة رجل ان يحلوها في مدى حياة كل منهم .

« لم لا أهتم بالمستقبل مع أني سأعيش فيه ؟ » .

نعم كلنا نعيش في المستقبل حتى أولئك الذين يحبون أن يعيشوا في الماضي لانهم عليهم أن يواجهوا الدقيقة التالية وعليهم ان يعملوا أذهانهم هل عليهم أن يحملوا المظلة او لا ؟ وعليهم أن يدفعوا الديون المستحقة في اول الشهر التالي وعليهم فوق كل شيء أن يجدوا الوسائل لاداء الاعمال وكثيرا ما يكون ذلك على حساب قوى بدنية آخذة في التدهور .

« ان المستقبل للشـــبان » ما أيسر ان تتقبل هـذا القول المأثور وما أصعب ان نتجنب المغالطة في الاستنتاج بان المسنين لاامل لهم في المستقبل . ومن الحقيقة الواضحة ان المسنين يحولون دفة الأمور الى الشبان ولكن ليس معنى هذا انهم قد تجاهلوا او اغفلوا الغد ، ان كل امرئ يملك الغد كما يملك الغد كل امرئ .

وعلى مر الزمان سيدخل العلماء تحسينات على النصف الثـاني من عمر الانسان تفوق كثيرا ما أصاب النصف الاول منها ، فمن قبل قد فعلوا الكثير للأطفال ولكن الابحاث التي اختصت امراض الانهيار والشيخوخة والاحتفاظ بالحيوية الى أمد طويل كانت مطردة الازدياد وقد ظهرت نتائجها فعلا وقد أثار دهشة البعض واعلن قليل من العلماء الشجعان في الســنوات العشر الأخيرة انه لا يمضي وقت طويل حتى يتمتع الوف الناس في حياتهم بصحة جيدة قبل نهاية هذا القرن بوقت طويل .

وسيحتفظ الرجل الذكي بعد الخمسين على صـلاته بجميع هذه التحسينات ــ وسيستخدمها ايضا وبذلك سيكون قادرا على ان ينجز اعماله بنشاط ولهفة ولكن على ان يضيف الى ما يفعله شيئا واحدا اذا شاء أن يأتي في ســنيه بأعظم عمل فلينزع من عقـله عهـد الطفولة وايام الدراسة ومباهج الحلقة الثالثة وضجيج الحلقة الرابعة وان ينزع كل شيء ماعـدا المســتقبل ويجب عليه ان يوجه انتباهه واهتمامه الى المستقبل الذي سيعيش فيه والذي يرجو ان ينجح .

لماذا ؟

كان بودي ان استطيع ان ادلي بجواب واف معتدل ولكن ذلك ليس في قدرة احد وان كانت الحقيقة مؤكدة وصلدة وعميقة فاكسير الشباب يحوم دائما حول الركن الثاني وهو في قنينة نمد يدنا اليها دائما ولكننا لا نستطيع أن نقبض عليها . انها قنينة مكتوب على بطاقتها ماذا بعد ذلك ؟

وفي اللحظة التي يواجه فيهـــا الرجل ساعته التـــالية ويهاجم مشـاكلها فهو يشكل كل جسده وعقله بشكل استطيع ان أصفه بوجه عام في أضعف عبارة لانها أضعف من أن تعبر عنها لغـــة فهو يصمم ويستعد ويذهب . ان التحفز للوثوب يطلق في بعض الاحيان نشاطا

ضخما من ناحية ما على قمة الجهاز العصبى فان مجرد التأهب والتوجه ينشط كل غدة وكل عضلة وكل عضو فكيف ذلك ؟

ما أقل ما يعرفه الانسان .

والمحقق الذى نعرفه بطبيعة الحال هو انك اذا واجهت الماضى فانك لن تستطيع استخدام عضلاتك بحالتها الطبيعية هذا اذا استطعت أن تستخدمها بوجه من الوجوه وافضل ان تستخدمهـــا فيما خلقت له ، وبعبارة أخرى ان تطلعك الى الوراء يكون أمرا مشوبا بالنقص لأنه فيه تحيز لايشمل الا المخ وحده وقد اعدت المخلوقات لتساير ما حولها فهم يغيرونها أو يغيرون انفسهم ليتمشوا مع ما حولهم وهذا يتطلب العمـل والعمل عبارة عن الحركة والحركة من عمل العضلة .

وتوجد الآن حقيقة غريبة تذكر عن العضلة فعلماء وظائف الاعضاء يعرفونها من قديم ، وان كان لايسمع فيها الا واحد من بين كل الف لم يفهمها الا أقل من ذلك وانى سأخاطر بأن أحاول شرحهـــا فكل نسيج عضلى يعمل كأنه محطـة ثانوية للقلب وانه بين اشـــباع أخرى يكون بمثابة مضخة صغيرة وان عمل هذه المضخة يســاعد القلب على النهوض بالعبء الضخم المستمر ليدفع الدم الى أصغر اجزاء الجسم . وهذا للنظرة الاولى لايعنى كثيرا أليس الامر كذلك ؟ جل بنظرك بعيدا أو أطل التفكير .

فالنسيج العضلى ينكمش ويطرد ما به من دم الى خط السير الذى ينتهى الى أطراف الجسم حيث تعيده الى القلب انسجة عضلات اخرى هناك وفي غير هذا الوقت يظل نسيج العضلى ساكنا اما مسترخيا او متوترا على حسب الاحوال ثم لا يدفع الدم وبذا ينتقل عبء دفع الدم الى مكان آخر وقد تقع على أنسجة أخرى ولكن اذا كان عدد كبير منها فى فترة الراحة أيضا أو فى فترة التـوتر فان العبء يقع على القلب وليس هذا كل شىء فالدم يظل ينفث سموما . وقد أثيرت مناقشات كثيرة عما تكون هذه السموم وكيف تؤثر فى الجسم ولسنا فى حاجة الى التدخل فى هذا القرار المزعج لان حقيقة التسمم ليست مثار نزاع ومهما كان فعل السموم فهو على الاقل يبطىء كثيرا فى مد وظائف الحياة أو يحول دونها .

من أهم اكتشافات ربع القرن الماضى هو «الراحة مرض» ، وانى لأتمثل العبارة البارعة التى قالها «بادمان»» ان جميع طرق علاج المرضى قد أعيد النظر فيها نتيجة لهذا الاكتشاف وقد أصبح الآن خير ما يتبعه

الوف الاطباء أن يرغموا المرضى على التحرك مبكرين ماستطاعوا دون أن يصيبهم ضرر وجروح المرضى الذين يجلسون أو يقفون على أقدامهم أو الذين يسيرون قليلا بعد انقضاء ساعات او على الاكثر يوم أو يومين تلتئم جراحهم بأسرع ما يكون ويتوقف الالتئام على وصول الدم الى الجرح أو الجزء المريض وكلما زاد دفع أنسجة العضل للدم زاد سرعة جريانه في الاجزاء المصابة ومن هنا يسرع الشفاء الى الشخص ومن هنا تبدو الظاهرة الغريبة وهي أن الذى تطول مدة ملازمتهم الفراش تطول مدة شفائهم ولا أستطيع ان ألومك اذا تعذر عليك تصديق هذا . ولكنه قد دلل على هذا عشرات من العلماء الذين أجروا تجاربهم على عشرات الالوف من المرضى بجميع انواع الامراض ، وتوجد أمراض قليلة مثل التدرن الرئوى الذى لايستجيب عادة لهذه الطريقة الجديدة ولاسباب معروفة جدا للاطباء . وعلى العموم فأن القاعدة الحديثة « انهض تتحسن » أصبحت علامة تدل بداية التحول العظيم فى المرتقى الطويل الموصل الى الحياة الطويلة القوية .

دع الرجل المريض فى فراشه ليستمتع بلذة الراحة مع التمريض الجيد فى المستشفى . وماذا بعد ؟ يحصل عادة أحد أمرين (وليس هذا دائما) ان القلب قد يضعف من الارهاق ضعفا دائما . وقد يكون كل محطاته الثانوية أصبحت غير صالحة للعمل والقلب لم يخلق ليعمل وحده اذا لم يكن مرهقا الى درجة الانفجار فسيحصل شيء آخر ، سيدفع الدم ببط شديد فيبطى سير الدم ويأش فى الاطراف وبخاصة فى الكعب والقدم ، وان كان يحصل هذا أيضا فى الايدى وعندما يكاد يتوقف عن الجريان يكون الدم جلطات ذات أحجام صغيرة لاترى الا بالمجهر فتلتصق بجدران الشرايين والاوعية لانعدام القوة الدافعة فى مجرى الدم ، واذا ما انطلقت الجلطات من أماكنها نقلها الدم بعد وقت قد يطول وقد يقصر الى أماكن أخرى من الجسم وحينئذ ربما التصقت بالمجارى الدقيقة للمخ أو القلب أو أى عضو آخر وتحدث الموت السريع . وهذا احدى نتائج متعددة لانهيار جهاز دفع الدم غير انه أكثرها استرعاء للنظر وأشدها ذيوعا .

والآن فلنوجد الصلة بين كل ما تقدم وبين وجوب أن تسبق الزمن *ان كل راحة طويلة شر لانها تقصر العمر وتطيل المرض الا فى حالات* قليلة نادرة وبدأت كبريات مصائب العالم حينما أخذ المدعو دكتور

ويرمتشل Dr. Weir Mitchell من سكان فيلادلفيا يصف الراحة الكاملة لكل شيء تقريبا ابتداء من عين السمكة والتهاب الاخمص الى الخبل .

ويسقط المرضى صرعى العلاج بالراحة كما يسقط غصن النبات ولا يزالون يسقطون بسببه ، وبهذا يغرقون انفسهم فى عشرات الامراض الموهنة والى التحلل الذهنى بنسبة أكبر من أى اناس آخرين . وينتهى الامر اخيرا بمرض الراحة الى قتلهم ، غير أن الاطباء الشرعيين يطلقون عليه اسما آخر .

ان الراحة التامة فى الفراش وبخاصة على الظهر هى أسوأ جميع أنواع الراحة غير ان كل ألوان الراحة التى لاتؤدى الى الشقاء من مجهود سابق مباشرة شر ، فالراحة التى بعد ساعة من عمل شاق ضرورية لمدة عشر دقائق تقريبا ويمكن دون ضرر مدها الى عشرين دقيقة ولكن حاذر بعد العشرين دقيقة حتى فى النوم لايرتاح الرجل الاعتيادى أكثر من عشر دقائق في موضع واحد ونوم الضحى عديم الراحة فالرجل الذى ينام ككتلة الخشب يتعب كل طبيب عصرى فنحن نعلم الآن أن جميع النوام الممتلئين صحة يتحركون بعنف ويغيرون مواضعهم عشرين مرة على الاقل فى الليلة وبعض الناس يغيرونها خمسين مرة ويستيقظون وهم يقولون انهم ناموا نوما عميقا ولقد ناموا نوما عميقا فعلا .

بعد الخمسين يميل الناس ذوو النشاط الآخذ فى الضعف الى اضاعة الوقت فى الفراش أو فى الاسرة المعلقة بين الاشجار أو فى التأرجح على «الكراسى الهزازة» أو يسبحون فى الخيال ويستعيدون ذكرى الايام الطيبة التى خلت أو يقرءون الكتب ولا ينتهون من القراءة وكثيرا ما تتقلص أجسامهم على بعضها فى أثناء ذلك فمثل هذه الراحات الجزئية تؤدى الى اضطراب جزئى فى جهاز الدورة الدموية فاذا ما قيدت هذه الراحات بالتعقل لقل الضرر الدائم الذى ينشأ عنها غير أن عادة الراحة اذا تملكت المرء أصبحت داء وبعد وقت ما ستضطرك الى استدعاء الطبيب لعلاجك .

كل ميل نحو الاقلال من العمل وازدياد الراحة أمر ضار ولكن ليس من الضار أن تكيف الاعمال وفق النشاط الموجود وان تمد الراحة وفق التعب الحقيقى فانما تبدأ المتاعب فى اللحظة التى تستريح فيها لانه ليس لديك ما تفعله .

وهأنا أقدم لك نموذجا بسيطا «الونزو» يبلغ اليوم الحادية والستين واعتاد في ماضيه أن يبذل جهوداً مضنية وأن يحصل أموالا طائلة أضاع منها الكثير ولم ينقذ الا ما يكفيه ليعيش عيشة العزب المتواضعة وليس به أمراض خطيرة ولكنه شديد الحساسية لأيام الشتاء البـــاردة الرطبة ولذلك يعيش في الجنوب يوما هنا ويوما هناك ولكنه يذهب لاصطياد السمك نهارا وهو لا يجيد وضع برنامجه .

ففي حوالى الساعة التاسعة يصل الى مكان الصيد في عربة قديمة ويخرج منها كرسيا مطبقا ومعطفا للمطر وأدوات الصيد ويتوجه الى البقعة المفضلة لديه حيث يقضي سحابة اليوم وبعد أن يقضي ساعة أو ساعتين دون أن يوفق الى صيد أى شيء من السمك يثبت قدميه عـــلى سياج الرصيف وتأخذه سنة من النوم بعد أن يكون قد ثبت خيط الصيد حتى اذا اتفق أن التهمه وحش البحر لايذهب به وحوالى الظهر يقضم غداءه وفي بعض الاحيـــان يتنقل الى مكان آخر وحوالى الساعة الخامسة يعود ادراجه ومعه أحيانا أربع سمكات أو خمس وبعد أن يكون قد أخذ منه التعب تعب اليوم كل مأخذ يأوى الى فراشه مبكرا أو يغط في نومه عشر ساعات او احدى عشرة ساعة .

يرى « ألونزو » طبيبه المحطم ثلاث مرات أسبوعيا لانه لا يتمتع بصحة في «ايزنت ول» وقد يكون لانه يجهد نفسه في العمل فيضيف له هذا الدواء أو ذاك ويجرع «الونزو» المخدر ثم يتوجه الى رصيفه الصيد ولذا أقدر له بضع سنوات قليلة .

واليكم نموذجا ثانيا :

ان «ماى تورث» وسنها ستون عاما كانت تقضي أغلب وقتها راقدة على أريكة جميلة تطالع القصص الخيالية وهي غنية في كل شيء الا في حسن الذوق وفي مخها وهي مفرطة السمن يزيد وزنها على المعدل اللازم بنحو أربعة وعشرين رطلا وهي تنام على ظهرها عشر ساعات على حسب ماتقول أختها (جين) النشطة الممتلئة حياة وهي منهمكة الآن في عـد نفقات الجنازة ، وهي تشكو من ورم في كعبيها وهذا من أوكد العلامات لقيام الاضراب العـــام في المحطـات الفرعية لجهاز الدورة الدموية واذا سمعت اليها ، وهي تتحدث حسبت انها جاوزت التسعين من عمرها وأخفقت كل محاولة لحملها على النهوض والسير ومع ذلك فليس بها من مرض أكثر مما بمضخة الحريق .

وربما يكون قد فات وقت انقـــاذها الا أنه لم يكن قد فات منه اربع سنوات حينما أخذت أختها فى أن تصور تفليسة أو أى شىء آخر مما يحمل المخرفة العجوز السمينة على الظن بأنها مضطرة الى العمل ولو نها تقضى سنة فى محـــل لغسل الملابس باليد لتخلق منهـــا امرأة جديدة •

والآن فان الطريقة السهلة للنهوض والعمل هى مواجهة العمـل بشراهة وليكن لديك حافز على حل مشكلات الساعة لانك بدون حافز حقيقى لا تستطيع أن تعمـــل كثيرا وأوكد الحوافز هو الجوع فان المعدة التى تعض صاحبها من الفراغ تستطيع أن تلهب أكثرنا كسلا الى العمل النشيط ويلى هذا الحافز فى القوة الفقر الذى يابى عليك الطيبات التى اعتدتها ولكنه لايقضى عليك قضاء كاملا بالموت مسغبة • والمقيـــاس الصحيح للفقر هو ما يجعلك حقيقة سابقا للزمن ببضع ساعات على الاقل وهذا فيه الكفاية لتخليصك من مرض الراحة فتشغل نفسك ثم يكون عليك أن تشغل نفسك مرة أخرى لكى تزيد ما تحصل عليه من الاشياء التى تود الحصول عليها لتعيش عيشة محترمة •

ان الناس الذين لايملكون شيئا يستحقون الرثاء والذين لديهم القليل غير الكافى جديرون بالغبطة والذين لديهم كل شىء قد يكونون اما أشد الناس بؤسا أو أكثرهم نعيمـــا لانه اذا لم تكن لديهـــم موارد داخلية ولا أى دافع لمسابقة الزمن فانهم يذوون مبكرين ولكن اذا كان لديهم موارد داخلية ويكافحون مثل «تشارلز كترنج» بتحمس شـديد لكل مايحبون فان ثروتهم تســـاعدهم وتسرع بهم فى الطـــريق الذى يسلكون ، فالمال كعادته ضار بالتافهين من الناس وصالح للممتازين •

والقليل من الناس هم الذين لديهم موارد داخلية قوية من النوع المطلوب لمسابقة الزمن ، فالكثيرون يميلون الى أن يسبحوا فى الخيـــال أو اللذات الوضيعة بأسرع ما يمكن وانك لتجد لكل شخص يشبه «كترنج» عشرة آلاف من اقزام لاعبى الجولف أو مدمنى لعبة البريدج أو الخمور أو المغفلين •

وليس هذا ناموس الطبيعة ، انه يرجع غالبا الى التربية فالمعلمون الاغبياء وقد احدثوا كثيرا من هـــذا النقص الشائع وسوف يأتى وقت تحسن فيه خطط التعليم فى المدارس وسيبدأ حوالى السنة السادسة ، ولا ينتهى أبد الدهر ويظل فى شـــدته حتى مع تلاميـــذ سن التسعين

وسيمتزج العلم والحياة فلا يسبق احدهما الآخر لان الحياة كلها يجب ان تكون تعلما وان يكون التعلم كله هو الحياة ٠

وهـذا التعليم سيدرب باصرار الناس من جميع الاسنان ليسبقوا الزمن وقد يسبقونه بساعة واحدة او بسنة ولكنهم يسبقونه على كل حال فلا يتخلفون عنه وقد يصل الى حد ان يحرم الذكريات الاجتماعية على النحو الذى نشجعه فى شكل ولائم للطلبة والتى يغنى فيها قدامى الخريجين أغانى الكلية فى سالف الايام ويسردون على الاسماع كيف انهم ربطوا بغلا فى غرفة الاناشيد بالكنيسة فان بعث ذكريات الايام القديمة يجب أن يعاقب عليها بالاعدام لانها نوع من الانتحار يجب عدم تشجيعه وكل ذكريات غير مفيدة نوع من الالتواء والالتواء هو مصيبة تقـدم السن ٠

طبق هذه الملحوظات على نفسك أما انا فلا أستطيع ، واذكر فى نفسك حقيقة بسيطة هى : انما يتجه الناس الى الوراء لانهم عادة تعوزهم الدوافع للاتجاه الى الامام وهم يبدءون يموتون بمجرد أن يفقدوا الدافع على الحياة واول علامات فقدان هذا الدافع هو التحسر على الماضى وتسريح الخيال فى تلك الايام الجميلة الخالية ، ولو ان هذا كان يحصل مرة واحدةفى السنة ولا يستمر الا دقيقة واحدة فلن يكون هذا دلالة خطيرة ولكن دلالته تنذر بالخطر اذا طال وتعدد ٠

- ١٥ -

ابقَ فى معترك الحياة



غادر جيم القطار ومشى متجها الى الشارع الرئيسى فى البلدة التى كان يأمل أن يقيم فيها بعد اعتزاله العمل فشوارعها النظيفة الفسيحة المعدة للتنزه تبتسم بما لاعهد لشوارعها من قبل • وقد زاول عمله فيها منذ أربع وثلاثين سنة ، أجل فهنا يجب أن يقيم اذا استطاع ، ولكن هل ذلك فى قدرته ؟ •

وفى غرفته الصغيرة بالفندق نشر أوراقه وكتاب المصرف للمرة المائة وراح يحسب بالارقام ، وقد يقضى هنا ستة أشهر دون أن يجد عملا يستغرق جزءا ما من وقته • وكان لزاما عليه أن يسعى ، فان معاشه لم يكفه ليعيش حياة تناسبه ، وكان فى حاجة الى ان يعمل على اية حال ولو يوما أو يومين كل أسبوع اذ لم يكن يعتزم أن يترك نفسه للفناء .

ووجد غرفة مريحة عند سيدة عجوز وبعد بضع ساعات بدأ كفاحه للبقاء فى معترك الحياة ولم يكن الامر يعدو ذلك وأسر الى صاحبة الدار بما يعتزمه فانصتت اليه ووعت ما قاله لها •

ذهب جيم الى الغرفة التجارية وحصل على قائمة بأسماء جمعيات تحسين الحياة المدنية والجمعيات الخيرية وزار كلا منها وتطوع ليعمل بها بالمجان يومين فى كل أسبوع . نعم مجانا فانه فى حاجة لأداء عمل يذكر .

وجاء اليه رجل مريض عجوز شاحب اللون وكاد يحتضنه لأن هذه الجمعيات كانت تمنى نفسها بالحصول على مثل هذا الرجل الخير وطلب منه أن يبدأ عمله من الغد •

وبدأ جيم يعمل وكان بعض عمله أن يزور رجال الاعمال ويطلب اليهم أن يتبرعوا بمبالغ صغيرة للمساعدة على اتمام تحسينات للمدينة زادت نفقاتها عما قدر لها زيادة تافهة فطلب من كل شخص مبلغا ضئيلا ولم يجد لتفاهته صعوبة تذكر فى الحصول على المال المطلوب وكلما وجد رجلا لديه فسحة من الوقت بلا عمل يتحدث اليه ويزيد معلوماته شيئا عن المدينة وأهلها • فاذا عاد الى مكتبه دون كل شيء عرفه فلم يلبث حتى أصبح لديه كتاب ضخم من المعلومات الصحيحة •

وفيما بعد نظم عرضا فاخرا ثم طابورا ثم رواية تمثيلية يمثلها

الهواة ثم اجتماعا كبيرا لينظر فى اقتراح توسيع ميناء جوى ، ولم يكن خطيبا لبقا ولم يشرف من قبل على أكثر من عمال حانوت صغير ولكنه كان يحقق النجاح بشكل ما • وكثيرا ما كانت طبيعته السمحة سببا فى الغض عن بعض عيوبه ـ وأخطائه •

ثم أتى دور التوسع فتعرف بالمهتمين بتخطيط المدينة والمقاطعة فلم يضع الا وقتا قليلا حتى عكف على دراسة العمل كله فقرأ كل شيء عنه فى مكتبة عامة وحمل موظف المكتبة على أن يزوده بكتب أكثر عن هـذا الموضوع وعالجه برفق مع رجلين وامرأة تجمعت لديهم الخبرة الطويلة فى هذا الميدان فبحثوه من كل نواحيه بحيث نسج من خيوط البحث نموذجا يتضمن تحسينا •

وجاءت الحرب وفقدت مكاتب المقاطعة نصف موظفيها واحتيج الى رجل يسد احدى الثغرات وظهر جيم فى الوقت المناسب وحصل على الوظيفة وفى غضون عام أقنع الموظفين انه يكون أوفر انتـاجا لو عمل فى ادارة تخطيط المقاطعة وأجيب الى طلبه وحصل على العمل الذى كان يحلم به وهو الآن فى عامه الثالث موفق وسعيد فماذا كانت جبلته ؟ انك على بينة بها •

لقد استطاع أن يبقى فى معترك الحياة حتى قبله الناس كما يقبلون عملة الدولة ، انه أبى أن يعتزل العمل وأن يتخذ له مقعدا فى المنتزه . انه وجد أن الطريق السهل لاكتساب الاصدقاء الجدد هو العمل الذى يجرى وسط أعمال البر •

ان أحلك خطر يهدد خير سنى العمر وهو الشيء الذى يحولها من خير السنين الى أسوئها انما هو فقدان جميع الاصدقاء والمعارف • يموت الناس كما تعلم ويرحل آخرون ويهملك البعض فاذا ما اختفوا تضاءلت فرصك لان أكثر الرجال يكونون على صلة بالاعمال والميول بوساطة الاصدقاء ـ فاذا ماتركوا وحدهم فماذا تستطيع أن تفعل ؟ انك تستطيع شيئاواحدا فقط هو أن تزيد من أصدقائك وتنشىء حلقات جديدة للتعـارف برجال الاعمال ثم تستأنف دورك القديم معهم وتقبل وحدتك (عزلتك) ولو أنها تلذ لك كما حدث لى • فانك لن تجدها صفقة رابحة ويؤسفنى أن أقول: انك ستجدها صفقة خاسرة ولا تنجح فى الوحدة هـذه الايام الا بعض التخيلات النادرة فاحذر أن تتخذها مثلا تحتذيها • أليس من مجرد الذوق السليم أن تحتاط من فقدان معاصريك بان تنسى حلقة من المعارف الذين هم أصغر منك سنا ؟ وأؤكد لك انى لا أنصح أحدا بأن يفعل ذلك ، غير أن الوفا من الرجال والنساء يبلغـون الستين فى يأس الوحدة الصـامت

ولا يبذلون جهدا للقضاء عليه فكلهم ما عدا صحابا قليلين لسوء الحظ المرير ليس لهم مايلومونه الا أنفسهم فهم لكى يتمتعوا لم يبذلوا الا مايجب وبعد فوات الوقت ٠

لا تتخذ أصدقاء من أناس يصغرونك بضع سنوات وتبتعد بهم عن كل من عداهم ولكن اتخذ الاصدقاء فى كل مراحل الحيـــاة الاولى الى ان تنتهى الى عهد الطفولة ثم اسبح فى تيار الحياة الجارى ٠

وباتصالك بمن هم أصغر منك ولا سيما الذين فى العقد الثـــانى سواء كانوا فتيانا أو فتيات يجب الا يغيب عن ذهنك الفارق الخطير بين الجيل الناهض وجيلك انت ، وهذا الفارق ينشأ من امرين بازدياد التعليم ومرارة الخبرة ٠

ويزيد التعليم الفوارق بين المتعلم اللامع والذى أقل منه لمعانا ، وعلى ذلك فكلما تحسنت المدارس وزادت صلاتها بالتلاميذ فان أقدرهم هو الذى يشق طريقه أسرع من غيره على حين يتخلف فى الوراء أقلهم مقدرة ٠ فما أشق هذا على أترابك الذين تخيلوا أننا لو علمنا كل انسان لتشابه الناس غير ان ما يحصل هو العكس فالاحسن لايشبه الأسوأ كما لا يرقى السيىء الى مرتبة الحسن وكل متعلم يتقدم تبعا لكفايته الكامنة فى نفسه وعلى هذا نجد فى النهاية تنوعا مدهشا بين العقول والمهارات ٠

واليوم فان أقدر الشـــبان هـــم من كانوا أوسعهم قدرة فى أيام الدراسة ٠ ولقد حاولنا ان يمر هذا اليس كذلك وهل لم ننجح ؟ واليوم بهذه الطريقة نفسهــــا ، فان أقل القـــادرين هم طبق الاصل من آبائهم وأجدادهم وأجداد أجدادهم ٠ ولدينا اليوم على الاقل مجتمعان مهما حاولنا تجاهلهما أو انكارهما،وربما كان لدينا اليوم ثلاثة أو أربعة لاننا لانستطيع الجزم بذلك ولكن الثابت أننا لا نجد أناسا من طراز واحد ٠

والتجارب المريرة قد آفادت الاقدر وأضرت بالرجل الاعتيادى ٠ أن البعض عاش خلال حربين عالميتين وتعلموا الموت والعذاب والفقر والتزوير والخديعة مما لم يحدث فى زمن سابق قط وعاش البعض الآخر خلال حرب عالمية واحدة وقد أطبقت عليهم ، والآن يعانون حمى التضحية وارتفاع الاسعار وكل مايعادل فى العصر الحديث ضجة الرقص الهمجى ٠ والشبان القادرون يبذلون أكبر فائدة مما تحتـــاج لهم من علم وفرص لأنهم سيسيطرون على عهد القنبلة الذرية بطبيعة الحال والذين هم أقل قدرة فسيعيشون للخمر وللنساء كالمعتاد ٠

وقد تجد مشقة لتعيش في المجتمع بين هؤلاء الشباب لان النبيه الذكي منهم يتبرم بك في حين يسخر منك الاقل كفاية (الاعتياديون) اذا رفضت خمرهم وعاداتهم • وقد سببا ارتباكا لك في بعض الاوقات ولكن اشد الاخطار تنشأ عن أن تطبق على هؤلاء الناس وسائل يوم مضى فان لك عاداتك الخاصة في معاملة الناس ولهم عاداتهم واحيانا يكون الفارق عظيما كالفرق الكبير بين آداب لياقة البدوى وآداب الدانمركى ولم لايكون الامر كذلك ؟ وبعد كل هذا فان العصر الذى نشأت فيه لايكاد يمت بشبه للعصر الذرى وانك مثل جميع المسنين : تتخيـــل أن طريقك واحد وانه الطريق الوحيد الصحيح وانه الطريق الطبيعى فالناس يكتسبون عاداتهم بهذه الطريقة دائما وعلى ذلك • ولهذا فانت تبذل جهدك دون أن يتطرق اليك شك في انه يكون أسوأ ما يتلقاه الآخرون •

يوصى الناصحون بالحذر من اتيـان أعمـــال بحسن نية وان كانت بسيطة فقد تصبح بعد قليل مألوفة عند أترابك ولكنها تعود عليك بالتعب اذا استعملتها مع آخرين •

لاتكتب خطابا الى صديق أصغر منك تذكره بسرورك وانكلاتستطيع أن تنسى ماقدمه لك يوما ما . فمثل هذا الكتاب مما يثير الريب دون شك في عقل هذا الشاب وهو ريب يرميـــك به الشاب ليس له مناسبة على الاطلاق • وعلى ذلك يمكن أن يكون مقدمة الى طلب الرجل المسن قرضا من المال •

لا ترسل خطابات تتضمن قصاصات الى شخص أصغر منك تعلم انه أكثر أهمية منك • ومن البدهى ان المرسل اليه اذا كان نبيهـا يشم انها مجرد حيلة فلاتكن صاحب حيل ،ولاتشترى حيلة او ازهارالترسلها الى شخص يصغرك الا اذا كانت الفرصة جلية تدعو الى ذلك • فالشبان فيهذه الايام لهم عقول منطقية والافعال التى لا يقبلها المنطق تثير شبهاتهم ولم لا ؟ وكنت أيام شبابى أرتاب في كل شخص أجده يسلك المســالك البالية لاكتساب الاصدقاء •

لا تكتب قائمة بجميـــع تواريـــخ من هم دونك سنا ولا ذكرياتهم السنوية ولا ترسل اليهم هدايا أو خطابات أو برقيات فقد يكون لهذا رنة بعض الوقت ولكن سوف تعرف في الوقت المناسب أن الشباب الذين هم أصغر سنا يسخرون منك اذا خلوا الى أنفسهم •

يجب الا يبرح عن بالك ما يتمتع به الشبان القديرون في العصر

الذرى من تقديرهم للواقع ومن عقول جبارة . حينما كنت صغيرا لم يسبر غور الناس فتى أو فتاة فى كل ألف كما سبرهم هؤلاء الصغار ان جيلا كاملا من الناس مدربا على العلوم النفسية طبقا لعلم وظائف الاعضاء نشأ ونما معك وفى الخمسين سنة الماضية كانت مئات من الكتاب بعضهم قادر والبعض الآخر من المهرجين يلقنون الشبان دروسا فى الدوافع البشرية والمسلك الاجتماعى ونظريات « فرويد » ومن هم أقل منه شهرة من علماء التحليل النفسى ونظرات « ادلر » وعشرات من علماء الامراض العقلية العصريين وفى الحيل الشائعة للحصول على نتائج احتراف البيع وادارة الاعمال أو قيادة العمال أو قيادة الجيوش أو معالجة السياسة . وشباب اليوم اما أنه نابه فيعرف عن طريقه عمل العقل البشرى أكثر مما عرفه وليم جيمس . كيف ذلك ؟ حسنا انه أفاد من كل ماتعلمه جيمس وانتقل الى صالونات الجيل التالى كما انه تمتع بنتائج مئات من الرجال الاكفاء لا يقلون قدرة فى ميادين تخصصهم عن جيمس فى ميدانه . وهذامايجب أن يكون اذا كان التعليم صحيحا وكل جيل قادم يجب أن يفيد مما قد تعلمه ممن سبقوه ــ وأقدر أعضائه لا يفعلون الا هذا .

ومن المؤكد ان الشاب الاعتيادى غير حكيم لانه مجرد فرد كباقى الافراد وهو لا يعرف شيئا عن الطبيعة البشرية مثله مثل أسلافه الذين سبقوه بألف عام وعلى ذلك يستطيع أن يجرب جميع الحيل القديمة لاتخاذ الاصدقاء . انهم يعملون وسيظلون يعملون دائما واذا كنت تعرف أمور الشباب معرفة كافية تستبين القادر من بين الكثيرين قد تكون وضعت نظامين لطريق الوصول والا فحذار من طريق الوصول القديم لانك تخاطر بأن تصبح أضحوكة الجميع وماذا يكون أسوأ من ذلك ؟

اذا شئت أن تكون رجلا صالحا يجب عليك كما أسلفنا القول وكررناه أن تدخل معترك الحياة وأن تسابق الزمن ، وهذا سيدفعك عادة ليقدرك الشباب كثيرا .

وهنا يكمن الخطر لانك ستجد اغراء على أن ترافق الشباب فى الرحلات الحكومية وصالات الرقص وهذا ما يسرع فى القضاء عليك وماذا بعدئذ ؟ فالذوق السليم يجيبك على هذا .

اسلك بما تقتضيه شخصيتك وتصرف بما يقتضيه سنك ولا تجر مع القطيع واقعد ، وراقبه ودع الشبان يفهمون أن تعصبك الوحيد مكانه

القلب ، وفي العضلات الكبيرة ، والرئتين ، وان محصولك من الاوكسجين يجرى آخذا في التدهور ٠

لا تعتذر أبدا من هذا الضعف الجسماني والا اعتذر الرجل عن طوله البالغ خمس أقدام وسبع بوصات ٠

واذا تجرأ بعض الشبان المزهوين على أن يظهر شجاعته ورشاقته بطريقة جريئة فوجه نظره الى ان أي وعل يستطيع أن يبزه فى النط وان أصغر قرد يستطيع أن يتأرجح الى مسافات بعيدة وبسرعة أكبر ٠

أكد تفوقك الحقيقى بطريقة غير جارحة أي غير ملحوظة وابحث عما يتعب الشبان وتحدث اليهم فيها وبث بعض الافكار التى قد يتلهفون عليها وسرعان ما ينسبونها لانفسهم ٠

وقص اخبار الناس والاعمال التى يكون لها صلة بمتاعب الشبان واترك حكاية تفسر مغزاها ولا تقم بينهم واعظا ٠

وتجنب تجمعات الشبان اذا لم يكونوا فى حاجة اليك ولا تتأذ من ذلك ٠

وابحث عما يريد الشبان ان تعمله معهم أو لهم ثم افعله فقد لا يعدو اعداد جرن نظيف فى سطح البيت لليوم المطير أو مساحة تنس فى أيام السبت فلا تلق بالا ٠

لا تتحدث الى الشبان عن أحزانك ومتاعبك واضحك تضحك معك الدنيا واذا بكيت فابك وحدك كما هى العادة وتحدث عما يهم الشبان وينفعهم أيضا ما استطعت الى ذلك سبيلا ٠

وتكلم كثيرا عن الغد وما بعد الغد وارسم الخطط فالخطة التى تفشل خير من خطة لم ترسم وسل الشبان عما يحدث لهم فى دنياهم وما الذى يبعث على ما يثيرهم وما تلك الاشياء ؟ وتابع ما تسمعه منهم واحتفظ فيما تتكهن به حتى اذا ما تحققت كهانتك وراقبت عيون الشبان وهى تتفتح من الدهشة فاذا كنت تعلم ان الرياح الجنوبية الغربية هى التى تسوق المطر فاظهر هذا العلم بالزمان والمكان المناسبين وابلغ مستمعيك أن الرياح التى تهب من الشمال لا تحمل مطرا لمدة ثلاثة أيام على الاقل فهذا يخلب

لب الاذكياء من الفتية والفتيات وهو يرفع قدرك فى نظرهم (ولكن لا تخبرهم ان القمر سيسقط فى المحيط الهادى يوم الخميس القادم) .

وكلما تيسر افخر بسنك فهذا يغير بسرعة رأى الشبان فيك فان الصغار يشبهون من هم أكبر منهم سنا فى انهم يقدرون الناس لأول وهلة بحسب تقديرهم لانفسهم فاذا أظهرت سوء ظنك بنفسك وأنت فى سن الستين فتيقن أن الفتية والفتيات سيسيئون بك الظن أيضاً .

ان من أوكد الطرق لترك الاثر بأنك سيىء الظن بنفسك أن تتخذ مجالسك فى الطرق الجانبية وتكون مشاهدا سلبيا لاعمال الشبان والعابهم فان الاولاد والبنات حينما ينظرون اليك بأطراف أعينهم يتمتعون : « مسكين هذا الرجل العجوز فكل ما يستطيعه أن يجلس ويرقب العالم وهو يسير » فانت ما تصنعه يداك لا يتفوه به لسانك .

وعلى ذلك فافعل مع الشبان ما فعل جيم مع سكان المدينة منذ اليوم الاول الذى حل فيه بها واعرض خدماتك وقد يكون ما تستطيعه أن تكون حكما فى العاب كرة القدم أو أن تقيد أرقام الفوز على اللوحة الكبيرة ثم افعل ذلك لان أقل الاعمال أكثر بألوف البلايين من لا شىء وقد يكون ما تستطيعه هو القاء دروس فى فن النجارة فى معهد مسائى أو ناد للشبان وافعل ذلك حتى لو قطعت قطعة من ابهامك بالمعول وليكن أداؤك لهذا العمل كل خميس فى الساعة الثامنة مساء وان قطعة تقطع من ابهامك لهى قطعة من الحياة على أية حال ولعلك تستطيع أن تفعل مافعله رجل أعرفه : تستطيع أن تنظم فرقة من الاحداث لفلاحة البساتين فيجمعون الاعشاب ويشذبون أشجار الحدائق بعد الساعات المدرسية وطول أيام السبت على أن يتقاضوا أجورا عادلة فان هذا الرجل يكتسب الآن ضعف ما يتقاضاه من معاش وقد تكون خبيرا فى تنظيف الالواح الزيتية القديمة والاثاث العتيق وتستطيع أن تعلم بعض الاحداث هذه الطرق ثم تحملهم على أن يباشروها فى أطراف المدينة وقد تكون .... ولم الاستمرار على هذا النمط ؟ ان مثل هذه الاحتمالات قد تبلغ عدة ملايين ومازال المتوافر من ورق الكتب قليلاً .

اذا أردت أن تظل فى معترك الحياة فلا تحاول أبدا أن تدير ناديا للمناقشة بين المعاصرين وانما ناقش مرتين كل شهر موضوعات كالموضوعات الآتية :

هل كان يستطيع نوح أن يعيش كما عاش ميتوشالح اذا لم يحدث الطوفان ؟ واحدى قدميه في القبر ٠

لا تجلس على الابواب تتطلع الى الشمس وهي تغرب وتتحدث عن الايام الحلوة الماضية التى كان فيها الناس ناسا ٠

حذار أن تعيد أحسن ما تعرف من حكايات على عشاء بالنادى يشهده رجال ونساء كانوا يقصون هذه القصص نفسها بعد الفزع الذى وقع سنة ١٨٩٣ ٠

هل استطعت ان اوضح ما فى نفسى ؟ .

- ١٦ -

خير فترات الزمن

استرجع فى ذاكرتك قليلا من الحقائق التى كانت عماد هذا الكتاب فالسنوات الاولى ينبغى ان تقضى فى النمو .. ففيها يسير الشاب وراء نزعته العاطفية ، وهذا ما يفعله المراهقون فى حلقتهم الاولى من العمر ، والسنوات الوسطى تنقضى فى اتخاذ مرتزق للعيش . أما السنوات الاخيرة فيجب حينئذ تخصيصها للتمتع بالحياة على حسب ما يهوى المرء فان كان الانسان مخلوقا ذا أنواع متعددة لا حصر لها فعليه أن يتمتع بحياته بعدة طرق وكل طريقة منها من محض اختياره ، فهو لم يعد ذلك التلميذ المكتئب الذى يساق بالسوط الى المدرسة ولم يعد المرءوس الذليل فى شركة ضخمة مملوءة بالساعات الميقاتية ، وهو بعينه أما خيرا مما كان واما شرا منه ، وكلما ازداد عقلا كلما اتسعت الدائرة التى يبسط فيها قواه على جميع ما تصبو اليه نفسه فيخصص جزءا للكتب وجزءا للناس وجزءا للتفكير وجزءا لأى شىء آخر تتوق اليه نفسه . وهكذا يصل فى الوقت المناسب الى خير جزء من الوقت ففيها جميعا يحتاج الى ذكاء احد وخبرة أوسع ، وهو يجد فى أداء الواجب الذى لا ينتهى ، واجب مساعدة الجيل الشاب لادارة العالم وتحسينه وهو ينهض بهذا الواجب بعضه بالعمل واكثره بالنصيحة وبهذا يحقق مثله الاعلى القديم .

اذا ارتفعت مقدرته المبكرة طال زمن ظهورها . أتذكر قاعدة مايبكر بالحضور يتأخر فى الانصراف ؟ وكلما كان حكيما كلما وجب عليه أن يبطل استخدام حكمته فليس له خيار وكل ما له هو مجرد حافز واذا سد الطريق أمامه تحول ومزقه فالواجب عليه أن يبقى فى معترك الحياة وان يسبق الزمن أيضا .

ويرى كل مراقب قدير من ذوى الستين ، بعين مغمضة ، انبلادنا تسير قدما ببطء فى طريق صخرى ويرجع السبب الاكبر فى ذلك الىالمبدا الفردى الحيوانى الذى يتملك كثيرا من الناس دون الستين . نحن نميل الى السخرية ونحن من علماء الحياة ولا نشير الا الى الحوادث والظروف التى يسهل التحقق منها .

ولايوجد طفل تقل سنه عن عشر سنوات فكر فى عمل أو قام بعمل أدى الى تحسين الظروف الاجتماعية (وتستطيع أنتحدد معنى «الظروف الاجتماعية » على أوسع نطاق تريد) وكل ما يستطيع عمله يتركز حول

النمو والحصول على الرغبات الحيوانية فى عالم الحيوان فالاطفـال ليسوا بشرا كما تظن بعض الامهات المخدوعات فهم فى الطريق الى أن يصبحوا بشرا وهذا من حسن حظهم ·

ولا يوجد شاب أو شابة دون العشرين ساهم بأبسط قسط فى اية مشكلة اجتماعية عظمت أو صغرت على حسب ما وصل الى علمى بعد البحث الطويل ، ان القليل منهم اشتركوا فى حروب صليبية وحروب اخرى ، غير أن هذا لم يؤد الى مساعدة أى انسان الا أتباع المعسكرات، ويقول الشاعر : ان عقل الشبان يتجه حقيقا الى أحلام الحب . ويقول عالم الاحياء : ان جسد الشاب يغلى بحرارة بالدافع الجنسى العاجل ولذلك لا يكون له عقل يستحق الذكر .

ان كثيرا من الناس (لا كلهم باية حال من الاحوال) بين الثلاثين والاربعين تستحوذ عليهم رغبة النسل حتى لا يبقى لديهم الا قليل من الآراء ونفر من النشاط الذى يفيد فى مساعدة اخوانهم ، وكثيرا من الناس بين الاربعين والستين تتملكهم رغبة جمع المال وتحسين بيوتهم والحصول على الترقيات والتنقل بين أرقى المجتمعات حتى ليبعد أن يستطيع واحد فى المائة منهم أن يخصص جزءا ملموسا من وقته للعمل فى تحسين أى شيء الا اذا كان يعود عليه بربح عاجل · فهل لك أن تلتحق بمؤتمر لدافعى الضرائب وأن تعمل لتخفيضها ؟ حقا بكل سرور : هل لك أن تعمل لمراقبة المجرمين الاحداث لتبعدهم عن بعض الشرور الاجتماعية الاخرى ؟ كلا انه يحتاج الى عمل كثير ·

أتشك فى هذا ؟ افعل كما فعلت أنا · استعرض جميع الناس الذين ينفقون ساعتين يوميا سنة بعد سنة فى غرض بعيد عن جمع المال أو ارتقاء درجة فى السلم الاجتماعى فكم تجد منهم ؟ انى لا أستطيع أن أعد منهم حتى واحدا فى المائة . واسأل زعماء احدى المنظمات كم عدد الاعضاء الذين يخصصون وقتا ويؤدون عملا شاقا فى سبيل أهداف المنظمة فأتلقى الجواب وأعد من بينهم عشرين مليـونا فى الحلقتين الرابعة والخامسة من أعمارهم وبذا استطعت أن أجد من بينهم ٢٤٠٫٠٠٠ عامل نشيط يعمل فى سبيل اغراض ليست شخصية ولكن لم أجد ولو ربع مليون وقد يكون السبب انى لم اعرف أين أبحث عنهم .

وحينئذ اذا كانت المنظمات التى تتطلع الى المستقبل لا تستطيع أن تجد عمالا دون الستين فستضطر الى أن تبحث عنهم فى صفوف الاكبر

سنا والا فلن تجدهم ، وحتى الآن لم يجد كثير من هذه المنظمات أحدا من هؤلاء العمال بتاتا واراني مضطرا الى أن أعيد :

« ان القمة آخذة في الارتفاع وقليل من المهندسين دون الستين يستطيعون أن يتخيلوا بعض المشاكل الجديدة التي سنواجهها دون حلها غير أن مكاتبنا تغص بالشبان اللامعين الذين يستطيعون أن يضطلعوا بمهام صغيرة على وجه جميل وسريع » هذا هو كلام أحد رؤساء معهد أبحاث رفض ذكر اسمه .

ندخل عهد العصر الذرى وايدينا مغلولة تماما ولدينا كثير من الراقصات وكثير من المغنيات ولكن ليس لدينا العدد الكافي من الرجال والنساء الذين يستطيعون القيام بواجبات تؤدى الى أعظم حضارة في التاريخ .

«لدنيا مائة مشروع على الرف ولا نجد أحدا لينقذها» هكذا تكلم رئيس شركة من أكبر شركاتنا الكيميائية بعد مضى أسابيع قليلة من تسليم المانيا، وبعد بضعة أشهر سرد على مسامعى هذه الحكاية المحزنة نفسها بعض مشاهير صناع الانسجة والمطاط ومدير احدى شركات حفظ المأكولات واضافوا أنه بدون تنمية المشروعات القائمة تنمية عاجلة فان ملايين من العمال سيعطلون بكل تأكيد عن العمل خلال سنتين أخريين .

نجد بين كل خمسة أشخاص شخصا واحدا هو الذى يستطيع أن يعالج أى نوع من البحوث وستجد أن سنه فوق الخمسين . ومثل هذا الرجل المسن كان ينبغى الآن أن يضع خطة للقيام بعمل لا يستغرق الا بعض وقته فى خير سنى حياته فاذا أردنا أن نغريه على استمرار فلنكرر حكايتنا القديمة العتيقة فهو بعد الستين يستطيع أن يتعلم كما كان يتعلم من قبل ولو مع شيء من البطء وسيحتفظ بعد وقت تعلمه على وجه أفضل ولن يتعبه عمله تعبا خطيرا اذا أحسن وضع الخطة فان تجاربه وأصالة رأيه وتبعاته تتحسن كلما تقدمت به السن وأقدر عشرة من رجال العلم بيننا هم فى الحلقة الثامنة .

ان كثيرا من البحث يمكن تقسيمه بسهولة الى واجبات دقيقة لا يستدعى كثير منها مجهودا عضليا ولذلك يستطيع المسنون من الرجال والنساء أن يمارسوها على وجه يدعو للاعجاب وهم يستطيعون الاستمرار بنشاط لا يكل فى الاعمال الحسابية والمسائل المماثلة الى أن يبلغوا من العمر عتيا وحتى لو ضعفت هذه المهارة فانهم يستطيعون مع ذلك القيام بواجبات خاصة فى نطاق قواهم . والرجل المنظم تنظيما صحيحا ولا

سيما الطبيب تفتح أمامه البحوث الطبية على أساس شغلها من وقته فرصا تبهر الابصار ولقد زادت هذه الفرص عشرة اضعاف باطلاق النشاط الذرى من عقاله ٠

ان الطبيب ذا التدريب العلمى السليم والذى له بعض الوسائل (ولتكن ملكا له أو هبة خاصة) يستطيع أن يجد مشكلات لا نهاية لها فى الاوجاع التى تصيب من جاوزوا الأربعين وفى عقليتهم ٠ ويكاد يكون جميع البحاث يجرون أبحاثهم على الجنين والمواليد والأطفال وصغار الأمهات واليافعين ويكاد لا يدلى برأى فيما يجب أن يأكله الرجل أو المرأة بعد الأربعين أو بعد الخمسين أو بعد الستين أو بعد السبعين أو بعد الثمانين ٠ فمن ذا الذى بحث وسائل التصحيح للهبوط الذى يكاد يكون عاما والذى يصيب المرء بعد بلوغ الخمسين فى سرعته وفى نشاطه اذا أراد أن يعد نفسه لمواجهة الجو الشديد الحرارة أو الجو الشديد البرودة ؟ وهذا أحد الاسباب العامة للوفاة فى أول خريف العمر ونهايته ومع ذلك فالظاهر أنه لم يعر هذا الموضوع أحد أكثر من نظرة عابرة ومن ذا الذى بحث وسائل مراقبة ما يسمى « Waterloging » تصلب الانسجة الهرمة وتشبعها بالماء ؟ هم قلة غير أن ألوفا من الناس سعوا سعيا حثيثا وراء كشف هذا السر وما الذى يمكن عمله لابطال سريان الهرم فى كل نسيج من الانسجة المختلفة التى يبلغ عددها ألفا ٠ ان عددا قليلا من الناس قاموا بعمل بارع فى هذا المجال ولكنه غاية فى القلة ٠

لم تكد تبدأ علوم النصف الثانى من الحياة ٠ ان وسائل معالجة الذين جاوزوا الخمسين لا زالت تتطلب المزيد من التحسين ولم تبن بعد المعاهد التى تحفظ على ابن السبعين قوته ومرحه ومطامعه بل لم توضع بعد تصميماتها على الورق ولذا فنحن نقف على طرف ليلة طويلة نتطلع الى الامام ونتساءل متى ينبثق الفجر ٠

انه سينبثق ونحن نعلم هذا لان هذه المشكلات لم تبلغ فى استعصائها على الحل نصف ما وفق فى حله كثير من الرجال الآخرين ولسنا بسبيل تربية رجال بلغوا ألف سنة ويوما ولكننا بكل تأكيد سنأتى بحياة لهذا الرجل الذى فقد حيويته حزنا على تدهوره المقترب .

فمن ذا الذى عليه أن يأتى بهذا ؟ هم أنتم أيها الأطباء الذين بدأتم تنسحبون من ميدان العمل ٠ ولم لا ؟ فقريبا ستبلغون الستين ثم السبعين ثم الثمانين ٠ وسيكون محصولكم من العلم وافرا قبل أن تضطروا الى استخدام ما تعلمتم فهيا الى العمل ٠

بل ان مائة كاملة من رجال البحوث القادرين يستطيعون أن يغيروا طعم الحياة بأكمله بعد الستين ويحتمل أن يجد نصف هذه المائة كيف تنشأ الامراض التى تنهك القوى فى أواخر العمر ، وكيف يمكن التوقى منها أو السيطرة عليها ويحتمل أيضا أن كثيرين منهم يجدون وسائل استخدام النشاط الذرى على الاسس التى خطها طلائع البحاث فى مرض السرطان وقد يؤيدون رأى بعض قادة البحوث الطبية من أن استخدام الذرات المحطمة فى الطب سيفوق استخدامها فى الصناعة .

ويدرب قليل من الاطباء للبحث العلمى فماذا يفعلون ليتمتعوا بخير سنى حياتهم. نحن لازلنا نضرب على الوتر القديم نفسه. انسحب بالتدريج عن العمل ولا تتخل عنه واسرق من العمل كل ما تحتاج اليه من الوقت للذتك الحلوة الخاصة ، ولكن ابق فى معترك الحياة فالكل يعلم أننا نشكو من نقص عدد الاطباء أنفسهم الا فى بعض مدن كبيرة قليلة .

يستطيع الطبيب المتقاعد فى كل مجتمع تقريبا أن يزاول عمل الطب على حسب ما يهوى كثرة أو قلة ويستطيع أن يساعد فى العيادات ويستطيع أن يتولى أعمال السكرتارية فى الجمعية الطبية المحلية ويستطيع أن يقوم بأعمال المكتبة كأن يلخص المقالات المهمة فى الصحف الطبية ويستطيع أن يقوم بعمل بعض موظفى المستشفى الذين يحتاجون الى التغيب للراحة ويستطيع أن يعالج الاحصاءات المحلية حتى يقف الأطباء على سير الصحة والمرض فى دوائرهم .

ان البلاد تشكومن النقص الخطيرفى عدد الاطباء وموظفىالمستشفيات الاخصائيين وستظل شكواها قائمة عدة سنين وعلى ذلك فالطبيب الذى على وشك اعتزال العمل يؤدى خدمة جلى الى المجتمع بمساعدته للعيادات والمستشفيات وفى كثير من الاماكن سيرحب المسئولون بالقادم الجديد ويسمحون له أن يخصص لهذه المؤسسات ما شاء من وقته .

وأكثر ما يستدعى العجلة فى الوقت الحاضر هو العناية المنزلية بالجرحى من قدماء المحاربين ولا يحسن القيام بهذا الواجب موظفو الجهات الرئيسية فان من أوكد الطرق لتحسين الحالة النفسية ثم الحالة الجسدية للرجل الجريح اعادته الى بيته ليعيش مع أصدقائه فى بيئته التى اعتادها ويتفق فى هذا الرأى جميع الأطباء فى كل أنحاء الأرض .

والاطباء اليوم مرهقون بالعمل وكثيرون منهم يرحبون بمن يقضى معهم بعض الوقت لمساعدتهم ولا سيما بذوى الماضى الحسن والسمعة الطيبة فنظم العمل بما يتفق مع حاجاتك ورغباتك واصطد السمك ثلاثة

أيام فى الأسبوع وساعد المرضى فى باقى الوقت أو اصطد ستة أيام فى الاسبوع وساعدهم فى اليوم السابع فهى حياتك تنظمها كما تشــاء لاحياتي ٠

وابق فى بلدك اذا راق لك هذا وكن مستشارا طبيا فهذا عمل يكاد يكون جديدا عليك ولكنه عمل يستطيع أن يتولاه بعد خمس دقائق شيخ مجرب يحمل لقب دكتور قبل اسمه وبعد أن تقضى شهرا فى هذا العمل ستعجب كيف لم تفكر فيه منذ سنوات ؟

وانك تجد هنا وهنــاك مستشارين طبيين وهم يعمــلون عادة فى فى المستشفيات فيعطيهم الأطباء الموظفون ســجلات المرضى ويستفسرون من المستشارين عما يجب أن يفعلوه مع كل مريض فمثلا اذا حضر مريض لعمل جراحة له شرح المستشار ما يجب أن يدركه المريض لكى يقوم من الجراحة معافى ويكاد المستشار يتكلم دائما عن نظام الغذاء والراحة ويبذل ما يستطيع ليوقف القلق والاضــطراب أيضــا فيستقدم اليــه الأصدقاء ويجمع الأخبار من أسرة المريض ومن محل عمله ليقنعه بالبقاء فى الفراش حتى يستعيد صحته دون الاضرار بمصالحه الخارجية ٠

وبعد الجراحة يشرح المستشار سير الشفاء وسيكون بلا شك أسرع مما تخيله المريض وتنفيذا للتعليمات يشجعه المستشار على التحرك فى الفراش وعلى النهوض منه والسير بضع خطوات خارجية ثم الجلوس فيه لكى ينشط كل جسمه ويعجل بعودته الى الحيــاة المعتادة وكلمــا تقدمت النقاهة يشجع المستشار المريض على قراءة الكتب القيمة ومناقشة المسائل التى يعلقهــا فى ذهنه وكل هــذا هو علاج صحيح أولى للحــالة الذهنية للمريض فيزيح المريض عن صدره متاعبه ويستبين الموقف فى مسائل لم يكن يحب التكلم فيها لو أنه كان سليم البنية ٠

ان الوفا عــدة من المرضى يلزمون الفــراش فى المستشفى كل يوم ويمكثون به فى المتوسط أقل من أسبوعين فقد يستطيع المستشار النشيط ان يتولى عــلاج عشرين منهم فى اليوم وان كنت أشــك فى ذلك ولو أنه عمل ثلاثة أيام فى الأسبوع لوجد فى أخريات عمره عملا مربحا وسيأتى يوم على ما أظن توجد فيه أعمال لخمسين الف مستشار أو أكثر يخصصون لها جزءا من وقتهم ٠

افرض أن جميع المستشفيات فى مدينتك بها مستشارون ثم ماذا؟ اذن انظر فى المقاطعة أو فى المقاطعة المجاورة ان الأمل يكاد يكون بنسبة واحد الى ثلاثة فى أنك تعيش فى مدينــة ذات حاجة الى خدماتك وانهــا

تستطيع أن تنقدك أجرا عليها والاحتمال اقوى فى مايزيد على خمسين فى المائة فى المقاطعات التى لا تبعد عنك بأكثر من مسيرة ساعة تحتاج اليك فورا ٠

تفتقر مدن عدة الى خدمات صحية عامة يتفرغ لها من يقومون بهـا ولكن الكثير منها فى حالة مالية لا تسمح لها بتحمل أعبائها فلم لا تتدبر أمر تعيين بضعة أطباء متقاعدين وبضع ممرضات متقاعدات للقيـام بأعمال رجل واحد متفرغ وينقدون رواتب تقل فى جملتها عما يطلبه الرجل المتفرع ٠

حقا ان كثيرا من المدن لا تجد مثـل هؤلاء الفنيين المتقاعدين داخل حدودها وأن مدنا أخرى لا تستطيع أن تغرى بالعمل مثل هؤلاء الناس غير أن أكثر هذه المدن على الراجح تستطيع أن تضع برنامجا يجـذب المتقاعدين من الشيوخ مثلا ٠ لم لا تعمل على أساس مركزى ثابت ؟ ولم لا تجمع عددا متطوعا من الأطباء المتقاعدين الذين يعيشون فى دائرةالمركز والذين يستطيعون أن ينتقلوا أحيانا ؟ ولم لا ترسلهم الى المدن التى تكون فى حاجة الى المساعدة كلما دعت الحاجة الى انتقالهم ؟ والأمر كله لا يعدو وضع خطة ماهرة لا أكثر من ذلك ٠

افرض أنك لم تجد من يحتاج اليك لا فى المستشفى ولا فى المدينة ولا فى المركز فهـل تتأوه وتحمل حقيبـة الجولف وتمضى الى أول جحر للكرة لتنتظر الضابط الـكبير الشيخ « هيج اب » وممرنه ؟ لا أظن ذلك ان مجالك مشحون بالفرص والكثير منها جديد جدة لبن الغد فهل سمعت فى حياتك عن علاج العقل الصناعى ٠

صرح أخيرا علماء الأمراض العقليـة الذين كانوا يدرسون موضوع النقص فى عدد الاخصـائيين أننا فى حاجة الى أكثر من ألف رجل للعمل فورا فى هذا الميدان الصعب وهم يخبروننا أن عدد المصانع الكبيرة التى تستخدم هؤلاء العلماء فى ازدياد وأنهم يفحصون ويعالجون المرضى والعمال الذين تنتابهم الخيالات والذين يحضون على الاضطرابات وغيرهم من ذوى الشخصيات الملتوية وقد وجدوا أن كثيرا من المتـاعب التى يعانيها رجال الصناعة من العمال تبدأ مع هؤلاء الذين لهم عقـول مريضـة او ملتوية او أصابتها احدى الصدمات ٠

ألا يوحى هذا بوجود فرصة لاخصائى الأمراض العقلية وللاطباء ممن يودون الانسحاب تدريجيـا من ميدان العمل ٠ فلم لا يبحثون عن عمـل

نبعض الوقت في بعض المصانع الكبرى أو في مجموعة من المصانع في بعض المدن الكبرى وهو أفضل ؟ ان الطلب شديد والعرض ضعيف وهل يستطيع أن يعالج الموضوع خير من رجل حائز لجميع قواه ولكن مستوى نشـاطه قد قل ؟

ألم تدرس أيها الطبيب علم أمراض العقل من قبل ؟ ان هـذا أمر يؤسف له ! ولكن لا يتطرق اليأس الى نفسك وتنتحب . فكم من السنين قـد أنفقت ؟ ـ آه نعم ثمانيـا وثلاثين وأنت تبرىء المريض ودع زميلك الاخصائي المتمكن في معالجة الامراض العقلية يعلمك بطريقة غير رسمية وخصص بعض وقتك للمطالعة في هذا الموضوع بضعة أشهر وبعد ذلك ستجد نفسك مساعدا قديرا للاخصائيين لا اخصائيا بطبيعة الحال ولكن مساعدا يستطيع أن يضطلع بقسط كبير من العمـل الفني وتستطيع أن تنشىء لك عملا جديدا مع مر الأيام .

فالاعمال تقوم على القانون والقانونيين ، وكذلك الحال في الحكومات فالمحامي الذي يود أن يستمتع بخير سني حياته يستطيع أن ينتقي ويختار من بين الاعمال التجارية والاعمال الحـكومية مايشاء وأن يستعمل في اختياره هذا من الجراة ما يستعمله ذو الملك والسلطان وسيجد دائما من أصحاب الملايين كل زلفى وتقرب والمحامي ذو الموارد المستقلة هو أقل الناس حاجة الى نصحنا .

ويستطيع أيضا أن يوجه نفسه الى نواح أخرى .

ويستطيع أن يصير محاميا للفقراء .

وسيرى أن كثيرا من الناس يتوقون الى أن يكونوا عملاءه فقليل من يستطيع حاليا أن يتحكم الى القانون . واليك ماقاله لي أحد المحامين « ان الافلاس هو متعة رفاهية للأغنياء من المحامين دون سواهم » (وكان يربح ٢٠٫٠٠٠ جنيه سـنويا في ميدان الافلاس وهو بهـذا جد عليم) ويقول المحامون في النواحي الاخرى كثيرا مثل هذه الأقوال الطريفة .

وفي مقدوره أن يباشر عملا من أعمال المعـاهد الخيرية والاجتماعية وهذا أحد وكلاء الدعاوى الذين لا يقل دخلهم عن ١٠٫٠٠٠ جنيه سنويا يخصص الآن نحو يوم في كل أسبوع للاستشارات العادية في القضايا التي تباشرها الهيئات الخيرية فهو قد قضى وقته في نزع الملـكية والحجز والمتروكات ، ألم يكن واجبا عليه أن يفعل شيئا آخر بجانب هذا فيستطيع أن يقوم ببعض الأعمال الزراعية في جزء من وقته ؟ أو يستطيع أن يعالج

بعض القضايا بين وقت وآخر مما يكون قد اكتسب فيه من قبل خبرته مع قيامه بعمل استشارى ببعض مكاتب المحامين القريبة منه أو أن يقوم بأبحاث بشركات لا تستطيع القيام بها لوفرة ما لديها من أعمال ؟ وعلى قدر ما أعرف فان الشبان تستهويهم المدن الكبيرة وكانت النتيجة أن زاد عدد المحامين على عدد العملاء ، وزاد عدد المتسكعين فى الحدائق العامة على من يستطيعون دفع أجور المحامى وترتب على هذا ازدياد عدد النصابين والمجرمين • وكانت نسبة المحامين قبل الحرب فى فرنسا وألمانيا تقدر بمحام واحد لكل ٤٥٠٥ من المواطنين ولكن فى الولايات المتحدة كانت النسبة ١ الى ٧٦٣ على حين أن فى مدينة نيويورك ٣٧٨ وكان مئات من هؤلاء الشياطين المساكين يغالبون الحياة بالعمل بعض الوقت كمعلمين خصوصيين أو خدم فى المشارب والمقاهى أو وكلاء قضائيين •

ومن الناحية الأخرى توجد مئات من الأحياء المجاورة ينقصها محامون للقيام بالاعمال البسيطة الخاصة بمراجعة بوالص التأمين وبتسوية مسائل الضرائب ووضع صيغ عقود الايجارات والفصل فى منازعات العمل بطرق التحكيم وتحصيل « السفاتج » (الكمبيالات) التى لم تدفع وجميع هذه الاعمال قد تبلغ من القلة فى الكم والجزاء درجة لا تجذب اليها الشبان ولكن ما الحال بالنسبة للمحامى المتقاعد الذى يفترض انه يحتاج الى أن يضيف مائتى جنيه الى دخله السنوى ان هذا يخطر ببالى كفكرة مثالية ، وفوق كل ذلك انه يواجه أولى الضرورات التى لا غنى عنها وانك تستطيع أن تعمل كثيرا أو قليلا بقدر ما تحب .

ولهذا فانى أعدل توصيات نقابة المحامين التى أوصت بها منذ عشر سنوات فبدلا من حث الشبان على انشاء المكاتب فى الاحياء العامرة أحث الآن المتقاعدين على ذلك • وانى أعدهم بأنهم بمثل هذا العمل سيقضون على الفكرة المحزنة التى تجول فى نفس رجل الشارع من أن المحامين لم يوجدوا الا لخدمة الاثرياء .

وحسبنا هذه النصيحة للمحامين ، وسأضرب على ذلك أحد الامثلة اللامعة ولا أسأل عن هذا اجرا : أن الفتاة «دوروثى جونستون» تقيم فى هوليوود ولا تظن أنها من نجوم السينما • انه مديح صادق لامرأة استخدمت مهارتها المشروعة لمساعدة المحتاج وبطريقة فذة •

ففى الأربعين الاولى من عمرها اجتازت مسز جونستون امتحان المحاماة وأصبحت محامية بكل معنى الكلمة ولكنها لم تعلق لافتة باسمها قط •

عنيت أشد العناية بسوء حالة ألوف النساء ذوات الدخل القليل في منطقة لوس انجيليس اللواتي كان يخدعهن المحامون الحاملون والنصابون وكانت كاليفورنيا من زمن طويل كما تعلم مجتمع الأرامل واليتامى الذين كانوا يعتقدون أنهم يستطيعون أن يعيشوا بدخلهم الضئيل في الأكواخ الصغيرة التي لا يتخللها الهواء الا من خلال الجدران والتي كانوا يبعثون فيها الحرارة بأعواد الثقاب التي يمسكون بها بين الابهام والسبابة ، وتهافت على هذا المكان أيضا عجائز يمتلكن بضع مئات من الجنيهات كن ادخرتها لمواجهة الشيخوخة .

ومعظم هؤلاء الناس عسير عليهم أن يميزوا بين الانسان والحيوان أو يفرقوا في حساباتهم المالية بين الدائن والمدين ، وكن يثقن بما يقوله لهن أي رجل ظريف ولا سيما اذا نظر اليهن في اندهاش متسائلا هل أخبرهن أحد من قبل بمشابهتهن لبعض ممثلات السينما المشهورات وبهذا يتسلل اليهن كل محتال معسول اللفظ ويأخذ في ابعاد الناس عنهن .

وكن يبعن الماشية في مزارع الكروم الممتازة التي كان يمكن أن تدر عليهن من الارباح أكثر مما تدره مصانع هنري فورد . ولكنهن يؤكدن لمصاصي دمائهن أنهن في غير حاجة الى المال ويكتفين بتسلم تلك الاوراق المكتوبة ذات الحبر الأخضر المودعة قبو خزائن الودائع ، ثم حلت القضية الكبرى المعروفة بقضية « نصب التين » اذ استثمرت الخادمات العجائز جميع مدخراتهن في حدائق لم تثمر ثمرة واحدة ، من التين ولم يمض طويل وقت حتى علت من أكواخ القسم الفقير من الطرف الشرقي للمدينة صرخات مدوية مولولة ثم استطالت صفوف طالبي الخبز من الحكومة .

وعندئذ انهمكت نساء المدينة في العمل ونظمت النوادي مئات الأعضاء في فرق للبحث الاجتماعي ومن بينهن نبتت جمعية حماية الارامل . وأضافت مسز جونستون الى برنامج هذه الجمعية طيلة خمس سنوات كاملة جهودا مضنية استغرقت وقتها في مكافحة المحتالين وجمع أدلة الاتهام ضدهم حتى انهم اما هربوا من المدينة واما سيقوا الى السجن والقليل منهم قبض عليهم ومعهم المسروقات وسلموا غنائمهم،ولكن معظمهم استخدم المال المسروق ليدفع منه أجر المحامين . وهذا ــ كما تعرف ــ احدى المزايا العظيمة لاحتراف الاحتيال فتستخدم أموال الغير في سبيل تخليص النفس وقد تآمر وكلاء ملاك المدينة وأعضاء المجلس البلدي ورجال الاعمال المفروض فيهم الاحترام على الاحتيال وأسرفوا أيما اسراف من جراء الارباح الطائلة التي جمعوها الى أن قبض عليهم النسوة وقد أصبحت

لوس انجيليس ـ فترة من الزمن على الاقل ـ على درجة من الامن بأن يسير فى طرقها فى وضح النهار أى رجل شـــديد الحذر مكتفيا بمسدس واحد وصفارة بوليسية ٠

أما اليوم فوا أسفاه ان انجيليس قد امنت من خوفها كما أمنت كل مدينة كبيرة أخرى فضلا على بضعة آلاف من المراكز الصغيرة . وانى ليؤلمنى ان اقول ذلك ولكن التاريخ يضطرنى اليه ٠ ان مبالغ ضخمة من المال أصبح يمتلكها قوم لم يكن لهم رصيد كبير قبل الحرب ولم تكن لديهم أقل فكرة عن طرق المحتالين ويزداد المحتالون جرأة فى كل يوم وبجميع الطرق وان من الطريف أن الغبى وماله سرعان ما يفترقان .

وهذا حق لا مرية فيه فبعد حرب سنوات ١٩١٤ ـ ١٩١٨ أصبح كثير من قدامى المحاربين فريســـة سهلة يجردون من مكافآتهم بخطط مدروسة وكلمات معسولة وفى نهاية الحرب العالمية الثانية حذر الرجال والنساء عند تسريحهم تحذيرا شديدا من الوقوع فى مثل هذه المشروعات فى استثمار أموالهم ومن الانخداع بأمل الحصول على أرباح من أى نوع الا بعد بذل كل ما يمكن من التحريات ٠ ومع ذلك فيوجد الآن عمل فى هذا الميدان للمحـــامى القدير الذى يتوق بتخصيص جزء من سنى حيـــاته الى مكافحة الجيش الضخم من الأشرار الذين يعملون على الحصول على هذه المدخرات والمكافآت ، فأين المتطوعون ؟

وابداء المشورة القانونية يجب أن يجذب اليه أقدر رجال الصناعة والمال والتجارة والحكومة كما اجتذب برنارد باروش ، فهو يبشر بنتائج أكبر من أى نشاط آخر ويعود على صاحبه بكثير من المجد والشـــهرة والشرف والاصدقاء وكل هذا فى وقت أقصر ومجهود اقل وما أقـــل مايحتاج اليه الانسان ليصون سمعته من فضائح صحيفة يوم الأحد ٠

قال ليناردو دافنشى (١) بحق « ان وضع الخطة من شئون السادة وان تنفيذها من شئون الخدم فهل يستطيع أحد أن يعبر تعبيرا خيرا من هذا التعبير » .

ان المهندس المعمارى العظيم لا يتحتم عليه أن يصنع الآجر بنفسه وكذلك المهنـــدس اللامع لا يســـتطيع أن يثبت فى جسره الخاص قضبان الصلب بالمسامير فى القنطرة الخاصـــة به ٠ وفى أيام بطولة التصـــوير

---

(١) (١٤٥٢ ـ ١٥١٩) من فلورنسا رسام ونحات وبناء ومهندس من أنبغ رجالات عصره وهو صاحب صورة لاجو كندة المشهورة ٠

والنحت لم يدر بخلد جبابرة الفن أن يملئوا كل بوصة مربعة فى القماش الذى يصورون عليه ولا أن ينحتوا بمعاولهم كل المرمر من الكتلة الكبيرة التى تركز فيها حلم الفنان فأترك هذه السخافات الى الأصاغر ذوى الخيال الضيق ٠

انالرجل المسن هو وحده الذى يملك تقدير المشروعات الانشائية وتخيلها بالأسلوب الفخم (وأرجو ألا يبرح ذاكرتك أن المشروع هو تعهد عظيم الأهمية بالتعامل مع الناس ومعالجة المواد والموقفبحذافيره على فترة ممتدة من الزمن وان كتابة قصيدة من الشعر لا تعد مشروعا كما لا يعد كذلك اظهار احدى النغمات بالصفير) ولما كان السادة ذوى نشاط أقل من نشاط الشباب كان عليهم أن يتركوا الجزء الثقيل من أعمال التنفيذ الى خدمهم وأن من آيات كبار السـادة أنهم يستطيعون أن يتخلوا عن مثل هذه الاعمال ٠ أما أصـاغر السادة فلا يستطيعون ذلك وهم يفقدون ما فيهم من عظمة صغيرة كلما أنفقوا أوقاتهم على أعمال صغيرة ٠

كثيرا ما قيل ان أعظم المديرين هوالذى يدير منظمته ادارة يستطيع معها أن يتخلى عنها فى أى وقت مختارا أو مكرها دون أن يؤدى ذلك الى قلق أى شخص أو اضطراب أى عمل ، وليذكر هذا كل متقاعد وهو يفكر فى وضع خطط عمله بعد الستين ٠

ان الخبرة والحكمة هما أثمن المقتنيـات فى أخريات الشـباب وان انسانا لا يكتسب خبرة عملية بعد قضاء نصف قرن فى الحياة حقيق بألا يكتسبها أبدا ، فليس أغبى من الشيخ الغبى ولـكن لحسن الحظ لا توجد حكمة تماثل الحكمة التى تأتى بها الأيام وان الغبى اذا اعتزل العمل تركناه لغبائه الحلو ولكن اذا اعتزل العمل الرجل المحنك لوجب على الشبان أن يطلبوا اليه النصيحة وأن يؤجروه عليها أيضـا اذا كان هـذا الحكيم فى حاجة الى المال ٠

ولقد أتى حين من الدهر قام فيه الشبان بهـذا العمل فان قول « الربى » يحدثنى عن جدته الكبرى وهى احدى رائدات « الباما » اللواتى أوجدن مونتجمرى ولما كانت قد ولدت بعد حرب ١٨١٢ بقليل فقد عرفت وهى فتاة كثيرا من الرجال والنساء الذين ولدوا قبـل الثورة الامريكية بوقت طويل والذين حاربوا فى تلك السنوات المريرة والذين اتجهوا بعد أن حرروا البلاد نحو الغربونحو الجنوب الغربى حيث وجدوا ثروات جديدة٠ أما ماضيها فكانماضي الآباءالمؤسسين(Founding Fathers)وعلى ذلك كانت كلما تقدمت بها السن تعظ أولادها ثم أحفادها ثم أخيرا أولاد أحفادها ٠

وحوالي الأربعين من عمرها كف بصرها وكانت خلال الأربعين سنة التالية تجلس أمام المدفأة في غرفة علوية في منزل حفيدتها وفي ساعة معينة كل يوم تناقش كل فرد من أفراد أسرتها الكبيرة في جميع مشاكل العاطفة والمال ، وهل يحسن أن يشترى أوعية جديدة خشبية للزبد ؟ وهل يصح أن يشخص « تومى » الى المدينة لبيع لحم الخنزير ؟ وما الذى يصنع للمهرة الرمادية العجوز بعد أن ضعفت عن جر المحراث الصغير · وهل يحسن ايداع القمح المصرف أو حفظه في القدر النحاسية القديمة على رف المطبخ للصرف منه ؟ واذا تقدم السيد ادوارد يطلب يد « سلى » فهل ترفضه لأنه مدمن للشراب ·

هكذا كانت تدور هذه المسائل في عقلها العتيق كما يدور القمح في الطاحونة ولم تكن الأسرة تتبع دائما نصيحتها لأنهاكانت فى بعض الاحيان سيئة التصرف ثم انها كانت تنسى أن السكك الحديدية التى تسير بالبخار قد حلت محل عربات البريد القديمة التى كانت تملأ الطريق ضجة بعجلاتها غير أنه لم يتوقف أى انسان فى أية لحظة عن طلب حكمة الشيخة: ان عينيها فقدتا جلاهما ولكن العقل لم يفقده ·

كان هذا ما يحصل فى العالم الذى ذهب والذى يحتمل أن يكون ذهابه بغير رجعة وهل يمكن احياء هذا الدور الصغير للأمومة المباركة · اظن هذا جائزا وأظن أنكم أيها المتقاعدون من الرجال والنساء تستطيعون بعثه وتحسينه ولو فعلتم لتخلصتم أيضا من الكثير من ساعات وحدة عقيمة ·

ان الشبان ينبغي لهم أن يحيوا حياتهم الخاصة بهم وأنا من أشد انصار هذه الفلسفة ولكنى لا أسيء تصورها : قد يعيش المرء حياته كلها ولا يزال يتعلم أين يكون الخير ؟ ومن حقه أن يعيش على النحو الذى يرتضيه مادام قد قرر طريقة الحياة ، ولكنه قبل أن يقررها يكون قد اطلع على بعض الكتب وتحدث مع الغرباء واستمع الى محاضرات الكلية او جالس من هم اكبر منه سنا ممن عركوا الدهر وعرفوا حلوه ومره .

ان شر ما كان يتبعه آباؤنا هو الذى اتبعوه لأنهم كانوا يأمرون ، وكان على الصغار أن يطيعوا غير أنه توجد طريقة أخرى أكثر حكمة وهى أن ينصح الكبار ويتأمل الصغار واذا مافهم الكبار من الرجال والنساء أنهم ليسوا الا مجرد ناصحين فسيمتنعون عن فرض ارادتهم على الصغار واذا ما فهم الصغار أن كبارهم لا يحاولون أن يفرضوا رياستهم عليهم فسيستمعون اليهم في وقار وهنا نجد علاقة بين الأجيال أفضل مما كان يمكن أن يوجد منها فى المجتمعات التى يسيطر عليها الآباء والامهات ·

ان أشهر مستشـارى أمريكا الذين ينصحون بتخصيص جزء من الوقت لكل عمل يشير الى كل ما فى القصة التالية من مغزى : ان«برناردم باروش كان من قبل ملاكما ثم عاملا فى شـارع وال ثم من كبار الأثرياء وأخيرا مستشارا غير رسمى لأولئك الذين يسيرون دفة بلاده • والناس غير الناضجين الذين يكتبون قصصا جديدة عرفوا منذ وقت طويل مقعد الحـديقة في واشنجتون حيث اعتـاد هـذا المستشار أن يلقى جميع من يطلبون اليـه النصيحة ولا أعلم أى مخبر صحفى فـكر فى الحصول على نظير لهذا الرجل فى التاريخ •

« ان خير كلية فى العالم هى قطعـة من الخشب يجلس الطالب فى احد طرفيها ويجلس مارك هوبكنز فى طرفها الآخر » •

ان سنى التقاعد مقعـد فى حديقة يجلس أحد الشـبان فى طرفه وباروش فى الطرف الآخر ، وأكثر السـاعات ثمرة فى حياة الكثيرين من الشبان الطموحين هى تلك التى قضوها على مقعد باروش فى الحديقة لان هذا السياسى الشيخ صاغ فى كلمات وخطط تنفيذية الحكمة العملية فى الحياة التى اكتسبها خلال نصف قرن وياله من نصف قرن •

بدأ باروش نصائحه بتخصيص جزء من الزمن لكل عمل فى سنة ١٩١٦ حينما عينه ودروولسون (١) فى مجلس الدفاع القـومى وكان هذا عملا استشاريا محضا وكانت سنه حين ذاك ستة وأربعين عاما فقط فلم تكن لا هى ولا نشاطه تستطيعان ان تكبحا رغبتـه فى العمل • وعلى ذلك ففى سنة ١٩١٨ كان يدير مجلس الصناعات الحربية وفى هذا المنصب نفذ البرنامج الاكبر للاقتصاد الحربى تنفيذا باهر النجاح وبعدفترة هدوء عاد الى واشنجتون لمساعدة الحكومة فى معركتها ضد الكساد العظيم الذى بدأ من سنة ١٩٣٠ وكان روزفلت (٢) يطلب اليه المشورة فى كل شىء تقريبا واصبح باروش دون ريب المستشار البارز فى عهد روزفلت (اما هارى هوبكنز والقاضى صـامويل روزنمان فقـد كانا بطبيعة الحال أكثر من مستشارين) •

---

(١) Wilson, Thomas Woodrow (١٨٥٦ — ١٩٢٤) كان من رجال التعليم والسياسة الامريكيين وعين حاكما لنيوجرسى سنة ١٩١٠ وانتخب رئيسـا للولايات المتحدة من ١٩١٣ الى ١٩٢١ وأسس عصبة الامم •

Roosevelt Theodore (١٨٥٨ — ١٩١٩) تولى رياسة الولايات المتحدة أول مرة سنة ١٩٠١ واعيد انتخابه سنة ١٩٠٤ •

والآن وقد بلغ هذا الشيخ الفذ السادسة والسبعين فما زال يستطيع العمل عدة سنوات باذلا فيها جهده بمعالجة أكبر نقص فى الحياة الامريكية. أن عبء دولاب العمل « الروتين » هو الذى يقع على عاتق كل مدير مسئول ويمنعه من التفكير الصحيح فى مشاكله المهمة وقد صور هذه الحال كثير من الناس بالعبارة التى وجهوها أخيرا الى آرثر كروك بقولهم « ان واشنجتون ليس لديها الوقت الكافى للتفكير » .

اعتدت أن أسمع مراسلين عقلاء مسنين فى نادى الصحافة بواشنجتون يقولون هذه العبارة بألفاظهم الساخرة بعد قضاء عمل شاق طيلة اليوم واعتدت ان اسمع وزراء يرددون صداها وأعرف أن ثلاثة من رؤساء الجمهورية منذ ذلك الوقت تفوهوا بهذا الكلام واليوم يردده ارثر كروك معقبا به على أقوال وتأوهات وصرخات الألم من سياسيين ارتفعت بهم المناصب وسياسيين هبطت بهم ، وربما كان واجبا أن يعاد طبع تقريره بملايين النسخ وتوزيعها على الثمانية عشر مليونا من المواطنين الذين يميلون الى التقاعد لأنه يصلح أن يكون أساسا متينا لبرنامج يتبعه الرجال والنساء الذين جاوزوا الخامسة والخمسين ممن وهبوا الذكاء وقوة التفكير .

يقول مستر كروك فى مجلة نيويورك تيمز (١) الصادرة بتاريخ ٩ من ديسمبر ١٩٤٥ ما يأتى :

اذا اضطرت الظروف الى اتخاذ قرارات فى ظروف شديدة فان نظامنا الحكومى يسمح لمعظم الكبار من رؤساء المصالح بالوقت الكافى للتفكير ويدخل رئيس الجمهورية فى عداد هؤلاء الرؤساء .

والأمل ضعيف فى ادخال تعديل جوهرى فى هذا الشأن اذا كانت النتائج خطيرة ولكن لا تدعو الحاجة الى تسويتها على وجه السرعة فان حرية التفكير تتجلى قيمتها لهؤلاء الذين تعلموا كيف يفكرون وهم ليسوا كثيرى العدد .

ان الاتجار بالسياسة يدين للغريزة بالكثير وكذلك سعة الحيلة وسرعة البديهة ، وان قضاء الحياة فى هذه التجارة يميت الذهن باخضاعه للتفكير المنظم .

ان نظام المؤتمر البرلمانى عامل سىء لان مجلسى النواب والشيوخ لا يعقدان جلسات موحدة ويضطر الموظفون أن يقضوا عدة ساعات فى لجان كل منهما مع تكرار العمل فيها .

---

(١) The new york times احد صحف الاخبار بمدينة نيويورك صدرت لاول مرة سنة ١٨٥١ .

ولقد أخبرني أحد الوزراء انه كان يحضر كل صباح ومساء طيلة خمسة أيام متتالية الى الكابيتول (١) وكان في هذا الوقت يسال أمام اربع لجان الأسئلة نفسها وفى الموضوعات نفسها وكان في الوقت نفسه مطالبا ـ بشدة باتخاذ قرار وزارى فى مسألة عظيمة الاهمية وكان لايستطيع أن يتخذ هذا القرار الا بعد أن يقرأ ألوفا من صفحات بعض السجلات وكانت النتيجة أنه اتخذ قراره دون أن يكون متمكنا من الموضوع وهو ماكان يتطلبه الواجب ويستدعيه الحزم • وهذا يحدث كل أسبوع في واشنجتون •

يقول وزير الحرب روبرت بترسون : « ان متوسط مقابلاتى فى اليوم يبلغ عشرين مقابلة وهى تبدأ من الثامنة والنصف صباحا وتستمر حتى الساعة السابعة والنصف مساء ومع ذلك فدفتر مواعيدى لا يزال مشحونا لأنى فى ثلاث امسيات تركت المكتب للاشتراك فى حفلات عشاء عامة أو للتحدث في الراديو وقلما تتاح لى ساعة أو ساعتان فى اليوم للتفكير فيما يعرض من مشكلات وعلى الرغم من هذا فان هذه الفترة من الوقت لا أستطيع التفرغ فيها للتفكير لانها انما تتألف من فترات من خمس دقائق الى عشر بين مقابلة وأخرى » •

يقترح وزير البحرية جيمز فورستال أن يعين موظفون مدنيون ليريحوا رؤساء المصالح من واجباتهم نحو مراسلى الصحف والراديو ونحو رجال السياسة وهو يعترف أن هذا النظام قد لا يكون خير حل للموقف ولكنه خير ما طرأ على ذهنه •

ان قليلين من رؤساء الجمهورية هم الذين استطاعوا أن يجدوا وقتا للتفكير ولذلك فان الشئون القومية كثيرا ما تعالج بطريق الحدس والتقريب • ويرجع السبب في هذا الى سوء النظام فما الذى يستطيع المسنون من الناس أن يفعلوه فى هذا ولو كان فى أيديهم الوقت وفى المصارف المال •

قد يفعل الألوف منهم ما يفعله باروش ولدينا العدد الكافى من مقاعد الحدائق ولكن علينا أن نبحث عن العدد الكافى من الشبان لكى ينصتوا • ان اقتراح فورستال بتعيين موظفين مدنيين يضطلعون بالعمل الدولابى اقتراح سليم في حد ذاته غير أن الحاجة أمس لا الى التقليل من

---

(١) الكابيتول Capitol اسم مبنى المؤتمر الفدرالى للولايات المتحدة في واشنجتون وهذا الاسم مأخوذ من اسم معبد جوبيتر بروما القديمة وقد كان مقامة على التل الكابيتولينى وكان به مقر الحكم •

«الروتين» ولكن الى الزيادة من النصح فى ظروف تمنع مقاطعة الحديث وتغرى بالسكون فلا يوجد الا طريق واحد للتفكير وهو الهرب من المكتب حيث تدق باستمرار التليفونات وحيث يدخل صغار الموظفين ومعهم المذكرات ويدخل كبارهم بغير استئذان ليلقوا على مسامعه آخر نكتة قيلت عن أحد كبار القضاة ، فاهرب الى أحد الامكنة المنعزلة واجلس مع رجل أكبر منك سنا وأوسع خبرة وبثه شكاواك وأنصت اليه وأجب عن أسئلته وألق حبا الى الحمام وتصدق بفلس على أحد المتسولين وفك أزرار صدريتك وامدد ساقيك لأن الجسم المتراخى يتقبل الأشياء أما الجسم المتصلب فهو أسوأ من سلك التليفون المنقطعة عنه الحرارة ٠

افرض أن كلا من المائة رجل الاكثر شهرة فى لندن أو واشنجتون له مقعده فى الحديقة أو فى ساحة بلياردة الخاصة أو فى قاربه البخارى وافرض أن كلا منهم يستطيع أن يتصل تليفونيا باى شخص من بين العشرين الذين اعتزموا العمل من رجال الاعمال والعلماء والمهندسين والسياسيين وغيرهم ويطلب اليهم الحضور الى مكان الاجتماع السرى فى ظرف عشر دقائق وأن يكونوا مستعدين لقضاء نصف يوم معه وافرض أن كلا من هؤلاء المستشارين الذين ينصحون بتخصيص جزء من الوقت مضطر للحصول على أجر يبلغ مائتى جنيه سنويا للاقامة فى أشهر مدن العالم ليكون مستعدا لتلبية أى نداء من الحكومة وقد يكون محتاجا الى أجر اضافى لما يؤديه من أعمال من وقت الى آخر واذن تجدنى مستعدا لأن أوقع اليوم ضمانا بأن الحكومة ستدخر ألوف الملايين من الدولارات فى العام وان الاضرابات والاعتصام بالدور ستقل كما تقل فترات الكساد التجارى والحروب ، وأتعهد برد المال اليك اذا لم تقتنع ٠

ان الأمة لا تستطيع الحياة اذا كان نصفها مرهقا الى حد الاعياء ونصفها متراخيا فى الكسل وعلينا أن نفك الاسرى وان نحمل الكسالى على العمل وليس يقنعنى ترقيع العاصمة ولكنى انقل اعلان التحرير هذا الى كل مصنع أيضا ، وانى أود أن أغمس انفه كل رئيس فى مداد مطبعتنا لأن متاجرنا ومصانعنا الكبيرة تحتاج الى مستشارين لبعض الوقت كما تحتاج اليهم الحكومة ولدينا الأدلة الكثيرة على ذلك ٠

أخبرنا أحد أصحاب الاعمال الكبار الغيورين على أعمالهم انه منذ زمن بعيد لم يستطع أن يجد شبانا يوليهم الاعمال الرئيسية لديه ولقد قال هنرى فورد « لا يوجد العدد الكافى من العقول التى لم تبلغ الخمسين سنة للقيام بأعمال الادارة التى تحتاج اليها الصناعة » وكان فورد يبلغ

حين ذاك السابعة والسبعين وقال ان نحو نصف عماله كانوا فى سن الاربعين وما بعدها وكان القليلون بين الثمانين والتسعين (كان أسنهم حين ذاك في السابعة والثمانين) وقال انه كان يفضل المسنين لأنهم دائما ذوو أصالة فىالراى وتجربة أنضج وشعورا بالمسئولية اعمق ٠

لو صدق فورد فى قوله هذا فما تكون الحال ؟ وما أسخفنا جميعا حينئذ لو توقفنا عن العمل فىَ سن السنين أو الالخمسة والستين !. اناعلى وشك أن نخطو خطوتنا الواسعة لا أن نترك الميدان فى برودة الموتى ، ان كل فلسفة العمل والنجاح والتدريب تقوم عليها رءوس مخطئة لاننا نطيل مدة الطفولة لأطول زمن ممكن ثم نسوق الشبان والمراهقين كما نسوق الرقيق ثم نطرد ذوى الأعمار المتوسطة بمجرد عجزهم عن متابعة الخطو الذى كانوا يخطونه وهم فى الثلاثين ٠ فما النتيجة ؟ صبية فى عهد الطفولة لا يتخلون أبدا عن طرقهم الصبيانية وعمال شبان مجهدون ومتهدمون وهم فى مقتبل العمل وأكداس من حطام الحياة تتكدس حتى تبلغ الجبال طولا من الرجال والنساء الذين لا يكادون يبلغون أقصى قواهم ثم شيخوخة خاوية حزينة فهل هناك ما هو أسخف من ذلك ؟

لو أن الرجال الخبيرين يظلون يعملون بعد الستين لوجب عليهم أن يقلوا من العمل لانهم بذلك يستخدمون مهارتهم وتجاربهم فى حالات كثيرة كمستشارين لبعض الوقت وواجب علينا أن ننشىء بين المرهقين بالعمل والذين لا يعملون عملا كافيا طبقة جديدة من ذوى الحزم يقتعدون مقاعد الحدائق لأنهم سينقذون المرهقين من نتائج تفكيرهم العاجل الزلق وينقذون أنفسهم من مصير خير منه الموت وهو ملل الذهن الخامل ٠

ولتأخذ الحكومة اولا مستشارى بعض الوقت ثم ليكن الاختيار الثانى لرجال الاعمال وسيتبقى بعد ذلك فرص لألوف من الرجال والنساء ينصحون لمنفذى الاعمال فيما لدينا من ألوف المشروعات عديمة الكسب وما أشد تنوع القرارات المطلوبة فى هذا المجال فدور أداء الديون تحتاج الى من ينصحون قادتها فى عشرات الموضوعات كل شهر وكذلك دور العجائز والكنائس وفرق الكشافة وجمع كثير مما قد يذكره أى انسان ٠

ولن يستطيع أن يتقاضى الناصح أجرا الا من القليل وعلى ذلك فهذا العمل لا يستطيع أن ينهض به الا من يسعدهم الحظ بتخصيص جزء من وقتهم لأدائه بغير مقابل ومع ذلك فلدينا عشرات الألوف من أمثال هؤلاء السعداء والكثيرون منهم يقضون الليل يؤرقهم التفكير فى كيفية قضاء

اليوم التالى وفى الوقت ذاته يقضى عمـال كل الوقت فى حقول الـكروم الكثيرة كل يوم مجهدين مهمومين وعاندا أعيد صرختى واقول :

« فكوا اسار الأسرى واحملوا الكسالى على العمل » ٠
وأظنكم ستسمعون هذه الصرخة المتمردة مرة أخرى ٠

ان مئات من الرجال القريبين من المراكز العليا فى الأعمال التجارية الكبيرة لا يملكون من الوقت اللازم للتفـكير الا أكثر قليـلا مما يملـكه الموظفون المرهقون بالعمـل فهم فى حاجة الى مستشارين وان لم يعترفوا بها خشية النيل من كرامة نفوسهم على أن الزمن سيضطرهم الى الاستعانة بالشيوخ ٠

وان لم يعجلوا بهذه الاستعانة فقد يجدون هؤلاء الشيوخ منهمكين فى اسداء النصيحة للشبان كما كان يفعل بن فرانكلين Beh Fyahklih فى خير سنيه وهو لم يقتصر على الشبان بل كان ينصح للشيـوخ كذلك وكان ينصح للحكومة ، وقد لعب دورا فى سنوات أمريكا الانشائية حدث عنه ولا حرج ٠ واذا كان واشنجتون أبا بلاده فان « بن » جدها ولقـد استخدم فى خلال النصف الثـانى من حيـاته ذكاءه وحكمته ومعلوماته الداخلية فى ألف مشكلة ومشكلة مما كان يحير ألبـاب الساسة ٠ ولن تستطيع أن تذكر اسم رجل آخر أحسن استخدام خير سنى حياته لمصلحة اخواته خيرا منه ٠

فى السنة التى تلت الحرب الف كثير من رجال الاعمـال جمـاعات متطوعة تنصح قدامى المحاربين الذين يبحثون عن أعمال ووظائف وفرص وكان الذين ليست لديهم العـدة اللازمة للعمـل الذى يريدونه يدربون عليه أو ينصحون بالتخلى عنه وكان الذين يعوزهم المال يزودون به أو يحولون الى حقول للعمل متاحة لذوى القليل من النقد ٠ وفى الجملة قام المستشارون بعمل جليل ولكن لم التوقف عند هذا الحد ؟

والشبان فى حاجة دائمـة للنصيحة التى يحصـل عليهـا قدامى المحـاربين فهم يغادرون المدارس جاهلين حقيقـة الحياة وممتلئين ترهات وسخافات فمطالبتهم بأن يضعوا جهودهم المجردة من المساعدة للقيام بعمل تجارى حر تشبه استعمال هذه العبارة الحلوة فى وصف مقامر يضع ماله على عجلة الروليت وهى تدور فى الظلام ٠ ويفقد الكثير من هؤلاء الشبان كل ما يملكون ويتألم لهم الجميع واذا لم يكن علينـا أن نسند المفلس لـكان علينا أن نعيده ثانية الى عمله وسرعان ما نضطر الى تكرار هـذه المرحمة فالرجل الذى يكتسح من الميدان لجهله يصعب أن يفيد نفسه ما لم يتعلم

كيف يفيد من أخطائه وكلمـــا عجل الحكماء بتبصيره كان ذلك أعـــود بالخير علينا جميعا ٠

كان ينبغي أن نجد في كل مدينة منظمات صغيرة من عمال بعض الوقت الذين أخذوا في الاستعداد لترك ميدان العمل يضطلعون بأعمال الاستشارة هـــذه وواجب عليهم ألا يبدوا آراءهم الا فيما يحذقون من الاعمال ، وعليهم أن يقابلوا جميع الطلاب الناشئين ويستمعوا الى قصصهم ثم يحولوهم الى الاخصائيين من المستشارين ســواء اعتزلوا العمل أو لا ويجب ألا تكون النصيحة لاذعة ولا سطحية ولا عامة بل يجب أن تـكون شخصية واقعية دقيقة ، والا كانت من النـــوع الذى يشير اليه المثـــل القديم الذى يقول ان أبخس الأشياء ثمنا فى الأرض النصيحة المجانية ٠

وهنا فرص مهمة لخمسة وعشرين ألفا على الأقل من ذوى المقـدرة الذين جاوزوا الخمسين ٠

واذا كنا نقدم مستشارى بعض الوقت لموظفى الحكومة ولكبار رجال الاعمال وللشبان الذين على وشك مزاولة التجارة فلم لا نقدم هذه الخدمة نفسها لعمال الشركات ولكن على أى وجه تكون ؟ لقد أجيب عن هـــذا السؤال أولا فى الصناعات الكهربية بأنه العديل الأدبى للحرب ٠

فالحرب تستخرج خير ما فى كثير من العمال ولكن كيف ذلك ؟ انها تضفى على أحقرهم شعورا بأنه ذو أهمية كبيرة والعامل الذى لم يتلق حياته كلمة طيبة من صاحب العمل الذى ذهب بلبه حب المال يجد على كل لافتة ان الوطن فى حاجة اليه وان عليه أن يستخلص النصر من أنياب الهزيمة بأن يبذل خير ما تنطوى عليه نفسه فهو يتجه الى مصنع يعامله كل من فيه من المدير فنازلا معاملة الجندى الذى هب ينقذ رفيقا له ضاق عليه الخناق ٠ والاحاديث النفسية التى يسمعها تفتح أمامه عالما أكبر ينتمى هو اليه ويستطيع أن ينقذه ويحسن أحواله وعلى الجملة انه لم يعد العامل رقم ٧٢٢ر٦٥ فى الادارة حرف ج بالمبنى الشمالى بل أصبح الآن جون دو القاطن بشارع المهرست ٠

ولكن كيف ينقل هذا الى زمن السلم ؟ دع من هم أكبر منك سنا أن يفكروا فى هذا الواجب الدقيق دهرا أو دهرين وانك لتستطيع حله ولكن ليس بين عشية وضحاها فليس من اليسير أن تقنع رجلا بأن له اعتبارا وهو متوجه للعمل فى قطعـة صغيرة من أمشاج المعدن ثم يصقلها اعدادا لتركيبها فيما بعـد فى مقص العشب الذى يشحن مـكدسا فى القطارات الحديدية ليباع الى أحد متاجر الهند ولكن المحارب القديم يستطيع اذا

كان رقيق الحاشية أن يعيد الأمور الى نصابها والكل يتوقف على الاتصال الشخصي فليدرك العامل انه شخص له اسم يعرفه رؤساؤه وانهم يفكرون فيه كشخص آدمي وليعرفه المستشار لبعض الوقت وليعرف أهله ومطامعه الشخصية ومشكلاته فمع الزمن يظهر عديل الحرب الادبى ٠

يحتاج العمال الى النصيحة ولكن الأسر فى حاجة اليها أمس ،واشد الجميع اليها حاجة الشبان الذين يفكرون في الزواج فكلنا يعلم أن عشرات المؤثرات كانت تعمل على تقويض الحياة المنزلية وتاجيل الزواج وتحديد النسل وراق السلطات العامة بأنقاض هذه العوامل المخربة ولم يسبق قبل مثل هذا التيار من الأحداث المجرمين وقد بلغ عددهم فى بعض المدن الأمريكية اربعة أضعاف ما كان عليه بعد الحرب العالمية الأولى وقد بلغ فى لوس انيليز عدد الزيجات المحطمة أكبر رقم سجلته مقترنا بمائة وسبع وسبعين دعوى بالطلاق والبطلان والفرقة رفعت في يوم واحد وتبذل البلاد طرا كل ما فى وسعها للحاق بلوس انجيليز ٠

ان فرقا ثلاثا تطلب المساعدة : الشبان الذين يرغبون فى الزواج ، والمتزوجون حديثا الذين يرغبون فى الافتراق ، والمسنون الذين تركهم أطفالهم وأقاربهم وكل فرقة تطلب نصيحة مستشارها الخاص ذى التجارب الواسعة والحكمة الكبيرة العميقة ونحن مغذو السير نحو تقرير نظام قومي واسع النطاق بتعيين مستشارين في دور القضاء يعالجون شئون طائفة أو أكثر من هذه الطوائف ٠

فعلى أى وجه تعد العدة لهـــذه الاستشارات ؟ لقد أخبرنى دكتور بول بوبنو Dr. Paul Popenoe مدير المعهدالأمريكى لصلة الارحام Family Relations انه ليس فى الاستطاعة الاجابة الآن عن هذا السؤال ويشرح قوله بما يأتى :

« ان اسداء النصح فن وعلم على قدم المساواة فكثير من أطباء الأمراض العقلية أو حملة الدكتوراه في علم النفس أو الاجتماع يقدمون أسوأ أنواع النصائح ، بيد أن النصيحة النصوح قد يقوم بها نســاء رجال الدين أو مدربو كرة القـدم أو كاتم سر جمعية الشـبان المسيحيـة أو الزائرة الاجتماعية ويكاد يـكون هؤلاء الاشخاص هم الذين يقومون بالنصــح والارشاد » ٠

وماهى فرصة مستشارى كل الوقت ؟ يقول دكتور بوبنو انها فرصة ضئيلة وان أكثر النصح يقوم به « عمداء الكليات ورجال الدين وأطباء الأسر وعشرات من طوائف النـــاس الأخرى ويتألف كثير من عملائهم ممن يحيلهم الأطباء عليهم » ٠

وهذا كله يشد من أزر مستشار بعض الوقت فهو لا يحتاج الى عمل يشغل كل وقته ولما كان قد قطع فى الحياة عددا كبيرا من السنين فقد أصبح فى امكانه أن يحرز الثقة أولا من الاطباء ثم ممن يحيله عليهم الاطباء وليس مايضطره الى الاعلان للحصول على عملاء ثم الاستهداف للصعاب التى يشير اليها دكتور بوبنو وهى الاعلان بأساليب تعدها صناعة الطب مجانية لمكارم الاخلاق .

ان طريقة الابتداء هى الابتداء : عرف الجيران بماتصنع ، ووقف عليها محرر الجريدة المحلية ، وشجعه على كتابة مقالات رئيسية على هذه الحاجة فتثبت بذلك قدمك ثم قف حيث ينتهى نشاطك ولا تسعه مقدرتك المالية وسيأتى عليك حين تجزيك فيه المدينة ولكنك يجب أن تبدأ كما بدأ سنتا كلوز (١) Santa Claus من الطفولة ·

تستطيع المرأة أن تتخذ خطوتها الاولى بسهولة فى أكثر الميادين اهمالا ولتسمه « القلوب الوحيدة » واسخر منه اذا استطعت ولكن اعتذر بمذلة فيما بعد فهو أحد التبعات الخطيرة التى تواجه الآن أطباء العقل وموظفى الاصلاح الاجتماعى فلقد ولت المنازل القديمة وتقام الآن مساكن تكاد لا تتسع الا لزوج وزوجة وطفل وليس للآباء والامهات مكان ينامون فيه فيخرجون ويجدون فى الاحياء المجاورة حجرات مفردة واذا مابرى الشتاء عظامهم بحثوا عن مناخ أكثر دفئا وأخذوا فى التجوال والتطواف وما أشقى هذه النفوس المضاعة ولا يدرك مدى ضياعهم المروع الا من تحدث منا معهم جلوسا على مقعد احدى الحدائق فى ضوء الشمس فى فصل الشتاء ·

يخبرك بعضهم كيف انهم كانوا يتضورون جوعا فى المدينة الكبيرة وانهم شخصوا الى هذه القرية الدافئة ليحصلوا على ثلاث وجبات فى اليوم وضياء الشمس ينصب عليهم ويخبرك بعضهم انهم لم يستطيعوا أن يتحملوا أن يكونوا على مقربة من أطفالهم الذين شبوا عن الطوق ولا يدعوا للعشاء فى أحد أمسيات الآحاد ولو مرة كل شهر ويخبرك البعض كيف ذهب الواحد اثر الآخر فى سنوات قليلة فماتت الزوجة ومات الولد وقتل ابن الاخ فى تونس وأصيب الاخ بالجنون فاعتقل ورحل ستة من قدامى الاصدقاء وأصبحت المدينة القديمة مفزعة بما سادها من سكون وغشيها من وجوه غريبة ·

---

(١) بطل من أبطال قصص الاطفال ويصور على هيئة شيخ سمين مورد الوجنتين يحمل الهدايا الى الاطفال المطيعين ليلة عيد الميلاد »

وسانتا كلوز تحريف لاسم سانت نيقولاس القديس الذى تعده روسيا قديسها الحارس ويقال ان من كراماته انه قدم بأسلوب معجز صداق لثلاث فتيات فقيرات.

اعتادت امرأة أعرفها ممن يزاولن التجارة أن تقود عربتها كل صباح لشطر الشاطىء وتبسط ملحفة من الصوف وتستعرض عمل يومها ساعة أو ساعتين قبل أن تتوجه الى مكتبها وكان يشغلها أولا الخطابات والبرقيات والتقارير ولكن بعد أسبوع أو اثنين أخذ الناس يتهادون الى الشاطىء ويقفون حولها ثم يبدون ملحوظاتهم عن الجو والحرب وكان بعضهم يقعد بلا دعوة ويثرثر وكانوا قبل أن يفرغوا من كلامهم يعترفون بأنهم يشعرون بالوحدة وانهم فى حاجة الى التحدث الى أى كان لأن أصدقاءهم على بعد مئات من الاميال وانهم اذا لم يتحدثوا أصابهم الخبال ٠

وكانت صديقتى تعطف عليهم فدعت البعض للشاى ووجدت أقاصيصهم صادقة كل الصدق وكانوا من ذوى « القلوب الوحيدة » وكان الزمن قد اختلس بعض الاصدقاء واختلست الحرب بعضا آخر وأبعدهم ذلك عن الارتحال الى الباقين فألفت صديقتى مجموعة صغيرة منهم وتركتهم ومشروعاتهم الخاصة وقد ملأ نفوسهم أسهم بعضهم ببعض بما هو أكثر من الغبطة ٠

وحاولت أن تعود الى شاطئها الصباحى ولكنها اضطرت الى التوقف عن ذلك لان عدد « القلوب الوحيدة » الذى أخذ يتردد على الشاطىء زاد زيادة كبيرة ٠

قد يظن بعض الناس ممن لا يتجاوز سن أكثرهم الأربعين أن هذا شىء يدعو للسخرية وقد يكون هذا احدى مآسى الحياة الباقية على الأيام . فماذا تستطيع المتقاعدات أن يفعلنه حيالها وكيف يستطعن استخدام بعض وقتهن لمساعدة هذه الارواح الوحيدة المضاعة سواء كان ذلك بربح شخصى أولا ٠

وقد دهش كثير من ناشرى صحف الأخبار حينما علموا انهم يستطيعون اكتساب القراء بمساعدتهم « القلوب الوحيدة » أكثر مما يستطيعونه بأية وسيلة أخرى معروفة وسيكسب أى محرر ممن يختصون بالمساعدة والنصيحة الأمينتين الصحيحتين للرجال والنساء الوحيدين انصارا أكثر مما يكسبه انصار الرياضة البدنية ومن السهل التكهن بما يقع لمن يحترف النصح والصداقة لهؤلاء الناس : ستحل به النكبات قريبا ٠

وليس لنا حتى الآن وعلى حسب ما اعرفه الا قليل من الاخصائيين المحترفين فى «القلوب الوحيدة» غير أن مجتمعنا كلما نضج وجد بكل

تاكيد رجالا ونساء يزداد عددهم باطراد ووجد فى هذا العمل مغامرة مفيدة لذيذة بل مجزية ولست فى حاجة الا الى تذكر قليل من مثل هذه الوقائع لكى تستوثق من صحة هذه الدعوى .

ان كثيرين ممن جاوزوا الستين رقيقو الحال بلا اصدقاء أو قليلو الاصدقاء واغلبهم تعوزهم الموارد الداخلية التى تعينهم على أن يشغلوا اوقاتهم بما يثير اهتمامهم وهم ينتفضون من برد الظلال التى تضفيها عليهم السآمة والخمول وهم اولئك الذين يحيلون الحياة بعد السبعين شقاء وسيأتى زمن ننشىء فيه جيلا يقل فيه مثل هؤلاء البائسين المنكودين اما اليوم فنحن مسئولون عنهم وعلينا ان نعنى بأمرهم بشكل ما .

سيجد الناصح الذكى عملا مفيدا لمن يستطيعون العمل ولهوا سارا لم لا يستطيعون الا اللهو وسيبذل جهد طاقته ليبقيهم فى مجرى الحياة الراكدة المتخلفة ويدفع بهم كلما تيسر الى التيار الجارى .

ان الذين اضنوا انفسهم فى سنوات النشــاط من اجل الناس ومشكلاتهم سيلمعون اذا ما قاموا باسداء النصح للمحبين من الشبان ولذوى البيــوت الكسيرة والقلوب الوحيدة وانى أعهد بهذه القضـايا للمدرسين والممرضات والاطباء والقضـاة ورجال الدين ليختصوها ببعض وقتهم وأرانى محابيا لهم لأنى رأيت رجال دين متقاعدين يعملون سنوات عدة مما يدعو الى امعان النظر وكلما لمحت المطران المتأنق وهو يجرع النبيذ فى نادى الجولف اتساءل : الا يزال فى العالم من يشبهون هذه النافورة المتدفقة العجوز .

نعم لابد من ذلك ولكن الجنس البشرى على ما فيه من سوء لايمكن ان ينحط الى هذا المطران ونبيذه .

لقد اسميته النافورة المتدفقة العجوز لأن الشـبان من رجال الدين حوله هم الذين اطلقوا عليه هذا الاسم بعد ان التقينا به لأول مرة فى أحد المطاعم ذات صباح قارس البرد وكنا توجهنا اليه لنتناول وجبة الغداء مبكرين وكان هو قد توجه اليه ليتناول وجبة الافطار متأخرا وكان قد ركب النهر متجها الى منبعه ليحل محل قسيس طريح الفراش بسبب ذات الرئة وكان يشبه الهنود لنحافته وسمرته معانه اسكتلندى قح وكان قد ذهب الى الهند وهو حدث حيث كان يعمل فى احد مزارع الكرم الى ان قال له رئيس الادارة : « أحسنت صنعا ايها الخادم الطيب الامين » . وأعفاه من العمل بمعاش يكفل له حســـاء الخضر وشراب

السـعال فى حجرة علوية خلفية فى أحد مخادع النـوم بمعهد تعليم دينى .

انظر كيف يتدفق : انه يقص عليك قصصا غريبة من التلال فى فصاحة غريبة ويحكى حكايات عن البنجال Bengal وجغرات Gujarat وبنجاب Punjab وكان يتلألأ وجهه بضوء الذكريات ولكنا لم تكن نلحظ ذلك بسهولة لاننا كنا مأخوذين بسحر الرواية .

لقد كانت غريبة وطريفة وكانت تروى بأسلوب عذب لان النافورة المتدفقة العجوز كانت تقذف بالكلمات من حولها كما يقذف الساحر كريات البليارد لانه تمكن من اللغة الانجليزية بعد ان ظل يعلمها للهندوس سبعة وعشرين عاما وكان يزين نطقه لهجته الاسكتلندية وتلفظه حرف الراء من اصل الحلق وكان يتمتع بموهبة خارقة للعادة فيتكلم على هامش الموضوعات وكان كل ما يقوله يبدو وكأنه صادر عن جهاز سرى منظم التفكير واننا لم نسمع من قبل شيئا كهذا .

وبعد شهر آخر كان النافورة العجوز يتحدث فى جميع الكنائس عن الهند ولم يكن يسأل مالا ولم يغال فى اطراء البعثة التبشيرية وانما كان يقول ما كان يود الناس سماعه وكان يقوله بأسلوب بديع ولم يكن يتصنع الخطابة بل يتكلم بحسب ماهو مرسوم فى نفسه من خطوط عريضة لموضوعه ثم أخذ يزور المسنين والزمنى فى ثلاث قرى من قرى الكهان (أبروشيات) وكانوا يصحبونه ويقدمونه الى الناس التقديم الصحيح وابتداء من هذه المرحلة تسلم العمل فكان يعظ كل يوم أحد بالنيابة عن بعض صغار القسس فى القرى ممن يرغبون فى الاستراحة ذلك اليوم وكان ينتقل فى عربة على ان بعض الزارعين يقسمون أنهم كثيرا ما رأوه ممتطيا صهوة جواد ينشد الأناشيد الدينية لله العلى فى حين تقفز العربة الخالية فوق الحفر والحجارة ثم عرفنا بعد زمن صحة هذه الاقوال .

أصاب المرض أحد الرجال فى المدينة ولم تستطـع زوجه أن تدير مطعمه الصغير فى احـد الطرق الجانبية فى أحد أطراف المدينة ولكن النافورة العجوز استطاع هذا الامر ففى غضون ثلاثة أسابيع كان يطهو الطعام ويقدمه وهو مرتد ميدعة ثم ان أحد الكهان المنتمين لمذهب لوثر المصلح الألمانى البروتستانتى اضطر الى أن يغيب عن جمعيته الدينيـة

الالمانية فى البلدة المجاورة يوم احد لوفاة اخية فجاة فالقى النافورة العجوز أشهر موعظة ألمانية قيلت في بلاد جون وزلى (١) John Wesley وقد سمعت ان الاهالى لا يزالون يتحدثون عنها فى فزع وطلب أحد أساتذة تاريخ الكنيسة فى المعهد الدينى المحلى الى النافورة العجوز ان يحل محله مدة أسبوعين واخبرنى الطلاب انهم كانوا يتمنون ان يتدارك الله برحمته السرمدية استاذهم فيختاره الى جواره لكى يواصل النافورة العجوز تدريس مادته .

وبعد ستة أشهر عرف الناس كلهم ان النافورة العجوز كان الرجل المسعف لاتباع وزلى وللجمعيات الاخوية الدينية ولبعض شيع البروتستانت في مقاطعات أربع متجاورات وكان يستطيع أن يعزف على الارغون ذى الأنابيب بشكل مقبول وان كان بعض السيدات يكتمن ضحكهن وكان يستطيع ان يعظ بخمس لغات ولقد فعل هذا فى مدينة المصانع فى الجنوب حيث يشقى فى العمل عمال من عشرين جنسا واذا كان شيء لا يستطيع فعله فان هذا الشيء هو أن يجلس بلا حراك ويشهد العالم وهو يمر به .

لم يات اليه العمل ابدا بل كان يقتفيه الى مربضه والظاهر انه كان يتنسم التبعات كما تتنسم الكلاب السلوقية الثعالب وكان يقضى الساعات معنا نحن طلاب الكلية الصغار يشرح مختلف المترادفات والفارق بين اللغة الهندستانية وشيء آخر وأسباب الثورة فى البنجال وألوف الألوف من المسائل الاخرى التى لم يعرض لها أساتذتنا من قبل وكل هذا فى ثنايا الحديث العابر دون تظاهر بالعلم لأنه كان حييا حياء الفتاة ومع ذلك كان ما لديه من علم يحار منه أصحاب الموسوعات وكان يستطيع أن يبز فى العمل قطيعا من البغال .

وانى أذكر هذه القطعة من قصته لأبين أن بعض الرجال يستطيعون ان يعتزلوا العمل مبكرين ولقد فعلوا فهذا المبعوث الدينى المسن الغريب ظل يقوم بتلك الواجبات الصغيرة التى لا نهاية لها فى مساعدة كل من يحتاج الى مساعدة حتى بلغ به الضعف الى أن أصبح لايقوى على مقاومة ريح الشتاء وفى احد الايام أطارته الريح ولكنه خلف وراءه روح حياته

---

(١) جون وزلى (١٧٠٣ ــ ١٧٩١) من رجال الدين الانجليز مؤسس مذهب «النظامية» Methodism او مسالك الحياة .

النادرة المثال فكان رجلا عرف كيف يعيش مادام على قيد الحياة ثم استمر يعيش لأنه كان لديه ما يستحق أن يعيش من أجله .

وكلما تلفت حولي وشاهدت كبار السن الرخويين المرضى بالنقرس مدمني الخمر بلداء الذهن وهم يجلسـون للتشـاور فيما بينهم لأنه لا عمل لهم ، اتنفس الصعداء واتمنى عودة عهد ينشيء رجالا مثل النافورة العجوز بل ربما اعتنقت مذهبه الديني لو استطعت ان استعيده .

والواعظ الذى يخصص بعض وقته للوعظ يمكن أن يكون من انبل الرجال خلال سنواته الطويلة التى يقضيها بعد اعتزال الاعمال.

ويمكنني ان افكر فى رجل لا يقل عنه نبلا والحاجة اليه امس فى هذه الايام ممن يعملون بعض الوقت ولو أردت ان اصرح عن رأيى فى ذلك الرجل وهذه الحاجة لضاق نطاق هذا الكتاب عنه ولذا فسأتكلم من جزء يسير من رأيى .

ان هذا الانسان قد يكون رجلا أو امرأة ، عالما أو أميا ، غنيا أو فقيرا، قويا أو ضعيفا ، حضريا أو ريفيا ، ويمكن أن يأتى من احدى بقاع العالم وقد تكون لغته مدعاة للسخرية ولكنه يجب أن يمتاز دائما بخصلة واحدة هى : أن يكره الظلمة والمرضى بحب العظمة من كل نوع وليبلغ فى كراهيته هذه ما بلغه توماس جفرسون Thomas Gefferson وليعمل فى التو بوحى هذه الكراهية ولا يثنيه عن عزمه الجبناء الذين يظهرون له مخاطر الطريق ولا مواليه الذين يتوعدونه بالعزل وليعلم في قرارة نفسه أن الحرية تكاد تكون الشيء الوحيد الذى يستحق أن يموت الانسان فى سـبيله لأن الحرية وحدها هى التى تجعل من الميسور وجود شيء يستحق أن يعيش الانسان لأجله .

اسمع بعض الشـبان من ذوى العيون البراقة يقولون أن العالم تحرر الى أبد الآبدين بهزيمة النازيين والفاشيين ولقد سمعت هذا القول مرة بعد أن شبت حرب ثانية وقد يمتد بى العمر لأسمعه بعد حرب ثالثة ، أنه أمنية السـاذج الذى يتبنى فكرة ساذجة ، انه الكذبة الباقية على الزمن التى تساعد على تولد الحروب وهو ينشأ فى الاذهان التى تتخيل ان الأرباح الطائلة فى حياة الناس تجنى مرة واحدة ثم تستمر

---

(١) ولد سنة ١٧٤٣ وتوفي سنة ١٨٢٦ ومن مشاهير الساسة الامريكيين وقد تولى رياسة جمهورية الولايات المتحدة من ١٨٠١ الى ١٨٠٩ .

الى ماشاء الله فمثل هذه العقول ترفض ان تعتقد ان اليقظة الدائمة هي مهر الحرية ، انها عقول لا تزال فى المهد ، فلكى نتقى جميعا هـــذه المساوي يجب علينا أن نكون دائما على أهبة الاستعداد كاملي العدة وان يكون لدينا جموع من الرجال والنساء يستطلعون طلع الظلمة الطغاة حديثي الولادة ويستحقونهم قبل ان تتجمع لهم القوة .

يقال ان الشيوخ من خيرة من يتكهنون بما تاتى به الايام وهذه خاصية لا يجدر التهوين من شانها لأن صروف الزمن تتلمس منعطفات الطرق لتختفى فيها وكل طريق سوى مؤد الى « أرض الميعاد » تحفه من جانبيه الأخاديد والخنادق العميقة وكل متفـائل مرح مثلى تحتم عليه طبيعته أن يستأجر محاميا من الطراز الاول من محامي الأبالسة وأن يمعن النظر فى مراجعة تقريره اليومى عن الناس والاشياء ويحب أن يعرف الاسوأ عن كل شيء قبل أن يخط للاحسن خطته ، والملاح الذى يسترشد فى سيره بالسـحاب الأبيض الجميل الذى يظله متجاهلا الصخور التي تحف بجانبي المضيق ، هذا الملاح من أى طراز يكون ؟ سأخبرك به : انه فى أغلب الظن مأفون دربه أحد الدهاة الذين يبحثون عن القـوة على ألا ينظر الى الاشياء الا من جانبها البراق واذا شددت عليه النكير فسرعان ما تجده يفخر بانه لا يرى فى الناس الا الحسن دائما وهنا اطلب اليه ان يوقف السفينة وأن يوصلك الى البر .

وكل جماعة تنفق كثيرا من الوقت وهى تتأنق وتشدو لنفسها وتقول « ما اجملنى ! » وتبسط ذيلها أمام النظارة كما يبسط الطاووس ذيله وتهدر قائلة «فليباركنى الله» لهى جماعة حان وقتها لاستقبال الظالم العاتي فان قيصر يعرف دائما كيف يطرى الحمقى ويجتذبهم الى صفوفه واذا اقنعت الدعرة (١) بانها أسد هصور فسرعان ما تجد هذا الاسد الهصور وهو يمسح خطمه فى ساقك ويهر كما تهر الكلاب . كل هذا كلام معاد لا يعرفه الا الشيوخ . أما الشبان فيخوضون فى الدماء حتى يعرفوه .

ولقد أوعدنا الطغاة فى بضع السنوات الأخيرة ان يصبوا علينا من العذاب سياطا وكانت كثرتهم من أولئك الفجرة الذين عرفناهم على مر الزمان فالفجور يكاد لايتغير مع الايام وسيظل الناس فى القابل من القرون والدهور يكافحون من كافحنا نحن ممن اوقدوا نيران الحرب العالمية

---

(١) الدعرة كتؤدة طائر تكون في الشجرة لا تراها الا مذعورة تهز ذنبها .

الأخيرة ؛ وليس في استطاعة محبي السلام أن يمنعوا مولد أمثال هؤلاء الجبابرة العتاة واذا ما ولدوا هـــددونا جميعا بالايذاء والضر فهـــل نستسلم لهم حينئذ ؟ كلا ! بل أن الواجب يقتضينا المبـــادرة الى كبح جماح هـــؤلاء الطغاة العادين وعلينا أن نبحث عنهم حتى اذا وجدناهم ذبحناهم قبل أن يشبوا ويكبروا وعلينا ألا نسالمهم أبدا لأننا لا نتعامل مع شرفاء مهذبين بل مع صلال سامة وجراثيم للبرص وخلايا للسرطان ، نحن نكافح قوى الموت فهل نقبل وجنات الموت الباردة في سبيل الحب الأخوى ؟

والآن هيا الى العمل . وما عسى ان يفعله الألوف منكـم ببعض وقته ايها المواطنون المتقاعدون ؟ ان لكل عصبة وكلاءها وهي تعمل كل وقتها في الترويج لقضيتها وفي شراء المشترعين وفي ترويع الناخبين وفي تضليلنا جميعا بما يحيكون من اساطير عما يتحلون من فضائل وخصال وقد يكون لبعضها شيء من القيمة وقد يكون للبعض الآخر مساوى أغور جـــذورا ومنابت ممـــا يخطر على البال فمن يدرى ؟ لا يدرى ذلك الا القليلون منا ولهـــذا يتعين على المواطنين المسنين أن يرقبوا بعين اليقظة زملاءهم حتى اذا مـا لحظوا من أحدهم بادرة شر تتجمع نشروا نبأهـــا واذاعوه ليأخذ كل حذره .

ولن تنشر هذا النبأ الا صحف قليلة ولن يحمله أحد على محمل الجد ولو ان اخبارا عن عصابات أجنبية طبعتها الجرائد على صفحاتها الأولى لما عنى نفســـه بمطالعتها الا القليلون ولذلك ينبغي لمواطنينـا المتقاعدين أن يولوا وجوههم وجهات اخرى أما ما يجب أن يفعلوه فأمر ندعه بين يدى أولئك الذين يعالجون هذه المشكلات .

وكان على الكثيرين من الرجال والنساء أن يتمرسوا بالسياسة لكى يرقبوا ظهور الناشئين من الطغاة والمستبدين وانا أعرف أن تخصيص كل الوقت للاشتغال بالسياسة أمر من الصعوبة بمكان ولكن اقتطاع جزء من الوقت لها يمكن أن يحقق الغرض نفسه وأن خمسا من النساء يستطعن أن يتناوبن الاستماع في حلقة من حلقات التشريع وقد يستطعن أن يخرجن من وسط هذا الضجيج باكثر مما يستطيعه أحد أعضاء هذه الحلقة وليس هذا الشيء سوى نشـــاط أذهانهن بما اكتسبنه من الراحة والاسترخاء مما يتخلل نوبات العمل . والمراقبون الذين يسهل عليهم وضع نظام مناوبة لمتابعة المناقشات البرلمانية واعداد مضابط دقيقة لها ساعة فساعة . هؤلاء المراقبون قليلو العدد .

ومع ذلك فسيأتى وقت على الكثيرين منكم تتنفسون فيه الصعداء وتتناولون غرغرة مطهرة وتنغمسون فى السياسات الحزبية من منبعها الأصلى وهو منبع اية حكومة تتولى الأمر فينا ولن تجنوا اى ربح من تعريضكم للطغاة وكشفكم اياهم بعد ان يكونوا قد كسبوا الانتخابات . والواجب عليكم ان تلقوا القبض عليهم وهم متلبسون بكسب السيطرة وعليكم ايضا أن تقوموا بعمل اصعب مراسا واشق معاناة . عليكم أن تنكثوا غزلهم القذر وتنقضوا بنيانهم القبيح .

وكل منكم رجلا كان أو امرأة له مكانه فى هذه الحرب التى لا تكف رحاها عن الدوران اذا ما أردنا أن نحتفظ بوطننا حرا كريما ، وان تفوقنا فى القوة وهو غير خاف على أحد يجعلنا هدفا لهجوم مستتر غرضه الاستيلاء على قوتنا هذه ليحكم بها العالم فكل مجنون بحب السلطة يؤرق ليله ما يضع من خطط وما ينصب لنا من أحابيل لنمنحه بعض قوتنا وثقوا ان جميل الحيل التى تقادم عليها العهد سيعاد حبكها وسبكها فى غضون السنوات القلائل القادمة فاذا ما فشلت وضعت خطط جديدة ونمقت عبارات جديدة وزيفت نتائج جديدة ووجه الى نبلنا وكرمنا او الى حمقنا وسفاهتنا الجديد من عبارات الاستجداء والاستعطاف وسينال طبعا اغرارنا النبلاء الانواط وشارات الشرف والمناصب فى المعاهد الأجنبية وسيظل يسطع نوط النسر الملكى من الطبقة الرابعة لمقاطعة بسارابيا (١) على صدر نائب عمدة المدينة فى الحفل السنوى الذى يقيمه « أصحاب الولاء من البساراببين » وسيسهل ذلك عليه أن يعطى عقد المجارى الى أصدقائه الثلاثة الطيبين من أهل بسارابيا .

أليست الاخوة شيئا جديرا بالاعجاب ؟!

فأنى تكون أيها المواطن حينما يعطى عقد المجارى هذا ؟! .

---

(١) بسارابيا : الجزء الشمالى الشرقى لرومانيا .

- ١٧ -
كيف تحتفظ بصلاحك واهليتك



ان السنوات المائة الأولى هي أشق السنوات .

ما أشد السنوات قسوة فى هذا القرن من الزمان المشحون بالأخطار؟ السنتان الأوليان من عهد التقاعد . فهذه الفترة القاسية هى التى ترتعد منها فرائص الكثيرين حينما يواجهونها ، ولم هذا ؟

لان الناس فيها يضطرون الى ان يغيروا فى فترة قصيرة أكثر مايمكنهم من عاداتهم القديمة فالخروج على حكم اية عادة صدمة والخروج على حكم عدة عادات ثورة عصبية ومخالفة أقوى عادات الحياة فوق طاقة الكثيرين من ذوى النفوس الضعيفة .

أتذكر أولئك الرجال الذين اعتزلوا أعمالهم في شركة لويد بلندن ؟ انهم لا يعيشون الا ثلاث سنوات بعد اليوم الذى يطوون فيه سجلاتهم ويغلقون قماطرهم ويودعون مكاتبهم أما من سعدوا منهم حتى بلغوا السبعين فقد التحقوا بمصانع بناء السفن وهذا يساير التجارب الحزينة المؤسفة التى جربها كثير من مصارف المال ودور التجارة والصناعة فقد انهى الى كثير من موظفيها مرارا وتكرارا ان مصاعب التطور لمواءمة ظروف الحياة الجديدة هدت من عزائم بعض الاشداء ممن اعتزلوا العمل وجلبت اليهم جميعا الضر والبؤس والشقاء فى ظرف سنتين اذا قدرت لهم الحياة خلالهما أما الذين يواجهون هذه العاصفة القاتلة وينجون بأنفسهم منها فتخرج بهم سفائنهم الى بحار مضيئة تحت سماوات زرق .

ولهذا نرى لزاما علينا ونحن نختتم هذه الدراسات أن نواجه مسألة هذه الصدمة العنيفة التى تختلف كل الاختلاف عن جميع المسائل ذات الصلة بالتمتع بخير سني الحياة التى يتقدمها الطلسم اللعين . ولست الا على سفر وجهتك « ارض الميعاد » التى كنت اتغنى بلبنها المصفى وشهدها الشهى ولعلى أطلت فى التغنى والحداء والشدو . ويفصل بين هذه الارض والارض التى ترتكز عليها قدماك مهاو تسوخ فيها الاقدام من التردى فى الخطيئة وهى بقاع لم يهتد الى الكشف عنها علماء تقويم البلدان فقبل أن تخطو خطوة فى رحلتك راجع نفسك وراجع زادك ومئونتك وعتادك .

فهل نعلاك سليمان مريحان لهذه الرحلة الشاقة ، وهل مزادتك مملوءة بالماء ؟ وهل أعددت ممطرتك ؟ وهل فكرت فى قاتل الحشرات «د٠د٠ت» وأين حذاؤك (١) ؟ وهل ملأت ساعتك وضبطتها ! وما سردناه عليك الآن ان هو الا نوع من مراجعة النفس ، وأنت ــ لا أحد سواك ــ تستطيع أن تقوم بهذه المراجعة الذاتية فقم بها وأحسن القيام بها واعمل حسبما تستخلصه من نتــائج وانا الزعيم لك ان تخرج من محنــة هذه الايام الحرجة دون أن يمسك منهــا الا بضعة خدوش وقرحة بسيطة فوق ابهام قدمك . وابدأ بأول يوم تتقاعد فيه عن العمل فضع فى مكان ظاهر بيانا بما سأدلى به الآن لك من أشياء ثم أعد قراءتهــا مرة على الاقل كل شهر وابسط مراجعة نفسك على أيام الشهر كلها حتى لا تكون بين يديك أعمال كثيرة تضطر الى ادائها فى يوم واحد .

سل نفسك عن كل مســألة أشــير اليها واذا ما كنت فى ريب من الجواب فسل عنه اصدقاءك ايضا :

١ ــ أتتضايق من النــاس اذا ما طلبوا اليك اداء عمل ولو كان تافها أو سهلا ؟

٢ ــ أتشكو من الصغائر أكثر مما اعتدت من الشكوى ؟

٣ ــ اتشعر فى نفسك بالرضا عن كل شيء والارتياح اليه ؟

٤ ــ اتقضى كثيرا من الوقت فى النواح طلبــا للمزيد من الأمان ورغد العيش ؟

٥ ــ أتتهرب من المغامرات حتى التافه منها ؟

٦ ــ أيصعب عليك أن تقلع عن عادة من عاداتك حتى الهين منها ؟

٧ ــ أأنت كبير الثقة بتجــاربك الشخصية غير آبه بآراء الغير ؟

٨ ــ اذا تركت وشأنك أتجــد من الصعب أن تبدأ عمــلا لحسابك الخاص وتحت مسئوليتك ؟

٩ ــ أزاد اهتمامك بأحاديث الناس على ما اعتدته من قبل ؟

---

(١) الحداة : الفأس ذات الحدين .

١٠ ــ أتكثر من نقدك تصرفات الاحداث ؟

١١ ــ أتعوزك الحماسة ؟

١٢ ــ أتشعر أنك فقدت النشوة ولا يستخفك الطرب حتى في المواقف التي ينتشي فيها من حولك ويطربون ؟

١٣ ــ أرأيت أنك أقللت من ابتـــداء الأحاديث واقتراح المقترحات وان تحمسك لها قد فتر ؟

١٤ ــ أتؤثر رفقة لداتك وصحبة أندادك ؟

١٥ ــ أأنت تبخع نفسك لنقد الناقدين ؟

١٦ ــ أتكثر الفترات التي يزيد فيها همك بالهنات الهينات؟

١٧ ــ اتراك أصبحت جعبة للجعجعة : تخلق من الحبة قبة ؟

١٨ ــ أتفر من مجالى النشاط بحجة علو سنك ؟

١٩ ــ أترغب عن ملاقاة الأغراب ؟

٢٠ ــ أتشعر كثيرا أن ليس امامك ما تســعى له أو تأمل فيه ؟

٢١ ــ أتستمرىء الرثاء لنفسك ؟

التزم الحكمة والتعقل فأنت أنت لم تتبدل وان كثيرا من الشـــبان ينحون بعض هذه المناحي وان ذوى الأسنان المتوسطة ومن هم في ربيـع العمر يظهر عليهم كثير من هذه الأعراض وانت تعرف ما ابديت منها قبل أن تعتزل العمـــل فخذه مقياســا لك حتى اذا وجدت أن ما يظهر الآن من الاعراض أكثر مما كان يظهر منذ عشر سنوات فراقب خطوك لان هــذه الزيادة آية على تقدمك نحو الشيخوخة واعمل في الحال عملا تصد به عنك أم قشعم ذات المنجل الحاصد ٠

وربما تجد من العسير الاجابة عن بعض هذه الأسئلة الا أن السؤال التالي يسير لا عسر فيه وهو من الأهمية بمكان كبير ولا يعتوره أدنى شك وفي مكنتك أن تراجع صحة الاجابة عنه في نفسك بدقة كدقة الحساب ٠

أتأكل الآن أكثر مما اعتدت ؟ (ولندخل الشراب في المأكل)

احسبك لم تكن تدرى أن كثيرا من العـــادات السيئة في البيـان المستفيض الذى سردناه آنفا تؤدى الى الاسراف في المأكل والمشرب ـ انها

تؤدى حقا اليه ولا سيما صعوبة التخلى عن عاداتك • وعدم الرغبة فى ابتداء شيء لحسابك وتحت مسئوليتك اذا تركت وشانك ونقص التحمس والابتعاد عن مجالى النشاط لتقدمك نحو الشيخوخة • وافتقارك الى شيء تتطلع اليه ، وجميع هذه الاشياء العديدة التى تورث السآمة والملل والتى مبعثها الخمول وفقدان العمل المثير للاهتمام والتلذذ •

والظاهر ان المرأة من هذه الناحية شر من الرجل ولكن كليهما ــ المرأة والرجل ــ يفرطان فى الطعام ويتناولان منه أكثر مما يستطيع البدن ان يستخدمه فيستحيل الفائض الى شحم ويضغط الشحم على الشرايين والأوردة فيتعب القلب فى ضخ الدم فيها ويجهده العمل ويأتى عليه زمن يضطره الى التوقف •

فراقب طبق عشائك بعين الصقر وضمير الولى المتعبد وراقب مشروبك على مختلف أنواعه واذكر ان مع الذهن الخاوى معدة متخمة ومع المعدة المتخمة لحدا ممثلنا •

ولنعرض الآن بكلمة عن المظاهر الشائعة لبعض المساوى التى ذكرناها :

تأمل الاسئلة المرقومة بالارقام ٥ر٨ر١٦ر١٧ فى البيان المتقدم تجد أن التحفز والشكوى والخمول والهم والقلق تنشأ كلها على وجه الخصوص من هذا الاجهاد الذى أطنبت فى الكلام عليه فان جسمك اذا كانت قوته عشرة خيول وحملته على النهوض بما يحتاج لقوة اثنى عشر فلا تعجب اذا ارتفعت حرارته وأخذ يقذف الدخان والحمم •

فان وجدت نفسك فى مثل هذا الموقف فليس لك ما تفعل غير شيء واحد : هو أن تغير الحمل الذى تنوء تحته ولهذا التغيير طرق شتى فتفهمها وسرعان ما يشملك الهدوء والسكينة فقد تستطيع أن تمدد فترة النهوض بالحمل حتى لا يصيبك الاعياء فى أى وقت ، وسالقى عليكم أبسط مثال لذلك :

حببت ذات مرة ان أقطع سيرا على الاقدام خمسة أميال فى الساعة ثم خفضت المسافة الى أربعة أميال ثم الى ثلاثة بعد فترة طويلة وهو معدل سرعتى الحالية الا فوق اليفاع والنجود فمعدل سرعتى لا يزيد فيها على ميل واحد فى الساعة ولقد تعلمت طوال عشر السنوات الماضية أن أعامل كل طلب يطلب الى معاملة المشروع الهندسى المحض فاذا استدعى منى عملا فوق مقدار معين رفضت بكل احترام تنفيذه ولم أكن أتولى عملا على غير رغبة من اقترحه وبذا لم أستشط غضبا حينما رغب الى أحد الاحداث أن أصعد التل مهرولا وذلك لانى لا أصعد التلال ركضا وهرولة كما ان

المياه لا تجرى صعدا وهذا قانون من قوانين الطبيعة فكيف لى أن اخالفه ؟

ونظرتى الى المسائل نظرة المهندس تفوق كل فلسفة وكل اسلوب ادبى فى تجنب الانفعالات العاطفية التى تنشأ من الارهاق والاجهاد وتحميل النفس مالا طاقة لها به وحبذا لو وضع لنا أحد العباقرة نظاما معنويا كاملا مؤسسا على النظريات الهندسية الصحيحة : اذن لاصبح هذا العالم جنة من جنان الفردوس ؟

فليس من مهندس يطمع فى أن تنهض آلة قوتها عشرة خيول بعبء لا ينهض به الا اثنا عشر ولكن كم من غيرهم من يلح على اجراء التجربة رعاية للعهد الماضى أو لان مستخدمى المكتب يتوقون الى لعب الكرة والصولجان يوم العطلة وان الدافع الداخلى لعمل ما يحتاجه الآخرون او ما يتوقعونه منا يؤدى الى مغامرات غير معقولة تنتهى بالبؤس والشقاء وبما هو اسوأ منهما •

وكثيرا ما تبدأ الشكوى من التوافه بالاسلوب نفسه ولكن بطريقة ماهرة خفية يصعب عليك معها تحليلها فان كثرة الاعمال الصغيرة خلال اليوم تتجمع عند الغروب فيتكون منها عبء باهظ يعود بك الى سوء التقدير الهندسى أو قد يستدعى عدد كبير من صغائر الاشياء مهارة تجاوز مقدرتك قليلا فتقضى فى كل منها وقتا طويلا وتبذل على الرغم منك فيها جهدا يستنزف قواك وهكذا تعود ثانية الى الحكاية القديمة حكاية الاجهاد والارهاق وتحميل النفس فوق طاقتها ولكنك تكتسب فى بطء مقاومة لهذه التوافه وتكون شكواك فى أولى مراحلها فاعمل على تفهم هذا الموقف حتى يسهل عليك علاجه •

ان الناس بعد الخمسين يكونون أشد حاجة الى الهندسة البشرية منهم الى اى شىء آخر فكرر هذا لنفسك مائة ألف مرة فى السنة التالية فقد يؤدى هذا الى ثبوتها واستقرارها فى قلبك وقد تجد نفسك فى حاجة الى تكرارها مرات أكثر لكى يصح ايمانك بها •

وتأمل السؤال التاسع وتيقن انك لا تسىء تأويله فقد تزداد بتقدم السن اهتماما بالاحاديث الشخصية التى تتناول الآحاد دون أن تتأثر كثيرا بها لان ذلك يتوقف على ما تصنعه بتلك الاقاويل بعد أن تتلقاها كما يتوقف على نوع ما تجرى وراءه منها وما تجمعه وكبار السن يميلون عادة الى حصر افكارهم فى ذواتهم فيكادون يكونون معنيين بالشئون الخاصة

دون العامة نتيجة للحياة المستعارة التي عاشوها في أعمـــالهم وهم في عنفوان العمر ٠

من سوء الخلق قضاء الوقت في تناول شئون الجار بالقيل والقال وان كان من الحكمة البحث بحثا دقيقا عمن هم في ضيق وكرب أو عمن يخلقون المتاعب والمشاكل وارع أن تنقد بعنـــاية ما يلوكه لسانك من الاقاويل فان أصاب محجة فلا بأس وان لم يكن الا همسا سخيفا تتناول به فضائح تافهة فاقطع دابره .

أتشعر بالحزن ويغشاك الاسى كلما نسيت اسم شخص أو عنوانه بعد أن تكون قابلته منذ اسبوع أو كلمـــا نسيت وصف الطريق الذى يوصلك الى منزل معين فتغمغم محدثا نفسك بان الشيخوخة تسرع اليك وأن ذهنك أصابه الكلال ؟

اقطع دابر هذه الوساوس أيضا فلقد تخلفت عن الركب ٠

ولا يزعجنك ما تجد من صعوبة متزايدة في تذكر الاشياء الحديثة لان هذه الصعوبة طبيعية بعد سن الستين ولا معدى عنها في الواقع ولكنها لا تعنى ما يتخيله أغلب الناس بل خير علماء النفس لدنيا أخطأوا دلالتها .

ومن الأسباب الصحيحة التي تبرر ضعف تذكر المسنين للأشياء الحديثة عما كانوا يعونه من قبل أن جميع الوظائف التي تشمل الانتباه والاهتمام تتبع أحكام قانون ويبر Weber اى انه كلما كبر الحافز ضعف أثر كل زيادة فيـــه واذا بدأ من لا شيء وزاد الى أن أصـــبح شيئا ما كانت صدمته لنا شديدة نسبيا .

وهذه هي الحال مع الكتلة المتحركة للتجارب فقد نشأت من بين ملايين الحوافز منذ الميـــلاد وكلمـــا نمت الكتلة ضعف أثر كل حافز جديد فيها واذا جلست في ظلام مطبق ساعة من الزمن لاستطعت أن ترى الحباحب على مبعدة نصف ميل منك واذا حملقت في شمس الظهيرة ولو خمس ثوان لما أمكنك أن ترى دارك وهي تحترق أمام ناظريك وبعد أن تقضى في الحياة عاما واحدا ترى الدقيقة التالية كمـــا كان يرى جدك الشهر ، وبعد أن تكون بلغت المائة ترى الشـــهر التالى كمـــا كنت ترى الدقيقة من قبل .

وهكذا الشان في الرأى والحكم فبعد أن تكون قد شاهدت مائة

صاعقة تنقض على مائة شجرة كبيرة فلن يثير عجبك أن ترى الصاعقة الحادية بعد المائة تصيب الشجرة الحادية بعد المائة وبعد أن تكون شاهدت الف الف تفاحة تهوى الى الارض فلن يستفزك ان ترى تفاحة اخرى وهى تسـقط فتصرخ من الدهشة وتهرع الى ارسـال برقية بالحادث الى صحف الاخبار لان التجارب السابقة اكتسبت معانى لا يزيدها وضوحا ما يقع بعدها من تجارب جديدة بل انها تندمج فى الآراء والأحكام القديمة وهى لا تنبت فى أفئدتنا افكارا جديدة فهى التفاحة القديمة تسقط من الشجرة القديمة نفسها الى الارض القديمة نفسها والحافز واحد من الناحية النظرية ولكنه لا شيء أكثر من علامة التكرار فى نطاق رايك وحكمك .

وارانى سيىء الظن بكل رجل بلغ السبعين اذا تأثر بجميع ما يلقى من تجارب صغيرة فى سنيه الأخيرة كما يتأثر الشباب وانى لاظن هذا الشيخ ما برح فى دور الطفولة وهو لم يقدر أن يتعلم كثيرا من الشطر الأول من حياته .

ان الشيوخ لا يمكن ان يعنوا عناية بالغة بالحوادث الجديدة لان اكثرها مر بهم أمثاله من قبل وهى لا تعدو ان تكون لهم علامة من علامات التكرار ولذلك لا أقر ما يذهب اليه الجميع من حسـبان ضعف تذكر الحوادث الجديدة آية من آيات الشيخوخة والهرم بل انه أقرب الى ان يكون معناه ان كبير السن قد نضج حتى ليرفض أن يعير علامات التكرار عنايته فان ما ترفض الاهتمام به مقياس تقاس به حكمتك كما تقاس بما تعنى به وكلما ازددت علما ومعرفة ازداد ما تغضى عنه لقلة ما يحتويه مما لا تدريه والطفل يستثيره كل شيء ، والمعدة الممتلئة لا تشتهى طعاما والذهن الشبعان لايشتهى حقائق ، وكلما قل ما تعرفه عن العالم زاد ما تلحظه فيه ، وهذا شيء طبيعى . وهب انك تلحظ كل شيء طول الوقت اذن لن يتبقى لغير ذلك شيء من الوقت والهمـة واذن من ذا الذى يدفع ثمن مطالب البيت فى أول الشهر ؟ .

هل تتجنب الالعاب والرياضة والرحلات والحفـلات والنـوادى ومجالى النشاط الاخرى لأنك تحس بانك أقل مستوى من الشبان الذين ستختلط بهم ؟ واذن اعمل على ان تربأ بنفسك عن هذه السخافات على التو والا ملأت بالسم خير سنى حياتك وهذه عادة حقيرة رماك بها نظام العمل الحر ، وفلسفة التنافس يجب أن تخضع الى نظام اكثر

لينا ورفقا وان صلحت هذه العادة لوحوش الغاب فلا تصلح للبشر ·
وارث للتاجر الناجح الذى التزمها التزاما أبديا ليحقق بها النجاح ·

فهو قبل الخمسين دائم الكفاح فى سـبيل التبريز والتفوق فى كل ميدان من ميادين النشاط وقد نشىء ليحرز النجصاح وينساب بين عظائم الامور والناس سواسية كأسنان المشط ولكنه يقسم برب العزة ليبزن كل منافس وليفوزن على كل خصم . ولكنه بعد الخمسين يخطو نحو المنسحدر : لم يعد يرأس من حوله من الكتبة ولم يعد الاستاذ الاول فى مادته حتى اذا ما تقاعد عن العمـــل لفه ليل الخمول الساجى فى طياته وثناياه فتقوم قيامة أعمق مواقفه وتثور ثائرته وذلك الذى كان يسود الجميع أصبح اليـــوم فى حكم العدم وبعد فترة يفثأ غضبه ويستحيل الى انقباض واستكانة : نعم لقد أصبح عدما وامسى عدما فحق عليه أن يخفى (١) على الناس عجزه .

كم كهان ممن أشرفوا على اماكن الوعظ الدينى ، وكم معلمين ممن اداروا حلقات العلم ، وكم ربابنة ممن قادوا السفن ، وكم عشرات غيرهم من ذوى المنـــاصب الرفيعة سقطوا فى هذه الحالة السيئة ان عليهم أن يدركوا ان لا مخرج لهم منها الا بنبذ الفلسفة التى صنعت هذه الاوحال وهى فلسفة التنـــافس التى تمجد من يعتلى القمة وتتجاهل من يرسب الى القاع وتطعم الأنانى الشـــهد وتلقم المتواضع الصـــاب والمر وهى ـ أيا كانت قائدتها فى معركة الحياة عديمة القيمة ان لم تكن شديدة الضر لمن تنحوا عن تلك المعركة فنقل عاداتها الى مرحـلة (خير سنى الحياة) اشبه شىء بطرائق القتال اذا اتبعها مروضو الأوابد والفدائيون مع من يلقون من خلانهم فى أكبر طرق المدينة بعد أن تكون الحرب قد وضعت أوزارها .

ألم تكن تشترك قبل أن تبلغ الخمسين فى نوع من أنواع الرياضة النشيطة ؟ فاذا لم تكن فعلت ذلك فادرس بدقة حالتك البدنية واتخذ لك نوعا من الرياضة لا يجهدك ولا يحتاج الى عضلات اسرع استجابة من عضلاتك ولا الى عينين أكثر حدة من عينيك ورض نفسك عليه رويدا رويدا وتجنب الاجهاد ما وسعك واذا لم تستشعر التحمس لهذه التسرية فخذها فى عبوس وجد كأنها دواء ناجع وقد تحبها مع مضى الزمن ·

---

(١) خفى الشىء استتر أو ظهر فهو من الاضداد وبعضهم يجعـــل حرف الصلة فارقا فيقول خفى عليه اذا استتر وخفى له اذا ظهر ، ويتعدى بالحركة وبالهمزة ، وبعضهم يجعل الرباعى للكتمان والثلاثى للاظهار (يراجع التفصيل فى المصباح) ·

وبعد الخمسين يصيب الانسان عادة بعض التعب والحيرة فهو ، على قول كثير من المراقبين، تعوزه روح الهواية ونوعها فهو يؤثر الاستماع الى الموسيقى على عزفها ، ومشاهدة مباراة للكرة على لعبها فهو بين النظارة من الطراز الاول وبين العاملين فى الدرك الاسفل ، وقد لا يكون فى هذا بأس اذا وقع خلال السنوات الحارة التى يكون فيها منهمكا فى جمع المال ولكن بعد أن يتمائل للتقاعد وينبرى عمله كما ينبرى القلم يستثقل ظل الوقت بين يديه فماذا يستطيع ان يفعل ؟ آه لو أن لديه دافعا من دوافع الهواية !

ما سبب نشوء هذه الحالة السيئة ؟ أظننى أعرف الجواب فالسبب هو الفلسفة القديمة نفسها ، فلسفة العمل الحر وما يتبعه من منافسة ، فالشبان يتجنبون الالعاب التى لا يستطيعون كسبها لان المكسب لا اللعب هو لذتهم الوحيدة وهم فى أثناء دراستهم بالكليات يدربون على فلسفة مدرب مشهور يقول : لا خير فى رجل يلعب الكرة لانه يحبها اذ أن عليه أن يلعب ليكسب واذا لم يكن يستطيع أن يكسب فعليه أن يغادر الميدان ؟

وبعد الخمسين ينسل الاذكياء من الناس من المعركة ليصارعوا غيرهم ويقتعدوا هم قمة التل .

هل تقضى كل وقتك فى شىء واحد تحبه ؟ وهل تتبع نظاما دولابيا لا تحيد عنه ؟ وهل يضايقك أى خروج بسيط على هذا النظام أو يعكر مزاجك ؟ ان كان ذلك كذلك فاشرع على الفور فى تخفيف وطأته والفكاك من ربقته واجعل هذا أول واجب عليك والحياة المبسطة مع ما فيها من متعة قد تكون متعبة .

ولقد قلت ان هذا الكتاب كان يجب أن يصنف لقراء ما بين السادسة والرابعة عشرة واليكم أحد الاسباب القوية وهو الاغراق فى تركيز الحياة .

والحياة التى من هذا الطراز تسلط كلها بالقوة على موضوع واحد وفى هذا خطر خطير ولا سيما لمن جاوزوا الخمسين وما نستطيعه لمعاونة أرباب الخمسين الذين وجهوا حياتهم وجهة واحدة قليل وليس أكثر من مسكنات وأثر المسكنات فى علاج العلة ضعيف .

ويمكن أن تنصرف الحياة بحذافيرها الى اى شىء سار ومن هنا ينبع النوع المخبول من المتألمين فقد ينصرف أحدهم بكليته الى حبيب أو الى

قضية سياسية أو الى جمع الثروة أو اكتساب السلطان أو المجد أو لعب الورق أو الى الوطن او الى كلب مدلل أو العزف على الكمـــان أو ادمان التدخين أو الشراب أو الى اللاهوت أو دور الصور المتحركة وهلم جرا وقد يكون كامنا فينا جميعا جنـــون الولع بشيء معين وقد تبكر في الظهور أعراض هـــذا المرض في الكثيرين منا فتصبح أذهاننا وأبداننا من ذوات الاتجاه الواحد حتى اذا بلغنا نهاية هذا الاتجاه ذهبنا هباء تذروه الريح من أثر الصدمة .

وفى عهد الشباب يقع الكثير من حوادث القتل والانتحار والسرقة ومنشأ هذا تلك العقول المدلهة فى الحب والغرام وفى عهد الشيخوخة تقع الجرائم والسخافات الصغيرة من فقدان مركز الحب ومركز الحياة ، وليس اختلال التوازن فى الغالب الا الابتعاد عن المركز ويبتعد الناس عن المركز نتيجة تضييعهم اياه ولهذا تنبغى مراجعة نظم تربية النشء على الفور ويلزمنا أن ندربهم على أن يجدوا مواضع عدة واسعة النطاق تستدعى منهم الاهتمام والعنـــاية وأن نحذرهم من أن يضـــعوا كثيرا من المحبة والتحمس والايمان على شيء واحد دون غيره لأن هذا الشيء سيزول مع الزمن أو تظهر الايام أنه لم يكن جديرا بالحب واذن ماذا يصنع ذلك المتفانى فيه ؟ سيبقى أعزل عاجزا عن السير عجز السفينة التى أخرجت من الماء . ولن يكون له ما يعيش من أجله وقد يكون هذا بعد الخمسين خطرا محدقا وضرا مهلكا .

دربوا جميع الاطفال على أن يجدوا ما يفعلونه من الاشياء السارة فى ميادين مترامية الاطراف بعيد بعضها عن بعض ودربوهم على أن يستخدموا جميع أعصابهم وعضـــلاتهم على وجوه متباينة فان لم ينتج عن هذا شيء فانهم على الاقل يبلغون مرحلة « خير سنى العمل » أكثر ليونة واوسع ادراكا وأكثر تشوقا للطريف الجديد .

واذا كنت قد ودعت الشـــباب فخذ نفسك بتصميم مضاعف لتبلغ هذه الغاية . هل نال منك القنوط أخيرا لاخفاقك فى تفهم درس ألقاه معلمك فى فصل لتربية المراهقين وهل كنت على وشك أن تتحول عن هذه الدراسة لان سنك كبرت ولا تقوى على هضم هذه الدروس ؟

اذن .. أنهى اليك نبأ طيبا ما كنت استطيع أن أنهيه اليك منذ خمس سنوات حين لم يكن أحد قد كشف عن أغرب مظاهر الاستذكار . واليكه مهذبا مشذبا منمنما كأنه قرص من الدواء :

ان « سمث » سريع الحفظ و « جونز » بطيئه وبعد الحفظ بشهرين يستبقى سمث ماحفظ أحسن مما يفعل جونز ولكن شيئا غريبا يقع ، فسريع الحفظ اخذ الآن ينسي وبطيئه أنشأ يستعيد ما لم يستطعه من قبل وانتهى الامر بأن أصبح لجونز الوانى ذاكرة سمث المتعجل ».

فتأمل هذا وتمعن فيه وانت تنفث دخان طباقك ٠

ولا تقولن بعد اليوم أنك لا تستطيع أن تحفظ أشياء جديدة بل قل أنك تحفظها في بطء وأناة وانك بذلك تجيد حفظها ٠

ونظم شئونك وفق أحكام هذا القانون ولا تقبل أن تحفظ شيئا على وجه السرعة وخبر الناس أنك تحفظ في بطء ٠

لا تحاول أبدا أن تحفظ شيئا مهما ما لم تتحقق من أهميته وخذ كل ما حدثتك عنه هنا بجد وعناية أكثر مما كنت تبذل في عملك القديم ٠

- ١٨ -

الامر اليكم الآن



لنترك قضيتنا الآن :

ليس من شاب في العصـــور التى خلت تطلع الى المستقبل الذى تواجهونه الآن فالعالم في خلال السنوات التى عشتموها أحرز من التقدم اكثر مما احرزه خلال الوف السنوات الســابقة وقد بلغ الاوج بتحطيم الذرة فالامر اليكم الآن لتمنعوا النكوص لأن النكوص يعود بكم الى الفقر والقذارة والمرض والطيرة والمظالم التى كانت تسود عهد ما قبل الذرة .

فالألوف المؤلفة من الناس رجالا ونساء ممن جاوزوا الستين يتمتعون بصحة وقوة وحكمة خير مما تمتع به أعظم الشبان والرجال ممن عاشوا فى العهود الغابرة فعصرنا الحاضر عصر الرجال غير المالوف والناس اليوم وقد امتلئوا حياة وحيوية أصبحوا اليوم مبرئين من الخوف لان الخوف لا يفشو الا بين الضعاف الخائرين . والنـــاس — وقد تجردوا من الخوف — اصبحوا يحاولون القيام بمغامرات جريئة ويتخلون عن القديم وينشدون الجديد وهو خير على كل حال .

وسيقول ذوو الجراة والاقدام لاول مرة في التاريخ ما قاله مونت كريستو (١) : «العالم لى» . ولاول مرة يستطيع الناس أن يطرحوا الاعمال المكتبية ويولوا وجوههم شطر مغامرات أغلى وأثمن واصبح من المستطاعان يضطلع حفنة من العمال بجميع دولاب العمل فى العالم بأسره وليس يربط أغلب الناس بمكاتبهم بعد الستين الا التقاليد . ولأول مرة أيضا تستطيع جمهرتنا أن تهجر العمل وتركن الى الاســترخاء وتســتمتع بما تود الاســتمتاع به فى حين نســتمتع بالبحر والزهر وتغريد الطير وكركرة الاطفال بالضحك .

ففى هذا العالم الباسم المطرب المثير ، عالم الذرة ، ستتقاعدون عن العمل وقد حصنتم أنفسكم بما حصلتم من معارف جديدة عن نفوسكم وعن

---

(١) Monte Cristo عر من مارسيليا بطل قصة مشهورة باسم كونت مونت كرستو وضعها اسكندر ديماس الكبير (عام١٨٤١) اظهرفيها ولع خياله وعلبحديثه.

لذاتكم وعن مهارتكم وعن عاداتكم . وعلم الطبيعة البشرية لم يتقدم تقدم علم الذرة ولكنه يقدم ما يكفي لتعبيد الطريق أمام كثير كانوا بالأمس فقط يرونه حزنا صعبا وستجنون الكثير اذا ما خففتم من أعمالكم تخفيفا تدريجيا قبل الاعتزال النهائي بزمن طويل واذا ما بحثتم عن مستقبلكم في طيات ماضيكم وسيجنى العالم أكثر بتحقيقكم لجميع رغباتكم واختصاصكم كلا منها بما يتيسر لكم من وقت وجهد ابتداء من الألاعيب الفارغة الى المحافظة على حرية الوطن .

والكتاب مجموعة من كلمات يضعها الكاتب ليحيط قارئيه علما بما يدور في خلده وليس من كتاب حمل شخصا ما على أن يؤدي عملا ما وما أظن هذا الذي بين أيديكم يخرج على هذه القاعدة العريقة في القدم وان كان لابد من صنع شيء فعليكم أن تصنعوه .

والأمر اليكم الآن .

حدث ذات مرة أن اكتسب أحد كبار المهرجين قلوب النظارة بشكله المضحك وكانت حفلاته مكتظة بالمتفرجين ليلا ونهارا وبعد أن جمع المال وعدده اعتزل العمل .

وبعد ان قضى في الراحة عاما زايله السكون وعراه الملل ثم غشيه الهوس واخذ اخوانه يتدبرون حاله فلحظوا انه لم يضحك قط في حياته الا وهو يقوم بدور المهرج وكان يفتعل الضحكة تحت أضواء المسرح ولذا فقد الاصدقاء الأمل في بعث البهجة الى نفسه .

وبينما هم يعقدون مجلس التشاور كان المهرج القديم يهيم على وجهه في الطرقات حتى وصل الى مسرح كانت تظهر فيه فرقته السابقة فابتاع تذكرة ودخل .

ورأى حجاب الدار بعد انصراف النظارة أنه باق وحده فتوجهوا اليه ووجدوه في حالة اعياء من الضحك العصبي العنيف (الهستيري) وكانت الدموع تنهمر فوق وجنتيه .

وهرع اليه مراسل الصحف عن المسرح وسأل الاستاذ الشيخ عن الممثل الذي جعله يضحك هذا الضحك .

وتحامل المهرج القديم على نفسه وقال في صوت متهدج :- « انك لا تعرف ما في الدنيا من سخرية حتى تخرج منها لقد كنت اضحك ممن كانوا يضحكون من أولئك المهرجين البالين » .

م قضى نحبه من الضحك .

ومباراة كرة القدم بالنسبة للاعب شيء وبالنسبة للنظارة القاعدين على الكراسى شيء آخر ، ثم هى شيء بالنسبة لهاوى سماع اللاسلكى الجالس بجوار جهازه اللاقط يستمع الى المذيعين وهم يصفون اللعب وشيء آخر بالنسبة للمحرر الصحفي بالمدينة الذى يتساءل ايختص الموضوع بزيادة المساحة نهرا او ينقصها نهرا .

فالحياة برمتها تتخذ مظاهر مختلفة بالنسبة للاعبيها ثم تتخذ مظهرا مغايرا كل المغايرة بالنسبة لمن يعتزلونها ثم يتلفتون اليها . ولقد قال بلورليتون (١) Buiwer-Lytton : ان الرجل ذا الرغبة فى اعتزال العمل رجل ذو حاسة اضافية لانه يرى الاشياء بطريقة لا يستطيعها الانسان الاعتيادى بحواسه المعروفة وهذه الحاسة الاضافية ليست اضافية بمعنى هذا اللفظ ولكنها أقرب ما تكون اليه بل هى فى اساسها منظار جديد .

ولا يسعنى ان أقرر أن هذا جزاء كل من يعتزلون الاعمال فهو لا يحصل عليه الا من ينعمون باللب وأصالة الرأى وان الفلاسفة والعلماء يجدون فى سنواتهم الاخيرة أسعد أوقاتهم بسبب هذه التجارب الغضة النضرة وهم يلجون دنيا جديدة يرون فيها باسما ماكانوا يرونه عابسا وماكان شائعا أصبح الآن يتمتع بصفة فريدة لايشركه فيها أحد كأن الانسان بعد أن قضى حياته وهو يتطلع الى وجه القمر الوضاء ركب متن صاروخ طاف به في الفضاء وتطلع الى الوجه الآخر للقمر فوجد المدن الحية تغمره وقد شيدت من لبن أخضر .

والأمر لك اذا اردت أن تغرس فى نفسك حب التقاعد الى أن تقول كما قال جورج سانتيانا George Santayono (٢) وهو فى سن الثانية والثمانين : « لم أشعر فيما مضى من حياتي بما أشعر به الآن من سعادة » .

وهذه هى الحياة حكمة الحسنة .

---

(١) قصصي انجليزى مشهور ولد سنة ١٨٠٣ وتوفي ١٨٧٣ وهو مؤلف آخر أيام بومبياى وغيرها من القصص المعروفة .

(٢) اديب وفيلسوف ـ ولد سنة ١٨٦٣ .

فهرس

الموضوع	الصفحة

هذا الكتاب

ان التمتع بالحياة واطالة العمر هما أمنيـــة كل انسان . وهى مشكلة قديمة عزت واستعصت على العلماء والمفكرين فى كل حين . وفى هذا الكتاب الذى يمتاز مؤلفـه بواسع معلوماته ، وفيض أبحاثه، يبشرنا الكاتب باطالة العمر ،ويرشدنا الى خير السبيل للاستمتاع بحيـــاة لا يظلها المرض ، ولا يقعدها العجز ، ولا يثنيهـــا عن العمل خوف الوهم ، ويهدينا الى راحة البال والطمأنينة ، بما يقدمه من آراء ونظريات وحلول مدعمة بالادلة والبراهين .

الدار القومية للطباعة والنشر



العدد ١١٨
الثمن ٣٠
١٩٦٤/٨/١٩